موريس لوبلان

الإبرة الجوفاء

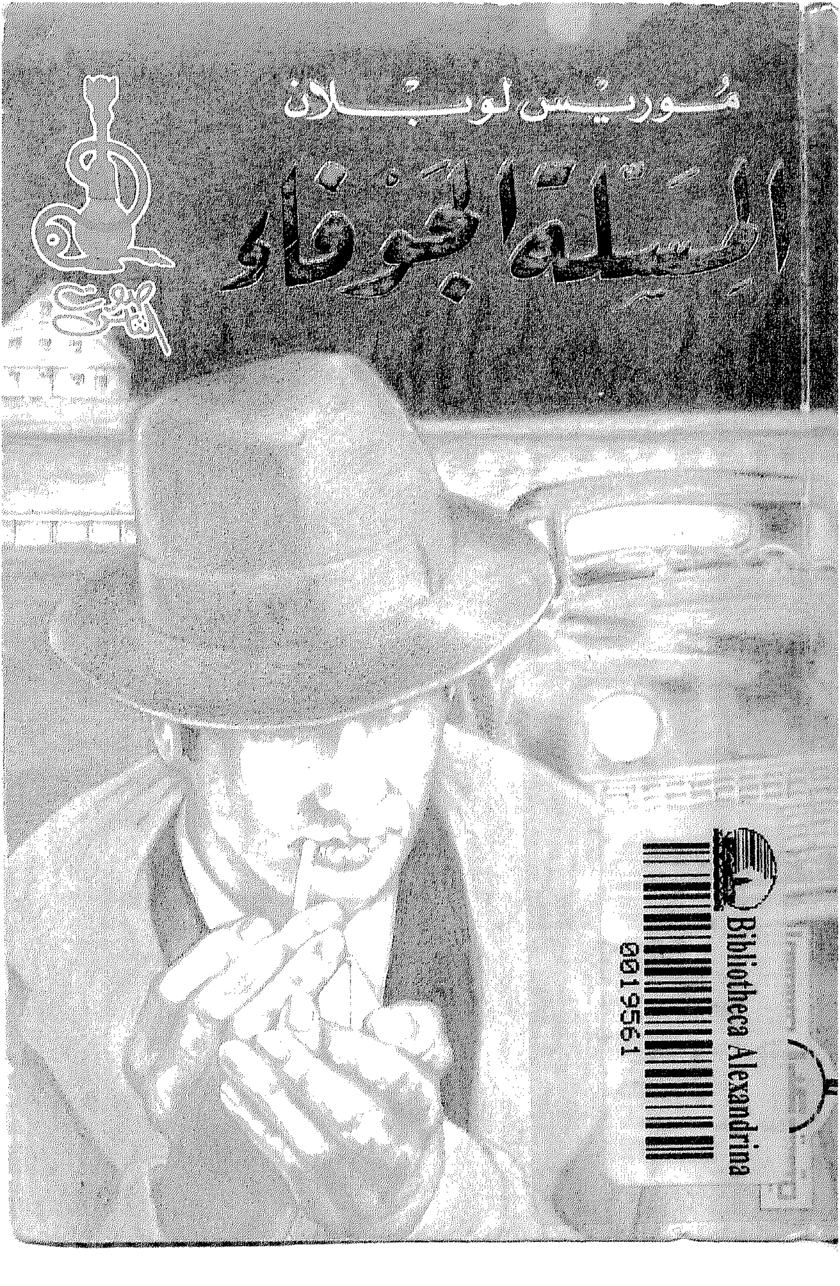

Bibliotheca Alexandrina
0019561

المِسَلّة الجَوْفاء

موريس لوبلان

المسلة الجوفاء

أرسين لوبين

صوت الناس

L'AIGUILLE CREUSE

by

MAURICE LE BLANC
(ARSENE LUPIN)

ترجمة

بسام حجار

ARABIC EDITION 1993
© SAWT AL-NAS
P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-134-x

جميع الحقوق العربية محفوظة

الطبعة الأولى: أيار/مايو ١٩٩٣
الغلاف: تصميم رملة شماعة
رسوم شيفورن كوريفان

المحتويات

الفصل الأول: الطلقة الناريّة ٩
الفصل الثاني: إيزيدور بوتروليه تلميذ
علم البيان والبلاغة ٤٥
الفصل الثالث: الجثة ٨١
الفصل الرابع: وجهاً لوجه ١١٥
الفصل الخامس: إقتفاء الأثر ١٥١
الفصل السادس: سرّ تاريخي ١٧٥
الفصل السابع: كتاب المسلّة ٢٠٣
الفصل الثامن: من قيصر الى لوبين ٢٣٥
الفصل التاسع: إفتح يا سمسم! ٢٥٧
الفصل العاشر: كنز ملوك فرنسا ٢٨٥

الفصل الأول

الطلقة الناريّة

أصغت ريموند. ومُجدّداً سُمعت الجلبة مرّةً ثم أخرى، جلبة واضحة لا يصعب التنبّه اليها من بين الأصوات الغامضة والملتبسة التي تنسج صمت الليل الهائل، غير أنها جلبة خافتة فلا تستطيع أن تقول إنها قريبة أو بعيدة، أو إذا كان مصدرها من الداخل من ذلك القصر الفسيح، أو من الخارج، من بين خلوات الحديقة المعتمة.

نهضت على مهل. كانت نافذتها مفتوحة قليلاً فشرّعت مصراعيها. كان ضياء الليلة المقمرة يخيم على منظر المرجات والأجمات الصامت حيث خرائب الدير القديم المبعثرة في الأنحاء تبرز ظلالها الصارمة. أعمدة مقطوعة، أقواس قوطيّة ناقصة، وبقايا أروقة وحطام قناطر. كانت نسائم واهنة تداعب سطح الأشياء، وتتسربُ بين أغصان الشجر الجرداء الساكنة وتتلاعب بوريقات الأجمات النابتة.

وفجأة، سُمعت الجلبة نفسها... وبدا أنها تصدر عن الجهة اليُسرى وتحت الطبقة التي تسكنها، أي ناحية الصالات التي تقع في الجناح الغربي من القصر.

وبرغم جرأتها وقوّة بأسها أحسّت الفتاة بقلقِ الخوف. فارتدت بيجامتها، وتناولت علبة ثقاب.

«ريموند... ريموند...».

كان صوتاً خافتاً كالهمس يُناديها من الغرفة المجاورة التي لم يُغلق بابها. فتلمّست طريقها واتجهت نحوها عندما خرجت سوزان، ابنة عمها، من تلك الغرفة وهرعت مرتميةً في أحضانها.

- ريموند... أهذه أنتِ؟... هل سمعتِ؟...

- أجل... أما كنت نائمة؟

- أحسب أنّ الكلب أيقظني... منذ بعض الوقت... لكنّه توقّف عن النباح. كم الساعة الآن؟

- تقارب الرابعة فجراً.

- إصغي... هناك من يمشي في الصالة.

- ليس هناك أيّ خطر فوالدك هنا يا سوزان.

- أخشى أن يكون هو من يواجه خطراً. فهو ينام بجوار الصالة الصغيرة.

- والسيّد دافال موجود هو أيضاً...

- في الناحية المقابلة من القصر... فكيف له أن يسمع؟».

بدتا حائرتين لا تعرفان ماذا تفعلان. أتناديان على أحد ما؟ أتصرخان طلباً للنجدة؟ كانت تنقصهما الجرأة إذ بدا لهما أنّ جلبة صوتيهما قد تكون مصدراً للخطر. غير أن سوزان التي دنت من النافذة في تلك الأثناء كتمت صرخةً كادت تطلقها.

- «انظري... هناك رجل قرب الحوض».

وبالفعل كان هناك رجل يبتعد هارباً بخطى سريعة. وكان يحمل تحت ذراعه شيئاً ما كبير الحجم، لم تعرفا جيّداً ما هو، إلّا أنّه كان يتـأرجـحُ مصطدماً بساقه فيعيقُ سيره. شاهدتاه يعبر بمحاذاة الكنيسة القديمة ويتجه نحو بابٍ صغير في جدار مثقوب. لا بدّ أن البـابَ كان مفتوحاً لأن الرجل تّوارى منه فجأةً دون أن تسمعا الصريرَ المعتاد للمفصّلات.

- «كان قادماً من الصالة، همست سوزان.

- لا، لو أنّه جاء من ناحية الصالة لقاده السلّم ثمّ الرواق الى ناحية أبعد نحو اليسار... إلّا إذا...».

وهـزّت كيانيهما فكرة واحدة خطرت لهما. فانحنتا وأطلّتا من النافذة. وفي الأسفل، رأتا سلّماً وُضع على الواجهة الأمامية وقد أُسنـدَ أعـلاه على جدار الطبقـة الأولى. وكانت الشرفة الحجرية مضاءة بأنوار خافتة. وشاهدتا رجلاً آخر يحمل هو أيضاً شيئاً ما، يقفز عن حافة الشرفة ويهبط السلّم على عجل متوارياً بالطريقة نفسها.

لم تتمالك سوزان نفسها فخارت قواها من هول ما رأته وتهالكت راكعةً وهي تتمتم:

- «لنطلب!... لنطلب النجدة!...

- ومن سيهرع لنجدتنا؟ والدك.... وماذا لو كان هناك آخرون فينقضّوا عليه؟

ـ بإمكاننا استدعاء الخدم... فالجرس في غرفتك موصولٌ بالطبقة التي ينامون فيها.

ـ أجل... أجل... ربّما، إنها فكرة جيدة... وعساهم يصلون في الوقت المناسب!».

فتّشت ريموند عن زرّ الجرس الكهربائي وكبسته بإصبعها. فانطلق رنين في الأعلى، وبدا لهما أنّ صوت الجرس قد يُسمع بوضوحٍ في الأسفل.

انتظرتا قليلاً. كان الصمتُ السائدُ قد أصبح مُخيفاً وحتّى النسائم كفّت عن التّلاعب بوريقات الأجمات النابتة.

«أنا خائفة... أنا خائفة...» ردّدت سوزان.

وفجأة تناهت إلى أسماعهما جلبة شجار من الأسفل اخترقت سكينة الليل، ويصحبها ضجيج أثاثٍ ينقلب وهتافات ثمّ أنين أجشّ، مُخيفٌ وكئيبٌ كأنّه حشرجة كائن يتعرّض للذبح...

قفزت ريموند نحو الباب. فتشبّثت سوزان بذراعها.

ـ «لا... لا تتركيني... أنا خائفة».

أبعدتها ريموند بحركة من يدها وهرعت تركض في الرواق ولم تلبث سوزان أن تبعتها مُترنحة من حائطٍ إلى آخر دون أن تتوقّف عن الصراخ. وصلت الى الدرج وهبطت مُتعثّرةً بكلّ درجة منه، وهرعت نحو باب الصالة حيث وقفت مذهولةً كأنّها سُمّرت على العتبة فيما لحقت بها سوزان وتهالكت بجوارها. على بُعدِ ثلاث خطوات، قبالتهما كان الرجلُ واقفاً وبيده مصباح. وبحركة خاطفة سلّط ضوء مصباحه على الفتاتين فبهر أبصارهما وتأمل وجهيهما

طويلاً، ثمّ استدار بهدوءٍ بالغ فتناول قبعته دون استعجال ولمّ عن الأرض رقعةً من ورق وقشتين، ثمّ عمد الى محو بعض الآثار عن السجّادة واقترب من الشرفة، واستدار نحو الفتاتين وحيّاهما بانحناءة مُتمهلة ثمّ توارى عن الأنظار.

هرعت سوزان الى الصالون الصغير الذي يفصل الصالة الكبرى عن غرفة أبيها. ولكنّها ما أن وصلت إليه حتّى تجمّدت أوصالها لهولِ ما رأته. كان ضوء الليلة المقمرة مُسلّطاً، في انعكاسه الموارب، على جثتين ممدّدتين بلا حراك جنباً إلى جنب.

- «أبي!.. أبي!... أهذا أنت؟... ما بك؟» صرخت سوزان مذعورة وقد انحنت فوق احدى الجثتين.

ولم تنقضِ هنيهة حتّى دبّت الحياة في جسد الكونت دو جيفر. وقال بصوت متهدّج:

- «لا تخافي... لم أصب بأذى... ودافال ألا يزال على قيد الحياة؟ السكين؟... السكين؟...».

وفي تلك اللحظة وصل خادمان يحملان شموعاً. ارتمت ريموند أمام الجثة الأخرى وأيقنت أنه جان دافال، سكرتير الكونت والمؤتمن على أسراره. وكان وجهه مُترباً يغطيه شحوب الموت.

عندئذ نهضت وعادت أدراجها الى الصالة وتناولت من خزانة السلاح المعلّقة على الحائط بندقيّة محشوة بالذخيرة وخرجت الى الشرفة. لا بدّ أنّ الرجل لم يبتعد كثيراً فلم يمضِ على مغادرته الشرفة عن طريق السلم أكثر من خمسين أو ستين ثانية، هذا بالاضافة الى الوقت الذي صرفه في إزاحة السلّم من مكانه لكي

يتعذر على الآخرين استخدامه. وبالفعل لم تلبث أن رأته راكضاً بمحاذاة السور القديم المتهدم. فأسندت البندقية إلى كتفها وسدّدت بهدوء وأطلقت النار. فسقط الرجل أرضاً.

ـ «لقد نلتِ منه! لقد نلتِ منه! قال أحد الخادمين، لقد أوقعنا بأحدهم. سأذهب اليه.

ـ لا، يا فيكتور، إنه ينهض مجدّداً... اهبط السلّم وتسلّل حتّى تصل الى الباب الصغير. فهو لن يستطيع الهرب إلّا من هناك».

هرع فيكتور هابطاً السلّم إلّا أن الرجل عاد وسقط أرضاً قبل أن تطأ قدما الخادم أرض الحديقة. فنادت ريموند الخادم الآخر:

ـ «يا ألبير، أتراه من هناك؟ قرب الرواق الكبير؟...

ـ بلى، إنه يزحف بين الأعشاب... لقد قضي عليه...

ـ راقبه من هنا.

ـ لن يستطيع الإفلات. فإلى الناحية اليمنى من الخرائب هناك المرجة المكشوفة...

ـ وأنت يا فيكتور أحرس الباب من الجهة اليُسرى»، قالت له وقد حملت بندقيتها مجدّداً.

ـ «لا تذهبي إليه يا آنسة!

ـ بلى، بلى، قالت بلهجة حازمة وحركاتٍ واثقة، دعني... لدي رصاصة أخرى... ما أن يُحرّك ساكناً...».

وغادرت. ولم تمضِ ثوانٍ حتّى رآها ألبير تسير في اتجاه الخرائب. فصرخ يُحذرها من النافذة:

ـ «لقد واصل الزحف حتى توارى خلف الرواق. لم يعد في استطاعتي أن أراه... حاذري يا آنسة...».

دارت ريموند بمحاذاة السور القديم لتقطع على الرجل أي سبيل للتراجع ثمّ لم تلبث أن غابت عن أنظار ألبير. وبعد مضي دقائق كانت لا تزال متوارية عن أنظاره فانتابه القلق ولذلك حاول أن يصل إلى السلّم بدل أن يهبط الدرج دون أن يكفّ عن مراقبة الخرائب. وما أن وصل إليه حتّى هبط مُسرعاً وهرع مباشرة في اتجاه الرواق حيث رأى الرجل لآخر مرّة. وعلى بُعد خطوات وجد ريموند تبحث عن فيكتور.

ـ «ماذا حدث؟ قال.

ـ لم نعثر عليه، قال فيكتور.

ـ والباب الصغير؟

ـ كنت هناك... وهذا مفتاحه.

ـ ولكن... ينبغي.

ـ أوه! إنّه أمر مؤكّد... عشر دقائق وننال منه، ذلك الوغد».

في تلك الأثناء وصل المزارع وابنه بعد أن أيقظهما إطلاق النار فغادرا المزرعة التي تقوم مبانيها في الجهة اليُمنى على مقربة من القصر وإن كانت داخل الأسوار، ولم يصادفا أحداً في طريقهما.

ـ «سحقاً، لا، قال ألبير، المؤكّد أنّ الوغد لم يغادر الخرائب... وسنعثر عليه مختبئاً في وكرٍ ما».

وانطلقوا جميعاً في حملة تفتيش منظمة ودقيقة، مُتفحصين كلّ دغل وألياف اللبلاب الثقيلة الملتفة حول جذوع الأعمدة. كما تمّ

التثبّت من أن الكنيسة موصدة الأبواب وأنّ أيّاً من زجاج نوافذها لم يكسر. مشى بعضهم بمحاذاة السور وتفحّص البعض الآخر كل الزوايا والخبايا. ولكن عبثاً فعلوا كل ذلك.

ولم تُسفر جهودهم إلّا عن أمر وحيد: ففي الموضع الذي سقط فيه الرجل، بعد أن أصابته طلقة ريموند، عُثر على قبعة السائق المصنوعة من جلد نمر. وسوى ذلك، لا شيء.

عند السادسة صباحاً أُبلغ قسم شرطة أوفيل لا ريفيير بالحادث وأوفد من يُعاين مكان الجريمة بعد أن تمّ إخطار النيابة العامة في «دييب» بظروف الحادث والاعراب عن الأمل في اعتقال الفاعل، «والعثور على قبّعته وعلى الخنجر الذي ارتكب بواسطته جريمته». عند العاشرة كانت عربتان تهبطان المنحدر الخفيف الذي يُفضي الى باحة القصر. الأولى، ذات غطاء يُطوى ومن أفخم الموديلات تقلّ مساعد النائب العام وقاضي التحقيق مصحوباً بكاتبه. أما العربة الأخرى، وكانت مجرد عربة متواضعة، فتقلّ مراسلين صحافيين شابين، أحدهما يعمل لحساب «لو جورنال دو روون» والثاني لصحيفة باريسية واسعة الانتشار.

ولم تلبث العربتان أن أصبحتا على مشارف القصر.

والشائع أن القصر كان في ما مضى ديراً لمصلّى «أمبروميزي»، هُدم إبّان الثورة، ثمّ عمد الكونت دو جيفر إلى ترميمه بعد أن انتقلت ملكيته اليه منذ عشرين عاماً. ويتألف القصر من قسم رئيس يعلوه برجٌ مزوّد بساعة كبيرة، ومن جناحين يُفضي إلى كلٍّ منهما درج مدخل بدرابزين من حجر. ومن أعلى أسوار الحديقة، الأكثر علواً من الهضبة التي تتوج المنحدرات النورماندية

الفسيحة، يستطيع الناظر أن يرى بين بلدتي سانت مرغريت وفارنجفيل، خطّ البحر الأزرق.

في هذا القصر يقيم الكونت دو جيفر إلى جانب ابنته سوزان، وهي فتاة شقراء جميلة ورقيقة، ومعهما ابنة أخيه ريموند دو سان فيران، التي قدِمت للعيش في القصر منذ سنتين، بعد أن جعلها موت والديها المفاجىء يتيمة ووحيدة.

كانت حياة القصر هادئة ومنتظمة في القصر. ومن حين إلى آخر يستقبل ساكنوه جيرانهم في زيارات متباعدة. أمّا في فصل الصيف، فقد جرت العادة أن يصحب الكونت الفتاتين كلّ يوم تقريباً إلى «دييب». والكونت رجل طويل القامة جميل الطلعة رصينها وقد غزا شعره الشيب. وهو ثريّ جداً يشرف بنفسه على إدارة ثروته والعناية بممتلكاته بمساعدة سكرتيره جان دافال.

ما أن وصل قاضي التحقيق حتّى تلقّى تقارير التّحقيقات الأوليّة من مفوّض الشرطة «كيفيّون». أما مسألة القبض على الفاعل فما تزال وشيكة ولكنّها لم تتمّ بعد، إلّا أن المداخل جميعها قد أخضعت للحراسة المشدّدة ولذلك فمن المستحيل أن يُفلح في الفرار.

ثمّ اجتاز الجمعُ الصالة الرئيسة وردهة الطعام في الطبقة الأرضيّة وصولاً إلى الطبقة الأولى. وأوّل ما استرعى الانتباه ذلك الترتيب المتقن لأثاث الصالة. فما من كنبة أو كرسي أو تحفة وضعت في غير مكانها المعتاد، وما من فسحات فارغة فيما بينها. وعلى الجدران، من الجهتين اليمنى واليُسرى عُلّقت سجادات حائط فلمنكية رائعة نُقشت عليها رسومُ أشخاص. أمّا في صدر الصالة، على الحائط الأخير فقد عُلّقت لوحات جميلة تُصوّر مشاهد

أسطورية. لوحات شهيرة لروبنس مُنحت للكونت دو جيفر وكذلك السجادات التي ورثها عن خاله، المركيز دو بوباديبا، أحد نبلاء إسبانيا. ولم يلبث السيد فيّول، قاضي التحقيق، أن لاحظ قائلاً:

- «إذا كان دافع الجريمة هو السرقة، فالمؤكّد أنّ هذه الصالة لم تكن هي المستهدفة من قبل الفاعلين.

- من يدري؟ قال مساعد النائب العام الذي كان لا يحبّ الكلام ومُقلاً فيه، إلاّ أنه لا يقول شيئاً، إذا تكلّم، إلاّ بالمعنى المعاكس لآراء القاضي.

- لنرَ قليلاً، يا سيدي العزيز، لو كانت السرقة هي الدافع لكان أول ما فعله الجناة هو جمع هذه السجادات واللوحات الثمينة ذات الشهرة العالمية.

- ربّما لم يتسنَّ لهم ذلك.

- هذا ما سنحاول معرفته».

في هذه الأثناء دخل الكونت دو جيفر برفقة الطبيب. وبادرهم الكونت الذي بدا أنه لم يتعافَ تماماً من الاعتداء الذي تعرّض له، بالتحية مُرحّباً بالمأمورين القضائيين. ثمّ فتح باب الصالون الصغير.

كانت الحجرة التي لم يدخلها أحدٌ منذ وقوع الجريمة باستثناء الطبيب، في حالةٍ من الفوضى التامّة. كرسيان مقلوبان وطاولة محطّمة وأشياء أخرى مُبعثرة على الأرض، ساعة سفر وملفّ وعلبة ورق رسائل. وعلى بعض هذه الأوراق البيضاء المبعثرة آثار دماء.

رفع الطبيب الشرشف الذي يُغطي الجثّة. وكان جان دافال في

ثيـابـه المخملية العاديّة منتعلاً جزمته ذات المسامير، ممدّداً على ظهـره وإحـدى ذراعيه ملوية تحته. كان قميصُه حاسراً يكشف صدره حيث بدا أثر جرح عميق.

ـ «لا بد أنّ الوفـاة كانت فورية، قال الطبيب... طعنة واحدة كانت هي القاتلة.

ـ إنّه من دون شك، قال القاضي، السكين الذي رأيته فوق مدفأة الصالة بجانب قبعة من الجلد؟

ـ أجل، قال الكونت دو جيفر، لقد عثرنا على السكين هنا، في هذا المـوضع. ولا بدّ أن الفاعل انتزعه من خزانة السلاح في الصالة حيث أخذت إبنة أخي، الآنسة دو سان فيران، البندقية المذخّرة. أمّا قبعة السائق فهي من دون ريب قبّعة القاتل».

تفحّص السيد «فيّول» بعض التفاصيل الأخرى في الحجرة، وطرح بعض الأسئلة على الطبيب، ثم سأل السيد دو جيفر أن يسرد على مسامعه كلَّ التفاصيل التي رآها والتي يعرفها. وكانت رواية الكونت على النحو التالي:

«جان دافال هو الذي أيقظني من النوم. وعلى أية حال كان نومي مضطرباً تتخلله بوارق يقظة كنت أسمع أثناءها وقع أقدام، عندما وجـدتـه فجأة، إذ فتحت عيني، واقفاً أمام سريري بيده شمعة ومـرتـدياً ثيابه كما هو الآن، ذلك انه غالباً ما يعمل حتى ساعة متـأخرة من الليل. بدا آنذاك شديد الاضطراب وقال لي بصوت خفيض: «ثمة أناس في الصالة». وبالفعل سمعتُ جلبة. فنهضتُ وفتحتُ باب الصالون الصغير على مهل. وفي اللحظة نفسها كان هناك من يقتحم ذلك الباب الآخر الذي يُفضي إلى الصالة الكبيرة،

وظهر رجلٌ لم يلبث ان اندفع نحوي وعاجلني بضربة على الصدغ أفقدتني الوعي. أروي لك الحادثة، يا سيدي المحقق، دون أي تفصيل كما ترى، وسبب ذلك انني لا أذكر سوى الوقائع الرئيسة هذا بالإضافة إلى أن تلك الوقائع قد جرت بسرعة لا توصف.

ـ وبعد؟

ـ وبعد، لا أعرف شيئاً... عندما استعدتُ وعيي كان دافال ممدّداً على الأرض جثةً هامدة.

ـ بصفة مبدئية، ألا تتّهم أحداً؟

ـ لا أحد.

ـ أليس لديك أعداء؟

ـ لا أعرفُ أعداء لي.

ـ ولا السيّد دافال.

ـ دافال! عدوّ لدافال؟ لقد كان من أفضل خلق الله. فمنذ ان أصبح جان دافال سكرتيري الخاص، أي منذ عشرين عاماً، وأستطيع ان أقول منذ ان أصبح المؤتمن على أعمالي، لم أر يوماً من يكن له سوى مشاعر المودّة والصداقة.

ـ ومع ذلك حدث ما حدث ووقعت الجريمة، فلا بد ان يكون وراء كل ما حدث دافع ما.

ـ الدافع؟ الدافع هو السرقة ولا شيء غير السرقة.

ـ وهل سرق الفاعل شيئاً؟

ـ لا، لا شيء.

ـ إذاً؟

ـ إذاً، إذا لم يُسرق شيء ولم يُفقد شيء، فلا بدّ أنهم حملوا معهم شيئاً ما على الأقل.

ـ وما هو هذا الشيء؟

ـ لست أدري. ولكن باستطاعة ابنتي وابنة أخي ان تؤكّدا لك انهما شاهدتا على التوالي رَجُلين يجتازان الحديقة، وان هذين الرجلين كانا يحملان معهما أشياء لا يُستهان بحجمها.

ـ ربما كانت الفتاتان ...

ـ ربّما كانتا تحلمان؟ أريد فعلاً ان أصدق انه حلم لأنني منذ الصباح أرهق نفسي في تقليب الأمور والافتراضات. ولكن قد يكون من الأفضل ان تعمد إلى استجوابهما».

تمّ استدعاء الفتاتين إلى الصالة الكبرى. وكانت سوزان تكاد لا تقوى على الكلام لفرط شحوبها واضطرابها. أما ريموند وهي أشد منها بأساً وحيويّة، وأكثر جمالاً أيضاً ببريق عينيها العسليتين، فقد استطاعت أن تروي أحداث الليلة المنصرمة والدور الذي لعبته فيها.

ـ «أيعني هذا يا آنسة أن أقوالك نهائية وجازمة؟

ـ بالتأكيد. لقد كان الرجلان يحملان شيئاً ما أثناء اجتيازهما الحديقة.

ـ والرجل الثالث؟

ـ لقد غادر القصر خالـيَ اليدين.

ـ أباستطاعتك أن تَصفيه لنا؟

ـ كان يصوّب نور مصباحه إلى عيوننا فيبهر أبصارنا. كلّ ما

أستطيع قوله هو انه طويل القامة ممتلىء الجسم...

ـ وهل بدا لك كما وصفته ابنة عمّك، يا آنسة؟ سأل المحقّق سوزان دو جيفر.

ـ أجل ... أو بالأحرى، لا... قالت سوزان بعد تفكير.. لقد بدا لي متوسّط القامة نَحيلها».

ابتسم السيّد «فيّول» وهو الذي اعتاد تناقض الآراء وسرد الوقائع لدى الشهود على الواقعة نفسها.

ـ «ها نحن إذاً أمام واقعتين، فمن جهة هناك شخص بمفرده، رجل الصالة الذي وصف في آن معاً بأنّه طويل القامة وقصيرها، وبأنّه ممتلىء الجسم ونحيله ـ ومن الجهة الأخرى هناك شخصان، رَجُلا الحديقة المتهمان بسرقة أشياء من الصالة... ومن هناك أيضاً؟».

كان السيّد فيّول من القضاة الذين ينتمون إلى المدرسة التهكميّة، كما يقول هو نفسه. هذا بالإضافة إلى ميوله الاستعراضية وحرصه على انتهاز كل سانحة للتباهي أمام المستمعين بحسن درايته وعلمه؛ ولا بد ان جمهرة الوافدين إلى الصالة الذين ازداد عددهم تباعاً يشهدون له بذلك. فقد انضمّ إلى المراسلين الصحفيين كل من المزارع وابنه، والبستاني وزوجته، ثمّ كافة العاملين في القصر وتبعهم السائقان اللذان قادا العربتين من «دييب». وأردف المحقق قائلاً:

ـ «المطلوب أيضاً أن تتطابق أقوال الشهود حول اختفاء هذا الشخص الثالث. لقد أطلقت النار يا آنسة من هذه البندقية وعبر تلك النافذة، أليس كذلك؟

ـ بلى، كان الرجل قد وصل الى شاهد القبر الذي تُغطيه الأشواك تقريباً، هناك، إلى الجهة اليسرى من السور.

ـ لكنّه عاد ونهض، أليس كذلك؟

ـ ليس تماماً. ثمّ ذهب فيكتور لمراقبة الباب الصغير ولحقت به بعد أن أبقيت خادمنا ألبير هنا للمراقبة».

وبدوره أدلى ألبير بإفادته، فاستنتج قاضي التحقيق قائلاً:

ـ «هذا يعني حسب أقوالك أن الجريح لم يستطع الفرار لا من الجهة اليسرى، لأن رفيقك كان يراقب الباب، ولا من الجهة اليُمنى لأنّـه لو فعل لاستطعت أن تراه أثناء اجتيازه المرجة. إذاً المنطق يقـول أنّه لا يزال حتّى الآن في المساحة الضيّقة نسبياً والواقعة تحت أبصارنا المجرّدة.

ـ هذه قناعتي.

ـ وأنتِ يا آنسة؟

ـ أجـل.

ـ وقناعتي أنا أيضاً» قال فيكتور.

عندئذٍ صرخ مساعد النائب العام بلهجة ساخرة:

ـ «إنّ نطاق الاستقصاءات ضيّق وليس علينا إلاّ أن نواصل حملة التفتيش التي بدأت منذ أربع ساعات.

ـ ربّما أسعفنا الحظ».

تناول السيد فيّول قبعة الجلد من على المدفأة وتفحّصها بعناية ثمّ نادى على مفوّض الشرطة وقال له على انفراد:

ـ «أيّها المفوّض أرسل على الفور أحد رجالك الى «دييب» ليسأل تاجر القبّعات ميغريه علّه يُطلعنا، إذا كان الأمر ممكناً، على هوية الشخص الذي ابتاع هذه القبعة».

كان «نطاق الاستقصاءات»، كما سمّاه مساعد النائب العام، ينحصر بالمساحة الممتدّة بين القصر، والمرجة التي تقع في الجهة اليُمنى، والزاوية التي يشكّلها التقاء الحائط الأيمن بالحائط المقابل للقصر؛ ما يشكّل نطاقاً مُربّعاً لا يتجاوز ضلعه المئة متر وتتخلّله هنا وهناك خرائب «أمبيروميزي»، الدير الذائع الصيت في القرون الوسطى.

وسرعان ما عثر على أثر للهارب بين الأعشاب. وفي موضعين مختلفين عثر الباحثون على آثار دماء قانية، شبه جافّة. أما بعد منعطف الرواق المقنطر الذي يحدّ طرف السور، فلم يكن هناك ما يُلفت الانتباه، فطبيعة الأرض المكسوة بإبر الصنوبر لا تسمح بتتبع أي أثر. ولكنْ، وهنا المسألة، كيف استطاع الجريح أن يُفلت برغم تنبّه الفتاة وفيكتور وألبير؟ تابعت المجموعة حملتها، أجمات شوكية هنا وهناك اجتازها الخدم ورجال الشرطة، وبعض القبور التي فتحت للاستطلاع وانتهى الأمر.

طلب قاضي التحقيق من البستاني المؤتمن على مفاتيح الكنيسة، أن يفتح له أبواب «لا شابيل دو ديو»، وهي تحفة معمارية حقيقية، لم ينل منها الزمن أو الثورات، بل لطالما كانت موضع إجلال واعتبرت على مرّ العصور إحدى معجزات الفن القوطي النورماندي بنقوش بروازها الدقيق وجمهرة الخاشعين فيها من التماثيل المنمنمة. كانت الكنيسة من الداخل متواضعة ليس ما يزيّنها سوى

المـذبح الرخامي، ولذلك لا يستطيع الهارب أن يجد ملاذاً فيها. وبأيّة حال، لم يكن بامكانه أن يدخل اليها، فكيف يدخل؟

أفضت عمليـات التفتيش الى الباب الصغير الذي يدخل منه الزائرون لمشاهدة الخرائب. وكان يؤدي مباشرة الى طريقٍ ضيّقة ومتعرّجة بين السور وغابة مقطوعة الأشجار حيث يوجد عدد من المقالع المهجورة.

انحنى السيّد فيّول: كان التراب الذي يُغطي الطريق يحمل أثر عجلات مجهّزة بأربطةٍ واقية للإنزلاق. والحال أنّ ريموند وفيكتور قالا إنّ ما سمعاه بعد إطلاق النار، ربّما كان نهج سيّارة. فقال قاضي التحقيق مُلمّحاً:

ـ «ربما استطاع الجريح أن يلحق بشركائه.

ـ مستحيل! صرخ فيكتور. لقد كنتُ هنا حين كان لا يزال تحت أنظار الآنسة وألبير.

ـ إذاً ماذا، لا بدّ أن يكون في مكانٍ ما! إمّا في الداخل وإما في الخارج، ليس أمامنا أي خيار آخر.

ـ إنّه هنا» قال الخادمان باصرار.

هزّ القـاضي كتفيه وعاد أدراجه نحو القصر نَكِدَ المزاج. فمن الواضـح أنّ القضيّـة مليئـة بالتعقيـدات. قضيّة سرقة حيث لا مسروقات، وسجين غير مرئي، وليس في هذا كلّه ما يدعو الى البهجة.

كانت السـاعـة قد جاوزت الظهـيرة فدعـا السيّـد دو جيفـر المـأمورين القضائيين الى تناول طعام الغداء برفقة الصحافيين. وكان غداءً صامتاً؛ ثمّ عاد السيّد فيّول الى الصالة حيث استجوب

الخادمين مجدّداً. وسرعان ما تناهى الى سمعه وقع خبب حصان من ناحية الباحة، وبعد ثوانٍ معدودة، دخل الى الصالة الشرطي الذي كان أوفده إلى «دبيب»:

- «إذاً، هل قابلت تاجر القبّعات؟»، قال القاضي بشبه تأنيب متلهّفاً للحصول على معلومة ما..

- «لقد بيعت القبّعة لسائق.

- سائق!

- أجل، سائق أوقف سيّارته أمام المتجر وسأل إذا كان بامكانه الحصول على قبعة سائق من الجلد الأصفر لأحد زبائنه. ولم يكن لدى التاجر سوى هذه. فابتاعها دون أن يسأل عن مقاسها وغادر. كان مستعجلاً جدّاً.

- أي طراز من السيّارات؟

- من الطراز المقفل بأربعة مقاعد.

- ومتى كان ذلك؟

- متى؟ اليوم صباحاً.

- هذا الصباح؟ ما هذا الهراء الذي تقوله؟

- لقد بيعت القبعة هذا الصباح.

- ولكن هذا مستحيل، فقد عثر عليها أثناء الليل في الحديقة. ولذلك لا بدّ أن تكون قد بيعت قبل ذلك.

- هذا الصباح. هذا ما أكّده لي تاجر القبّعات».

للحظات سادَ على الجمع مناخٌ من الذهول. وكان قاضي التحقيق

مشدوهاً يُحاول أن يفهم. ثمّ انتفض بغتة كأنّ بارقةً أيقظته.

ـ «ليتمّ استدعاء السائق الذي أقلّنا هذا الصباح!».

فهرع مفوّض الشرطة ومساعده إلى الاصطبل. وبعد دقائق عاد المفوّض بمفرده.

ـ «أيـن السائق؟

ـ لقد تناول طعام الغداء في المطبخ ثمّ...

ـ ثـمّ؟

ـ توارى عن الأنظار.

ـ والسيّـارة؟

ـ لا. السيّـارة لا زالت هنا. لقد تذرّع بزيارة أحد أقربائه في أوفيل، فاستعار دراجة السائس. وهذه قبّعته ومعطفه.

ـ وهل ذهب من دون قبّعة؟

ـ لقد أخرج من جيبه قبعة واعتمرها.

ـ قبعـة؟

ـ أجل، من الجلد الأصفر، على ما يبدو.

ـ من الجلد الأصفر؟ مستحيل، لأنّ القبعة لا تزال معي.

ـ بالفعل يا سيّدي المحقّق، ولكنّ قبعته مثل هذه».

لم يخفِ مساعد النائب العام بادرة استهزاء.

ـ «ظريف! ظريف جدّاً! هناك قبعتان إحداهما وهي موضوع القضيّة وتشكل الأدلة الثبوتية الوحيدة التي نمتلكها، فقدت عن

رأس السائق المزعوم! والثانية، وهي المزيّفة لا تزال بين يديك. آه! لقد خدعنا ذلك الرجل الطيب.

ـ إلحقوا به واقبضوا عليه وأعيدوه الى هنا! صرخ السيد فيّول. أيها المفوّض كيفيون، أرسل اثنين من رجال الخيّالة لمطاردة الفارّ.

ـ لقد ابتعد كثيراً، قال مساعد النائب العام.

ـ مهما كان بعيداً، ينبغي أن نقبض عليه.

ـ آمل ذلك، ولكن أعتقد يا سيدي المحقق أن جهودنا ينبغي أن تنصبّ على ما يمكن العثور عليه هنا. هلاّ قرأت ما دُوّن في هذه الورقة التي عثرت عليها في جيب المعطف!

ـ أي معطف؟

ـ معطف السائق».

وأعطى المساعد الورقة للسيّد فيّول. كانت ورقة مطوية بعناية وقد كتب عليها بقلم الرصاص وبخطّ غير واضح هذه الكلمات:

«الويل للآنسة إذا كانت قد قتلت الرئيس فعلاً».

أشاع مضمون الكلمات مناخاً من الانفعال والقلق.

ـ «الكلام لمن يفهم معنى الكلام، مرحباً، لقد وصلتنا الرسالة» قال المساعد مغمغماً.

ـ سيّدي الكونت، أردف المحقق قائلاً، أرجو أن لا تقلق. وأنتما أيضاً، أيتها الآنستان. رسالة التهديد هذه لا قيمة لها ما دامت العدالة تتولّى القضية وحراسة المكان. سوف تُتخذ كل الاحتياطات الضرورية. فأنا المسؤول شخصياً عن أمنكم وسلامتكم. أمّا أنتما أيها السيّدان، أضاف مخاطباً المراسلين الصحفيين، فكلّ اتكالي

على تكتمكما. ذلك أن وجودكما هنا واطلاعكما على مجرى التحقيقات كانا بسبب كياستي ولطف طباعي، وخروجكما عن التكتم حول هذا الأمر لا يكونُ إلاّ من باب نكران الجميل...».

ثمّ قطع حديثه فجأة كأنّ فكرة التمعت في رأسه، وحدّق مليّاً في وجهِ كلٍّ من الشابين تباعاً، ثمّ دنا من أحدهما:

- «لحساب أي صحيفة تعمل؟

- لحساب «لو جورنال دو روون».

- آلديك بطاقة إثبات؟

- ها هي».

كانت البطاقة قانونية. ولا مجال للإعتراض عليها. فخاطب السيد فيّول المراسل الآخر.

- «وأنت يا سيّد؟

- أنا؟

- أجل، أنت، لأية صحيفة تعمل؟

- يا الهي، سيّدي القاضي أنا أكتب لعدَدٍ من الصحف...

- أين بطاقتك؟

- لا أملك واحدة.

- آه! ولِمَ...؟

- لكي تزودك الصحيفة ببطاقة صحفية ينبغي أن تكون متفرّغاً للعمل فيها.

- وهذا يعني؟

ـ هذا يعني أنني أعمل لحسابي، وأرسل مقالاتي الى عددٍ من الصحف حيث ينشر بعضها ويُرفض بعضها الآخر، حسب الظروف.

ـ في مثل هذه الحال، ماذا تُدعى؟ وأين أوراقك الثبوتية؟

ـ اسمي لن يجديك نفعاً. أما الأوراق الثبوتية فلا أحملها.

ـ ألا تحمل أية أوراق ثبوتية تثبت أنك تزاول مهنة الصحافة؟

ـ لا مهنة لي.

ـ ولكن اسمع يا سيّد، صرخ القاضي بنبرةٍ لا تخلو من الفظاظة، لا تقل إنك تريد أن تبقي هويّتك مجهولة بعد أن دخلت الى هذا المكان بالحيلة واطّلعت على أسرار العدالة.

ـ أرجو منك يا سيّدي المحقق أن تذكر جيداً أنك لم تسألني عن كلّ هذا عندما جئتُ ولذلك لم أكن مرغماً على الاعتراف بأي شيء. هذا فضلاً عن أن التحقيق لم يبدُ لي سرياً على الاطلاق لأنه جرى أمام الجميع... ومن بينهم أحد الجناة».

كان يتكلّم بهدوء مُبدياً أقصى ما يكون عليه التهذيب. كان شاباً فتياً، طويل القامة شديد النحول يرتدي بنطالاً أقصر مما ينبغي وسترة ضيّقة. وكان وجهه المتورّد أشبه بوجه فتاة، عريض الجبين أشعث الشعر وله لحية شقراء لم تشذب باتقان. كانت عيناه تشعان بالذكاء، ولا يبدي أيّاً من معالم الحرج أو الارتباك بل كان يبتسمُ ابتسامة مودّة لا يُخالطها أثرٌ من السخرية.

كان السيّد فيّول يرمقه بارتياب وعدوانية. فدنا الشرطيان منه. وصرخ الشاب مغتبطاً:

ـ «من الواضح يا سيدي القاضي أنّك ترتاب بأمري وتحسب أنني أحد الجناة. ولكن لو كنت كذلك بالفعل أما كنت انتهزت أوّل سانحة للفرار كما فعل زميلي؟

ـ ربما كنت تأمل...

ـ كلّ أمـل بهذا المعنى ضرب من العبث. فكّر قليلاً يا سيدي القاضي، وسترى أن المنطق السليم...».

رمقه السيّد فيّول بنظرة غيظ ثابتة مباشرة في عينه وقال بجفاء:

ـ «كفّ عن المزاح! ما هو اسمك؟

ـ إيـزيـدور بوتـروليـه؟ تلميذ علم البيان والبلاغة في ثانوية جانسون ـ دو ـ سايي».

مكث السيد فيول يرمقه بنظرات جفاء مباشرةً في عينيه وقال:

ـ «ما هذا الهراء الذي تقوله؟ تلميذ علم البيان والبلاغة...

ـ في ثانوية جانسون، شارع دولا بومب، الرقم...

ـ آه! لقد طفح بي الكيل، قال السيد فيّول بنبرة غضب! أتسخر مني! يجب أن تكفّ عن هذه الألاعيب!

ـ لا أخفيك يا سيدي القاضي أنّ المفاجأة التي ارتسمت على وجهك قد أدهشتني. فما المانع في أن أكون مجرّد تلميذ في ثانوية جانسون؟ ربّما لحيتي هي السبب؟ اطمئن إنها لحية مزيّفة».

وعندئذ انتزع إيزيدور بوتروليه الشعر المزيّف الذي يغطي ذقنه فبـدا وجهـه الأمرد أكثر نضارة وشباباً وأشد توردا، وجه تلميذ بالفعل. فيما كشفت ضحكة طفولية عن أسنانه البيضاء:

- «هـل اقتنعت الآن؟ أم أنّك تحتاج إلى براهين أخرى؟ خذ، إقرأ، على هذه الرسائل التي أرسلها والدي إليّ، العنوان: «السيد إيزيدور بوترولِيه، تلميذ داخلي في ثانوية جانسون دو سايي».

سواء أقنعه كلام التلميذ أم لم يقنعه لم يبدُ أن السيّد فيّول قد استساغ الحكاية كلّها. فسأله بفظاظة:

- «ماذا أتى بك إلى هنا؟

- ولكنّي... أتعلّم.

- هناك ثانويات تتولّى أمور التعليم.. ثانويتك مثلاً.

- لقد نسيت يا سيّدي القاضي أنّ اليوم، ٢٣ نيسان/أبريل، وأننا في منتصف عطلة الفصح.

- إذاً؟

- إذاً، لدي مطلق الحريّة في أن أستخدم أيام العطل كما يحلو لي.

- ووالـدك؟

- والدي يقـطن في منـطقة نائية، في وسط السافوا، وهو الذي نصحني بأن أقوم برحلة قصيرة على ضفاف المانش.

- بلحية مزيّفة؟

- أوه! لا. فكرة اللحية من ابتكاري أنا شخصياً. ففي الثانوية نتحدّث كثيراً عن المغامرات المشوّقة ونقرأ الروايات البوليسية حيث تتنكر الشخصيّات وتبدل مظهرها. ونتخيل عدداً هائلاً من الأشياء المعقدة والمخيفة. لذلك أردت أن ألهو قليلاً فوضعت اللحيّة المستعارة. وبهذه الطريقة استطعت أن أقنع الجميع بشخصيتي

الجديدة، واستطعت مساء أمس وبعد أسبوع من الروتين، أن أتعرّف إلى زميلي القادم من روون واقترح عليّ هذا الصباح، إذ علم بقضية أمبروميزي أن أرافقه الى مكان الحادثة على أن تكون أجرة السيّارة التي تقلنا مناصفة فيما بيننا».

كان إيزيدور بوترولية يسرد كلّ هذا على مسامع القاضي بمنتهى الصراحة والبساطة التي تقارب السذاجة أحياناً وكان من المستحيل أن لايشعر سامعه بمقدارالسحر الذي يشيعه كلامه. حتّى أن السيّد فيّول بالذات لم يستطع برغم تحفظه الحذر، إلّا أن يأنس لما يرويه.

فسأله بنبرةٍ بدت أقل فظاظة:

ـ «وهل أنت راضٍ عن رحلتك؟

ـ بل مسرور! لم أشهد في حياتي كلّها قضية من هذا النوع، ويبدو لي أنّها قضيّة لا يُستهان بها.

ـ كما أنها لا تخلو من التعقيدات المشوّقة التي تحبها.

ـ تعقيدات مشوّقة بالفعل يا سيدي القاضي! فأنا لا أعرف انفعالاً أقوى من ذاك الذي تثيره الوقائعُ إذ يتمّ الكشف عن خباياها، الوقائع التي تجتمع ويناقض بعضها البعض الآخر ومنها تتشكل شيئاً فشيئاً الحقيقة المحتملة.

ـ الحقيقة المحتملة، يا لاستعجالك أيها الفتى! وهل يعني هذا أنّك اهتديت الى حلّك الخاص للغز؟

ـ أوه! لا، أجاب بوترولية ضاحكاً... كلُّ ما في الأمر... أنه يبدو لي أنّ هناك بعض النقاط في القضية التي لا يستحيل أن نكوّن

حولها رأياً ما، وبعض النقاط الأخرى تبدو من الوضوح بحيث يكفي أن تستخلص الاستنتاجات حولها.

ـ أوه! لقد أصبح الأمر مشوّقاً ويبدو أنني في آخر المطاف سأعرف شيئاً ما. ذلك أني أعترف لك، ويا لخجلي الكبير، بأنني لا أعرف شيئاً.

ـ ذلك أنه لم يكن لديك الوقت لتفكّر يا سيّدي القاضي. التفكير هو الأمر الجوهري في كلّ هذا. إذ يندر أن لا تكون الوقائع تحمل في حدّ ذاتها ما يفسّرها. ألا توافقني الرأي؟ وعلى كلّ حال لم الحظ إلّا ما هو مُثبت في محضر التحقيق.

ـ يا للمعجزة! بحيث أنني لو سألتك ما هي الأشياء التي سُرقت من الصالة؟

ـ أُجيب بأنني أعرفها.

ـ أحسنت! فالسيّد هنا يعرف حول هذه القضيّة أكثر بكثير مما يعرفه المالكُ نفسه! السيّد دو جيفر له حسابه: أما السيّد بوترولیه فليس له حسابه. فالأشياء المفقودة هي مكتبة وتمثال بحجم رجل لم ينتبه الى وجودهما أحدٌ من قبل. ولو سألتك عن اسم القاتل؟

ـ أجيبك أيضاً بأنني أعرفه».

انتفض جميع الحاضرين لسماع هذا الكلام. واقترب مساعد النائب العام والمراسل الصحفي، فيما مكث السيّد دو جيفر برفقة الفتاتين يصغون بانتباه وقد لفتتهم لهجة بوترولیه الواثقة:

ـ «أتعرف اسم القاتل؟

ـ أجل.

ـ والمكان الذي ربّما يختبىء فيه؟

ـ أجـل».

راح السيّد فيّول يفرك يديه:

ـ «يا لحسن الطالع! إن القبض على هذا المجرم سيكون مأثرة السنـوات التي قضيتهـا في الخـدمـة. وبـامكانك أن تدلي بهذه المعلومات المدهشة منذ الآن؟

ـ منذ الآن، أجل... أو ربّما، إذا كنت لا تمانع. خلال ساعة أو اثنتين، لكي يتسنّى لي أن أطلع على مجريات التحقيق الذي تقوم به حتى النهاية.

ـ ولكن لا، أيها الفتى، الآن وفوراً».

في تلك اللحـظة تقدّمت ريموند دوسان فيران التي لم تفارق نظراتها إيزيدور بوترولِيه منذ بداية الحديث، ودنت من السيّد فيّول:

ـ «سيّدي القاضي...

ـ ماذا تريدين يا آنسة؟».

بدت متـرددة لثانيتين أو ثلاث وهي تحدّق ببوترولِيه ثمّ قالت للسيد فيّول:

ـ «أرجو أن تسأل السيّد عن السبب الذي دفعه يوم أمس للتنزه عند الطريق المتعرّجة الضيقة التي تفضي الى الباب الصغير».

كان كلامها مفاجئاً أثار الذهول. وبدا إيزيدور بوترولِيه مُرتبكاً.

ـ «أنا، يا آنسة! أنا! أرأيتني أمس؟».

مكثت ريموند مستغرقةً في أفكارها دون أن تفارق عيناها وجه بوترولیه، وكأنها تسعى للتثبّت في أعماقها من قناعتها، وأضافت قائلة بنبرة هادئة:

ـ «عند الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس وفيما كنتُ أجتاز الغابة، صادفتُ أثناء سيري شاباً له قامة هذا السيّد ويرتدي ثياباً مماثلة وله لحيّة مثل لحيته... وما أن رآني حتّى بدا لي أنه يحاول الاختباء.

ـ وذلك الشخص كان أنا؟

ـ لا أستطيع أن أكون جازمة بشكل مطلق لأنّ الصورة في ذاكرتي غير واضحة. ومع ذلك... مع ذلك يبدو لي أني رأيتك أنت... وإلّا فإنّ الشبه غريب...».

كان السيّد فيّول حائراً. فبعد أن انطلت عليه خدعة أحد الجناة فهل يسمح لهذا التلميذ المزعوم أن يخدعه؟

ـ «ما هو جوابك يا سيّد؟

ـ جوابي أن الآنسة مخطئة ولا يصعب علي أن أثبت عكس أقوالها. لقد كنت بالأمس عند الساعة الرابعة في فول.

ـ أنت في حاجة الى إثبات. وعلى أيّة حال ما عاد الموقف كما كان عليه. أيها المفوّض فليلازم هذا السيّد رجلٌ من رجالك».

ارتسمت على وجه إيزيدور بوترولیه معالم انزعاج واضح.

ـ «وهل سيطول بنا الأمر على هذا النحو؟

ـ الوقت اللازم لجمع المعلومات الضرورية.

ـ أرجـوك يا سيـدي القاضي، اجمعها بأقصى السرعة الممكنة وبأكبر قدر من التكتم إذا أمكن...

ـ لـماذا؟

ـ إن والدي رجل عجوز ويحبّني كثيراً... فلا أريد أن أسبّب له أيّ ضيق أو ألم».

لم ترق لهجة بوترولیه المتباكية للسيّد فيّول. فقد كانت أشبه بحوار ميلودرامي. ومع ذلك لم يبخل عليه بالوعد:

ـ «هذا المساء... أو غداً في أبعد تقدير أكون قد صمّمت على رأي بشأنك».

كان النهار قد شارف على نهايته. فعاد قاضي التحقيق مجدّداً الى خرائب السور وأمر بأن لا يُسمح للفضوليين بالدخول وراح يقسّم بأناة ودقة، مساحة الأرض إلى أجزاء لا يلبث أن يُعاينها على التوالي بتمعّن شديد، وأشرف بنفسه على كافة أعمال الاستقصاء والتحرّي، إلّا أن النهار انقضى دون أن يحرز تقدّماً يُذكر فصرّح أمام جمهرة من المراسلين الصحفيين الذين توافدوا الى القصر تباعاً:

ـ «أيّها السادة، كلّ الدلائل تشير إلى أن الجريح لا يزال هنا وفي متناول قبضتنا، كلّ الدلائل باستثناء واقع الحال. لذلك، إذا أردتم الاستئناس برأينا المتواضع، فنحن نعتقد أنه استطاع الفرار وأننا سنقبض عليه خارج هذا المكان».

إلّا أنه على سبيل الاحتياط أمر، بالاتفاق مع المفوّض، بتنظيم حراسة مشدّدة على الحديقة وبعد تدقيق آخر في الصالتين وزيارة

شملت كلّ أرجـاء القصر وبعـد أن توفّـرت لديـه كلّ المعلومـات الضرورية، عاد أدراجه الى «دييب» برفقة مساعد النائب العام.

عند حلول المساء تمّ نقل جثة جان دافال الى حجرة أخرى لأن الأوامر قضت بإبقاء الصالون الصغير مُقفلاً. تولّت امرأتان من الجوار السهر بقرب الميت تعينهما كلٌّ من سوزان وريموند. وفي الأسفل، كان إيزيدور بوترولیه نائماً فوق دكّة المصلّى القديم لا تفارقه عينان يقظتان هما عينا الناطور الذي كلّف بمراقبته. وفي هذه الأثنـاء كان عدد من رجـال الشرطة وصاحب المزرعة ونحو دزينـة من الفـلاّحين قد تولّوا، في الخارج، أعمال الحراسة بين الخرائب وعلى طول جدران السور.

لم يطرأ ما يعكّر هدوء الليل حتّى الساعة الحادية عشرة، ولكن عند الحادية عشرة وعشر دقائق دوّى صوت طلقة ناريّة في الجهة المقابلة من القصر.

ـ «انتبـاه» صرخ المفـوّض. ليمكث رجـلان هنـا!... فوسييه ولاكانو... وليتبعني الآخرون ركضاً».

انـطلقـوا جميعاً وداروا حول القصر من الجهة اليسرى. وفي العتمة المخيمة تراءى خيال شخص لم يلبث أن توارى عن الأنظار. ثمّ مرة أخرى سمعت طلقة أخرى استدرجتهم الى أبعد، إلى حدود المـزرعة تقريباً. وما أن وصلوا مجتمعين الى سياج المرعى حتّى انبثقت بغتـةً نيران مستعـرة الى الجهة اليمنى من المنزل الذي يسكنه صاحب المزرعة، ثمّ لم تلبث أن تلتها حرائق أخرى انبثقت مُستعـرةً كأعمدة ملتهبة. لقد كانت الحرائق تلتهم مبنى المخزن المليء بالقشّ.

ـ «الأوغاد! صرخ المفوّض كيفيون، إنهم هم، هم الذين أشعلوا النيران. لننقضّ عليهم يا فتيان، فلا بدّ انهم ما زالوا في الجوار».

إلاّ أن الرياح جعلت ألسنة النار تمتدّ في اتجاه المبنى الرئيس للقصر، فكان عليهم أن يتداركوا الخطر الداهم. ولذلك بذلوا كلّ ما في وسعهم لحصر النيران وشدّ من أزرهم وعدُ السيد دو جيفر الذي هرع الى مكان الحريق بأن يصرف لكلّ واحد منهم مكافأة. وعندما تمّ إخماد الحريق كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل. وكان استئناف مطاردة الجناة قد أصبح مُستحيلاً.

ـ «سنقوم بالكشفِ على المكان في الصباح، قال المفوّض... فالمؤكد أنهم خلفوا وراءهم أثراً ما... وسنعثر عليه.

ـ ولن يُضيرني، أضاف السيّد دو جيفر قائلاً، أن أعرف سبب هذا الاعتداء. إذ يبدو لي أن إشعال النيران في حزم القشّ ليس بالعمل المفيد.

ـ هيّا يا سيدي الكونت هلاّ رافقتني... فربّما أطلعتك على الأسباب التي دفعتهم إلى مثل هذا الاعتداء».

وصلا معاً إلى خرائب السور. فنادى المفوّض:

ـ «لوكانو؟.. فوسييه؟..».

وانضم شرطيون آخرون اليهما للبحث عن رفيقيهما اللذين تُركا في مراكز الحراسة. وفي آخر المطاف عُثر عليهما عند مدخل الباب الصغير. كانا ممدّدين على الأرض، مكبّلين مكمّمين معصوبي العيون.

ـ «يا سيدي الكونت، قال المفوّض في ما انهمك آخرون في فك

قيود الشرطيين، أحسبُ أن خدعتهم قد انطلت علينا كأننا مجرد أطفال.

ـ كيـف؟

ـ الطلقـات النـارية.. الهجوم.. الحريق.. كلّ هذا كان مجرّد خداع لاستدراجنا إلى هناك.. مناورة.. وفي الأثناء كانوا يكبلون رَجُلينا وتمّ لهم ما أرادوه.

ـ ما أرادوه؟

ـ إجلاء الجريح، بحق السماء!

ـ هيّا لا تقل لي أنّك مقتنع بذلك؟

ـ بلى! إنها الحقيقة المؤكدة. لم أدرك ذلك إلاّ منذ عشر دقائق فقط. غير أني لست سوى أحمق لأنني لم أدرك هذه الحقيقة إلاّ بعد فوات الأوان. فقد كان بامكاننا أن نقبض عليهم فرداً فرداً».

وإذ انتـابته موجة غضب مفاجئة راح كيفيون يضرب الأرض بقدميه غيظاً.

ـ «ولكن أين، بحق السماء؟ من أين مرّوا؟ وفي أي مكان وجدوه؟ وهو، ذلك الوغد، أين كان يختبىء؟ لقد قلّبنا المكان بحثاً عنه طوال النهار، وليس بامكان المرء أن يختبىء في غمر عشب وخاصة إذا كان جريحاً. إنها ضرب من السحر هذه الحكايات!...».

ولم تكن هذه آخر ما سيُصادفه كيفيون من مفاجآت. فعندما لاح الفجر ودخل الى المصلّى القديم الذي تحوّل الى زنزانة لاحتجاز الشاب بوترولية وجد أن الشاب بوترولية قد اختفى، وعلى كرسي مجـاور جلس الناطور منحني الجذع يغطّ في نوم عميق وبجانبه

إبريق وكأسان. وفي قعر إحدى الكأسين بقايا مسحوق أبيض.

على أثـر التحـريّات التي أجريت على الفور تبيّن أن بوترولية استطاع أن يسقي الناطور مخدراً وأنه لم يستطع الفرار إلّا من خلال نافذة يبلغ ارتفاعها مترين ونصف المتر عن الأرض ـ وأنه أخـيراً، وهنـا التفصيـل الظريف، ما كان ليستطيع الوصول إلى النافذة إلّا إذا استخدم، كمرقاة، ظهر حارسه.

الفصل الثاني

إيزيدور بوترولیه
تلميذ علم
البيان والبلاغة

مقتطف من «لو غران جورنال»:

أنبـاء الـليـل

خطف الدكتور دو لاتر
عملية تنمّ عن جراة مجنون

كان هذا العـدد من صحيفتنا قيد الطباعة عندما وصلنا نبأ عاجـل لا نجرؤ على ضمان صحّته، لفرط ما بدا لنا مُختلقاً وغير معقول. لذلك نثبت فيما يلي النبأ مُعربين عن تحفظنا حياله.

مســاء أمس، كان الدكتور دو لاتر، الجرّاح المشهور، يشاهد برفقـة زوجتـه وابنتـه عرضـاً لمسرحيـة «هرناني»، في الكوميدي ـ فرانسيز. وعند بداية الفصل الثالث، أي عند الساعة العاشرة تقـريبـاً، فُتـح باب مقصورته ودخل عليهم رجلٌ يرافقه آخران، وانحنى على اذن الدكتور وقال له بصوت عالٍ نسبياً استطاعت السيّدة دولاتر أن تسمعه:

ـ «يا دكتور، لقد كلِّفتُ بمهمّة هي أكثر المهام مشقّةً عليَّ، وأكون ممتناً لك إذا سهّلت مهمتي هذه.

ـ من أنت يا سيّد؟

ـ أنا السيّد تيزار، مفتش شرطة، ولدي أوامر باصطحابك الى السيّد دودوي في مقرّ الشرطة الرئيس.

ـ ولكن، هذا...

ـ أرجوك يا دكتور لا تتفوّه بأية كلمة، وعلى الأخصّ لا تقدم على أية حركة رعناء... ثمة خطأ مريع، ولذلك ينبغي أن يتمّ كلّ شيء بتكتم وصمت لكي لا نلفت الأنظار من حولنا. أؤكد لك أنّك ستعود الى مقصورتك قبل نهاية العرض».

نهض الطبيب من مكانه وتبع المفتش. وعند نهاية العرض كان لا يزال غائباً.

فقصدت السيّدة دو لاتر لشدّة قلقها دائرة الشرطة. والتقت هناك السيّد تيزار الحقيقي وأدركت، لهول مصابها، أن الرجل الذي اقتاد زوجها انتحل شخصية المفتش.

وقد أشارت التحريات الأولية الى أن الدكتور نُقل في سيّارة وأن هذه السيّارة ابتعدت في اتجاه ساحة الكونكورد.

وسنطلع قراءنا على مزيد من التفاصيل حول هذه المغامرة المستهجنة.

ومهما بدت المغامرة مستهجنة وغير معقولة إلاّ أنها كانت صحيحة.

كما أنها سرعان ما وصلت الى فصلها الختامي، فقد نشرت صحيفة «لو غران جورنال»، وفي طبعة الظهيرة التي أكّدت فيها نبأ

الاختطاف، في سطور قليلة تفاصيل الحدث المفاجيء الذي أسفرت عنه العمليّة.

خاتمة الـحكاية
وبداية التكهّنات

هذا الصباح، عند التاسعة، أُعيد الدكتور دو لاتر فقد أنزلته سيّارة أمام باب الرقم ٧٨، شارع دوريه، ولم تلبث أن انطلقت بسرعة كبيرة. والرقم ٧٨ في شارع دوريه هو مبنى عيادة الدكتور دو لاتر التي اعتاد أن يصل اليها كلّ صباح في تمام الساعة التاسعة.

وعندما طلب مراسلونا مقابلة الدكتور أثناء اجتماع ضمّه إلى رئيس جهاز الأمن، رحّب بهم وحدّثهم.

ـ «كلّ ما أستطيع قوله، أجاب الدكتور، هو أنني عوملت باحترام كبير. فالرجال الثلاثة الذين رافقوني من بين أكثر الناس الذين عرفتهم ظرفاً، ويتمتعون بأقصى درجات التهذيب وحسّ الدعابة بالإضافة الى كونهم محدّثين لبقين وهو ليس بالأمر الهيّن نظراً لطولِ الرحلة.

ـ كم استغرقت من الوقت؟

ـ نحو أربع ساعات.

ـ والهدف منها؟

ـ لقد اصطحبوني لمعاينة مريض كانت حالته تستدعي عملية جراحية فورية.

ـ وهل كانت عملية موفّقة؟

ـ أجل، ولكن يُخشى من المضاعفات. لو أجريت العمليّة هنا لضمنتُ نجاة المريض. ولكن هناك... والظروف التي يحيا في كنفها...

ـ أهي ظروف سيئة؟

ـ بل حقيرة... غرفة في نزل... واستحالة، لا بل استحالة مطلقة، أن يتلقّى أيّة عناية.

ـ إذاً، كيف له أن ينجو؟

ـ بمعجزة... بالإضافة الى قوّة بنيته الجسدية الاستثنائية.

ـ ألا تستطيع أن تخبرنا المزيد عن هذا الزبون الغريب؟

ـ لا أستطيع. أوّلاً لأنني أقسمت، وثانياً لأنني تلقيت عشرة آلاف فرنك دعماً لعيادتي الشعبية. وإن لم ألزم الصمت سيستعيدون هذا المبلغ.

ـ دعك من هذا! هل تعتقد هذا حقاً؟

ـ صدقاً أقول بلى، أصدّق وعدهم. فقد بدوا لي أناساً على قدر كبير من الرصانة».

هذا وقد علمنا من مصادر أخرى أن رئيس جهاز الأمن لم يتوصّل بعد الى الحصول منه على معلومات أدقّ حول العملية الجراحية التي أجراها، وحول المريض الذي عالجه وحول المناطق التي اجتازتها السيّارة. لذلك يبدو أن التوصل الى معرفة حقيقة ما حدث أمر تعترضه صعوبات كثيرة.

تلك الحقيقة التي اعترف محرّر المقابلة بعجزه عن اكتشافها،

لم تكن بعيدة المنال بالنسبة للعقول المستنيرة بعض الشيء والتي خمّنت حقيقة ما جرى عبر مقارنة بسيطة مع وقائع ما حدث ليلة البارحة في قصر أمبروميزي والتي نشرت الصحف أدقّ تفاصيلها في اليوم نفسه. وكان من البديهي أن يرى المهتمّون رابطاً ما بين ذاك الاختفاء المفاجىء للّص جريح واختطاف جرّاح شهير.

وبأية حال فإنّ التحقيقات التي أجريت حول الموضوع برهنت على صحة تلك الفرضية. فمن خلال تتبع أثر السائق المزعوم الذي توارى بعد أن استعار دراجة هوائية تمّ التثبّت من أنّه قصد غابة «الآرك» التي تبعد نحو خمسة عشر كيلومتراً عن مكان الجريمة، ومن هناك قصد بلدة سان نيكولا بعد أن رمى الدراجة في حفرة، حيث أرسل برقية هذا نصّها.

أ. ل. ن، مكتب رقم ٤٥، باريس

«الحالة خطيرة. جراحة للضرورة القصوى. أرسلوا أحد المشهورين عبر الطريق ١٤».

لا سبيل لدحض هذا الاثبات. وما أن تبلّغ شركاء الجناة في باريس حتّى هرعوا لاتخاذ إجراءاتهم. وعند العاشرة مساء أرسلوا الجرّاح المشهور عبر الطريق رقم ١٤ التي تُحاذي غابة «الآرك» وتؤدي الى «دييب». وفي هذه الأثناء استغلت العصابة الحرائق التي أشعلتها للتمويه وأفلحت في إجلاء رئيسها عن المكان ونقلته الى نزل حيث أجريت له العملية الجراحيّة فور وصول الطبيب أي نحو الساعة الثانية فجراً.

لا يرقى الشكُ الى صحة هذه الوقائع، فقد تثبّت كلٌّ من المفتّش

الممتاز غانيمار الذي أوفد خصيصاً من باريس برفقة المفتش فولانفان من عبور سيّارة خلال الليل الفائت في كلٍّ من «بونتوان» و«غورني» و«فورج»... وكذلك على الطريق المؤدية من «دييب» إلى أمبروميزي وإذا كان أثر السيّارة قد فُقد على بعد نحو كيلومترين من القصر إلّا أن التحريات قد أشارت الى وجود عددٍ كبير من آثار الأقدام بين باب الحديقة الصغير وخرائب الدير. هذا بالاضافة الى أن غانيمار لاحظ أن الباب الصغير اقتحم بعد أن خُلعت أقفاله.

لقد أصبح كلُّ شيء واضحاً إذاً. ولم يبق سوى السعي لتحديد موقع النزل الذي تحدّث عنه الدكتور دولاتر. وليس هذا بالأمر المستحيل بالنسبة للمفتش غانيمار وهو المنقّب الصبور المحنّك فعدد المنازل محدود ونظراً لحالة الجريح لا يمكن إلّا أن يكون النزل المقصود في جوار أمبروميزي. وبدأ غانيمار ومفوّض الشرطة بحملة تفتيش واسعة. ضمن نطاق دائري بلغ قطره في البداية خمسمئة متر ثمّ ألف متر ثمّ ألفاً وخمسمئة متر، حيث تفقدا كلّ المباني التي يمكن أن تكون نزلاً وفتشاها. ولكن بعكس التوقّعات لم يُعثر على أثرٍ للجريح المحتضر.

فما كان من غانيمار إلّا أن ازداد تصميماً وعناداً. وعاد إلى القصر لقضاء ليلة السبت فيه عازماً على القيام بتحرياته الخاصة يوم الأحد. وفي صباح الأحد أُبلغ أن دورية من رجال الشرطة شاهدت خلال الليل شخصاً يتسلل عبر الطريق المتعرّجة الى خارج الأسوار. فهل هو أحد الجناة عاد الى مسرح الجريمة لتقصي الأخبار؟ أم ينبغي الافتراض بأن رئيس العصابة لم يغادر خرائب الدير أو جوار هذه الخرائب؟

عند المساء أوعز غانيمار الى دورية الشرطة بالتوجه نحو المزرعة ومكث برفقة فولانفان خارج السور قرب الباب.

وقبل منتصف الليل بقليل خرج شخصٌ مسرعاً من الغابة وتسلّل من بينهما الى الحديقة بعد أن اجتاز عتبة الباب. ومكثا يراقبانه طوال ثلاث ساعات يتنقل بين الخرائب، ينحني تارةً ويتسلّق تارةً أخرى الأعمدة العتيقة أو يمكث لدقائق طويلة واقفاً بلا حراك. ثمّ عاد أدراجه الى الباب واجتازه مجدّداً الى الخارج بين المفتشين.

أمسكه غانيمار بياقته فيما سارع فولانفان الى تطويق جذعه بذراعيه. لم يبد أية مقاومة، بل انصاع لهما بهدوء فكبّلا يديه واقتاداه الى القصر. ولكن عندما أرادا استجوابه، أجابهما ببساطة أنّه ليس لديه ما يقوله لهما وأنه سينتظر مجيء قاضي التحقيق.

وعندئذٍ عمدا الى ربطه بقائمة السرير في إحدى الغرفتين المتجاورتين اللتين خصّصتا لهما.

عند التاسعة صباحاً من نهار الاثنين، أطلع غانيمار السيّد «فيّول» على ما جرى. واستدعي السجين وكان إيزيدور بوتروليه.

ـ «إنه السيّد إيزيدور بوتروليه! قال السيّد فيّول مبتهجاً وقد بسط ذراعيه ترحيباً بالوافد الجديد. يا لها من مفاجأة طيبة! لا أصدّق أن التحرّي الهاوي الممتاز موجود هنا! وبتصرّفنا!.. إنها لنعمة لا نستحقها فعلاً! يا سيّدي المفتش اسمح لي أن أقدّم لك السيّد بوتروليه، تلميذ علم البيان والبلاغة في ثانوية جانسون دو سايي».

بدا غانيمـار حائراً بعض الشيء. وبادره إيزيدور بتحيّة حارّة كأنها تحية موجهة لزميل في السلك له موقعه واحترامه، ثمّ التفت نحو السيّد «فيّول» وقال:

ـ «يبدو يا سيدي القاضي أنك تلقيت معلومات طيبة بشأني؟

ـ ممتـازة! علمت أوّلاً أنـك كنت بالفعل في «فول ليه روزه في الساعة التي ظنّت الآنسة دو سان فيران أنها شاهدتك فيها سائراً على الطريق المتعرّجة. وسنتوصل الى كشف هويّة شبيهك في أقرب وقت. كما ثَبُت لدينا أنك إيزيدور بوترولِيه بالفعل، تلميذ علم البيان والبلاغة، لا بل انك أيضاً تلميذ ممتاز ومجتهد ويتميّز بسلوك مثالي لا غبار عليه. وبما أن والدك يقطن الريف، يُسمح لك بالخروج من المدرسة مرّة واحدة كلّ شهر لزيارة وكيل ذويك، السيّد برنو الذي يثني عليك باستمرار.

ـ وهذا يعني...

ـ هذا يعني أنّك طليق.

ـ طليق تماماً؟

ـ تماماً. آه! إلّا أنني أضيف إلى ما سبق تحفظاً بسيطاً، وهو في الحقيقة تحفظ بسيط جداً. أنت تدرك جيداً أنه ليس بامكاني أن أطلق سراح سيّد يسقي الناطور مخدراً ويفرّ من النوافذ ثمّ يُلقى القبض عليه أثناء تجواله العابث داخل نطاق ممتلكات خاصّة، أو على الأقل ليس بامكاني أن أفعل ذلك دون مقابل.

ـ وما هو هذا المقابل.

ـ هو أن نتابع حديثنا الذي لم يتمّ، وستطلعني على كلّ ما تجمّع

لديك من تحرياتك الخاصة... فلا بدّ أنك بلغت مرحلةً متقدمة فيها خلال يومين من الحريّة المؤقتة».

وبما أن غانيمار كان يهمّ بالمغادرة مبدياً بعض الازدراء حيال هذا النوع من المناورات، صرخ قاضي التحقيق قائلاً:

- «لا أبداً يا حضرة المفتش، مكانك هنا... وأؤكّد لك أنّ لدى السيد إيزيدور بوتروليه ما يستحق الإصغاء اليه.. ذلك أن المعلومات التي توفّرت لدي تفيد بأنّ السيّد إيزيدور بوتروليه معروفٌ في أوساط ثانوية جانسون دو سايي بأنه مراقب محترف لا يغفل عن تفصيل ما يراه، ويعتبره زملاؤه، كما قيل لي، كمنافس لك، وكخصمٍ لـ«شرلوك هولمز».

- حقاً! قال غانيمار ساخراً.

- هذا ما يقولونه بالضبط. لقد كتب لي أحدهم قائلاً: «إذا كان بوتروليه يقول إنه يعرف فينبغي أن تصدّقه، ولا يساورك الشك لحظة واحدة أنّ ما يقوله هو التعبير الدقيق عن الحقيقة؛ والآن يا سيّد بوتروليه لقد آن الأوان لتبرهن على أنّك تستحق ثقة رفاقك بك. وأرجو منك أن تعبّر لنا بدقّة عن الحقيقة».

كان إيزيدور يُصغي مبتسماً وأجاب:

- «يا سيدي القاضي أعتقد أنّك لا تعوزك القوة. فأنت تسخر من تلاميذ الثانوية البائسين الذين يجدون السلوى في ما يستطيعونه. على أية حال أنت محقّ جداً، ولن أمدّك طوعاً بأسباب أخرى للتهكم علي.

- ذلك أنك لا تعرف شيئاً يا سيّد إيزيدور بوتروليه.

ـ أعترف بالفعل بأنني لا أعرف شيئاً. ذلك أنني لا أستطيع أن أسمّي «معرفة بالشيء» اكتشافي لتفصيلين أو ثلاثة على وجه أدقّ وأوضح وهي، بأية حال، التفاصيل التي ما كنت لتغفل عنها بلا ريب.

ـ على سبيل المثال؟

ـ مثلاً، موضوع السرقة.

ـ آه! بالطبع، وأنت تعتقد أنّك تعرف ما هو الشيء الذي تمّت سرقته؟

ـ كما تعرفه أنت أيضاً بلا ريب. وأعترف لك أنّها النقطة الأولى التي استرعت انتباهي وانكببت على تمحيصها لفرط ما بدت لي مسألة بسيطة.

ـ أهي بسيطة بالفعل؟

ـ أجل، بحقّ السماء. إذ لا تستدعي المسألة أكثر من مجرّد استدلال منطقي.

ـ ليس إلّا؟

ـ ليس إلّا.

وما هو هذا الاستدلال المنطقي؟

ـ إنه التالي وبصرف النظر عن أي تعليق. من جهة وقعت سرقة، ما دامت الآنستان قد اتفقتا على تأكيد رؤيتهما لرجلين يحملان أشياء أثناء فرارهما.

ـ إذاً وقعت سرقة.

ـ ومن جهة ثانية، لم يُفقد شيء، لأنّ السيد دو جيفر يؤكّد ذلك وهو الأدرى بهذا الشأن.

ـ لم يُفقد شيء.

ـ وانـطلاقـاً من هاتين البيِّنتين لا بدّ أن نحصل على النتيجة التـاليـة: فإذا كانت السرقة قد وقعت ولم يُفقد شيء فلأنّ الشيء المسروق قد استبدل بشيء مماثل له. وهنا أسارع الى القول إنّ هذا الاستدلال قد تؤكّده الوقائع. ولكني أزعم أنّه أوّل ما يتبادر إلى الذهن ولا يحق لنا أن نستبعد معطياته إلّا بعد فحص دقيق.

ـ بالفعل، بالفعل.. غمغم القاضي الذي بدا منصتاً باهتمام.

ـ ولكنْ، أردف إيـزيـدور قائـلاً، ما الذي استـرعى اهتمام اللصوص من بين موجودات هذه الصالة: شيئان. السجاد أولاً. ولا يمكن أن تكـون هي التي سرقت. ذلك أن السجـادات العتيقـة يستحيل تقليدها، ولكانت القطعة المزيّفة بدت للعين المجرّدة على الفور. يبقى إذاً لوحات «روبنز» الأربع.

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إن لوحات روبنز الأربع المعلّقة على هذا الحائط مزيّفة.

ـ مستحيل!

ـ إنّها مزيّفة، بالمعنى المنطقي، وبصورة حتمية لا ناقض لها.

ـ منذ سنتين تقريباً، يا سيدي المحقق، جاء شاب زعم أنه يُدعى شاربونيه الى قصر امبروميزي وطلب أن يُسمح له بنسخ لوحات روبنز. وقد سمح له السيّد دو جيفر بذلك. وكان يتردّد على القصر كل يوم، طوال خمسة أشهر، من الصباح حتى المساء ويعملُ في

هذه الصالة. والنسخ التي أنجزها، اللوحات والأطر معاً، هي التي استبدلت باللوحات الأصلية الأربع التي ورثها السيّد دو جيفر عن خاله الماركيز دو بوباديا.

- والإثبات؟

- ليس لدي أي إثبات. فاللوحة تكون مزيّفة لأنها مزيّفة وأحسبُ أنه ما من حاجة حتّى لتفحّص هذه اللوحات».

كان السيدان فيّول وغانيمار يتبادلان النظرات لا يخفيان ذهولهما. وما عاد المفتّش يسعى للمغادرة. وفي آخر الأمر غمغم القاضي قائلاً:

- «ينبغي أن نسمع رأي السيّد دو جيفر».

فوافق غانيمار:

- «ينبغي أن نسمع رأيه».

وأمرا بأن يطلب من الكونت الحضور الى الصالة.

وكان ذلك بمثابة انتصار حقيقي لعالم البلاغة الشاب، ففي إقناعه رجلين عريقين في مهنتهما بفرضياته الخاصة أكثر من مجرّد مديح لملكاته الذهنية، لا بل ما يدعو سواه للتفاخر والخيلاء. إلاّ أن بوتروليه كان يبدو مُنصرفاً عن هذه الترهات التي ترضي، ومكث ينتظر مبتسماً لا أثرَ لسخرية في ابتسامته. ثمّ أقبل السيّد دو جيفر.

- «سيدي الكونت، قال له قاضي التحقيق إن مجريات تحريّاتنا تضعنا أمام احتمال غير متوقع، نطلعك عليه مع كامل التحفظ: إذ

من الجـائز... وأقول: من الجائز.. أن يكون غرض اللصوص في تسللهم الى هذا المكان سرقة لوحات روبنز أو على الأقل، استبدالها بأربـع نسخ مزيّفة... وهي النسخ التي أنجزها منذ عام تقريباً، رسـام يدعى شاربونيه. هلّا تفحصت هذه اللوحات لتطلعنا على حقيقة أمرها، أهي مزيفة أم أصيلة؟».

بدا أن الكونت يكظم بادرة انزعاج، هذا ما لاحظه بوترولبه أولاً ثمّ السيّد فيّول وأجاب دون أن يتكبّد مشقة الإقتراب من اللوحات:

ـ «كنت آمـل يا سيـدي القـاضي أن تبقى هذه الحقيقة طيّ الكتمان. ولكن بما أن الأمور وصلت الى هذا الحد فلا بأس من الاعتراف بأنّ هذه اللوحات الأربع مزيّفة.

ـ كنت تعـلم إذاً؟

ـ منـذ البدايـة.

ـ ولماذا لم تطلعنا على حقيقة الأمر؟

ـ إن مالك التحفة لا يسارع أبداً إلى الاعتراف بأن هذه التحفة ليست... أو ما عادت أصيلة.

ـ ولكنّها الوسيلة الوحيدة لاسترجاعها.

ـ ثمة وسيلة أفضـل.

ـ ومـا هـي؟

ـ التكتم على الحقيقة لكي لا تربك اللصوص أو تخيفهم وبعد ذلك نعـرض عليهم شراء مسروقاتهم لأن احتفاظهم بها لا بدّ أن يكون مصدر ارباك.

ـ وكيف يمكن الاتصال بهم؟».

وإذ امتنع الكونت عن الاجابة، بادر إيزيدور الى الردّ قائلاً:

- «عبر إعلان صغير في الصحف». وقد صيغ هذا الاعلان الصغير الذي نشرته صحيفتا «لو جورنال» و«لو ماتان» على النحو التالي:

«انا على استعداد لشراء اللوحات مجدّداً».

فوافق الكونت بإشارة من رأسه.ومرّة أخرى يبرهن الشاب على تفوقه على الرجلين المحترفين.

إلا أن السيّد فيّول تلقّى الأمر بروح رياضية.

- «لا بدّ لي يا سيّدي العزيز أن أبدأ بالاقتناع بأن رفاقك ليسوا مخطئين بشأنك. اللعنة، أية عين هذه! أي حدس! إذا تابعت على هذا النحو فلن يكون لدينا، لا أنا ولا السيد غانيمار، ما نفعله هنا.

- أوه! لم تكن الأمور معقدةً على الاطلاق.

- أتقصد أن التالي أكثر تعقيداً؟ أنا أذكر فعلاً أنّك بدوت لي، خلال لقائنا الأوّل، على علم بأمور كثيرة أخرى. لنرَ قليلاً، وعلى ما أذكر لقد أكّدت لي أنك تعرف جيداً اسم القاتل.

- بالفعـل.

- إذاً من قتل جان دافال؟ الا يزال هذا الرجل حيّاً؟ وأين يختبىء؟

- سيدي القاضي، لا شك أن هناك سوء تفاهم بيننا، أو الأحرى سوء تفاهم بينك وبين حقيقة الوقائع، وسوء الفهم هذا يتواصل منذ البداية. فالقاتل والفارّ شخصان مختلفان.

- ماذا تقول؟ قال السيّد فيّول مذهولاً. تقول أن الرجل الذي

شاهده السيد دو جيفر في الصالون الصغير والذي تشاجر معه، وأن الرجل الذي شاهدته الآنستان في الصالة والذي أطلقت الآنسة دو سان فيران عليه النار، وأن الرجل الذي سقط أرضاً في الحديقة والذي نتحرّى عنه، إن هذا الرجل ليس قاتل جان دافال؟

ـ لا، ليس هو القاتل.

ـ هل عثرت على أثر لشريك ثالث توارى عن الأنظار قبل وصول هاتين الآنستين؟

ـ لا.

ـ إذاً بات الأمر يفوق قدرتي على الفهم... إذاً من هو قاتل جان دافال؟

ـ قاتل جان دافال هو...».

ثمّ سكت بوتروليه ومكث صافناً بعض الوقت وتابع:

ـ «ولكن قبل أن أكشف اسم القاتل ينبغي أن أطلعكم على المسار الذي قادني الى يقيني هذا والأسباب التي كانت هي الدافعة لارتكاب الجريمة... وإلاّ لبدا لكم اتهامي مُستهجناً كلّ الاستهجان... فهناك تفصيل قد أُغفل تماماً برغم أهميّته البالغة وهو أن جان دافال كان أثناء تلقيه الطعنة مرتدياً ثيابه بكاملها ومنتعلاً جزمته، اي باختصار، كان يرتدي الملابس التي يرتديها عادةً أثناء النهار. والحالُ أنّ الجريمة وقعت عند الرابعة فجراً.

ـ لقد لفتني مثل هذا الموقف الغريب، قال القاضي، وأجابني السيّد دو جيفر أن دافال يقضي في العادةِ قسماً من لياليه منكباً على عمله.

ـ لكن الخدم يؤكدون، على العكس من ذلك، أنه اعتاد أن ينام باكراً، ولكن لنسلّم جدلاً بأنّه كان مُستيقظاً: فلماذا إذاً رفعت الأغطية عن سريره فيحسب من يراه أنّه كان نائماً؟ ولو كان نائماً بالفعل لماذا تجشّم عناء ارتداء ملابسه كاملةً من رأسه حتّى قدميه عندما أيقظته الجلبة ولم يكتف بارتداءِ ما يقع تحت يديه في غمرة استعجاله؟ لقد تفقدت غرفته أوّل أيام التحقيق أثناء انصرافكم الى تناول طعام الغداء: لقد كان خفّاه بجانب سريره، فلماذا لم ينتعل الخفين بدل أن ينتعل جزمته الضخمة ذات المسامير؟

ـ إلى هذا الحدّ، لا أرى...

ـ إلى هذا الحدّ، ليس بامكانكم بالفعل إلّا بعض التفاصيل الغريبة التي قد لا تكون ذات شأن. إلّا أنها بدت لي مريبة جداً عندما علمت أن الرسام شاربونيه ـ ناسخ لوحات روبنز ـ قد تعرّف الى الكونت بواسطة جان دافال نفسه.

ـ وهذا يعني؟

ـ وهذا يعني أن جان دافال وشاربونيه كانا شريكين، ولم يبق سوى نقلة واحدة. وهذه النقلة اهتديتُ إليها خلال حديثنا معاً.

ـ اهتديت بسرعة، على ما يبدو لي.

ـ بالفعل، كنت أحتاج الى دليل مادي. والحال أني وجدت في غرفة دافال على إحدى الأوارق التي يستخدمها لكتابة ملاحظاته، هذا العنوان الذي لا تزال كلماته مطبوعةً، بأية حال، وإن مقلوبة على الورق النشّاف:

السيّد أ. ل. ن، المكتب رقم ٤٥، باريس.

وفي اليوم التالي تبيّن أن البرقية التي أرسلها السائق المزعوم من

سان نيكولا تحمل العنوان نفسه: أ. ل. ن. المكتب رقم ٤٥. وهكذا حصلت على الدليل المادي، فقد كان جان دافال على اتصال بالعصابة التي نظمت عملية استبدال اللوحات».

لم تصدر عن السيّد فيّول اية بادرة اعتراض.

ـ «ليكن. لقد برهنت على تواطؤ دافال. فما هو استنتاجك؟

ـ اوّلاً أنّ الفارّ ليس قاتل جان دافال، لأنّ جان دافال شريكه.

ـ إذاً؟

ـ يا سيدي القاضي، هل تذكر أوّل عبارة قالها السيّد دو جيفر عندما استعاد وعيه، لقد دوّنت العبارة التي وردت في إفادة الآنسة دو جيفر في محضر التحقيق: «لم أصب بأذى. ودافال؟... ألا يزال على قيد الحياة؟.. السكين؟...» وأرجو منك أن تقابلها بذلك الجزء من سرد وقائع الحادثة، والمدوّن هو ايضاً في المحضر، حيث يروي السيّد دو جيفر الوقائع على النحو التالي: «اندفع الرجل نحوي وعاجلني بضربة على الصدغ افقدتني الوعي». فكيف للسيّد دو جيفر الذي كان فاقداً وعيه أن يعرف فور استيقاظه أن دافال قد طعن بسكين؟».

ولم ينتظر بوتروليه ردّاً على سؤاله. كأنّه يستعجل الاجابة التي سيدلي بها هو حائلاً بذلك دون اللجوء الى اي تعليق آخر. ثمّ لم يلبث أن أردف قائلاً:

ـ «إذاً، جان دافال هو الذي أدخل اللصوص الثلاثة الى هذه الصالة وبينما كان يقف في الصالة نفسها برفقة من يسمّونه الرئيس سمعت جلبة في الصالون الصغير. عندئذٍ يفتح دافال الباب

ومـا أن يرى السيّد دو جيفر حتّى يندفع نحوه شاهراً السكين. ولكن السيد دو جيفر يُفلح في انتزاع السكين من يده ويطعنه ثمّ يقع بدوره أرضاً بعد تلقيه ضربة ذلك الرجل الذي شاهدته الفتاتان بعد دقائق معدودة».

مرّة أخـرى تبـادل السيّد فيّول والمفتش بعض النظرات وهزّ غانيمار برأسه كمن أُسقط في يده.

فسـأل القـاضي:

- «يا سيّدي الكونت أينبغي أن أصدّق أن هذه الرواية للوقائع هي الرواية الصحيحة؟..».

لزم السيّد دو جيفر صمته.

- «هيّا يا سيدي الكونت إن صمتك هذا قد يدفعنا إلى الإفتراض...».

عندئذٍ قال السيّد دو جيفر بكلام واضح:

- «إنّ هذه الرواية، وفي كلّ ما ورد فيها، صحيحة».

فانتفض القاضي لشدّة ذهوله.

- «ما زلت لا أفهم لماذا تعمّدت تضليل العدالة. ولماذا تكتمت على فعلة لك كلّ الحقّ في ارتكابها لأنّها دفاع مشروع عن النفس؟

- لقد عمل دافال الى جانبي طوال عشرين عاماً. وكنت أوليه كلّ ثقتي وأدّى لي خدماتٍ لا تقدّر بثمن. فإذا اختار أن يخون في آخر الأمر طمعاً بمغرياتٍ أجهلُها، فأنا على الأقل لا اريد، وتشبّثاً مني بذكرى الماضي، أن يُفضح أمر خيانته.

ـ انت لا تريد، فليكن، ولكن واجبك كان يحتم عليك...

ـ لا اشاطرك الراي يا سيّدي المحقّق. فعندما وجدت أن الجريمة لم يتهم بارتكابها بريء، شعرتُ بأن حقي المطلق هو أن لا اتهم الرجل الذي كان في وقتٍ الجاني والضحية معاً. لقد مات. واحسب أن الموت هو القصاص العادل.

ـ ولكن يا سيّدي الكونت الآن وقد عُرفت الحقيقة، أصبح بامكانك أن تتكلم.

ـ اجل. هاك هاتين المسودّتين لرسالتين كتبهما لشركائه. لقد اخذتهما من حافظة نقوده بعد وفاته بدقائق.

ـ وما دافع السرقة؟

ـ إذهبوا إلى «دييب»، إلى الرقم ١٨ من شارع دولابار. هناك تقطن امرأة ما تُدعى السيّدة فردييه. ولقد لجأ دافال الى السرقة لتلبية الاحتياجات الماليّة لهذه الامرأة التي تعرّف اليها منذ سنتين».

هكذا اتضح كلّ شيء. وبدات تتكشّف ملابسات الحادث وتترابط شيئاً فشيئاً».

ـ «لنتابع، قال السيّد فيّول بعد أن غادر الكونت الصالة.

ـ اعتقد، قال بوترولیه مُبتهجاً، انني اوشكتُ على ختام استنتاجاتي.

ـ ولكن ماذا عن الفارّ الجريح؟

ـ حول هذا الموضوع يا سيّدي القاضي احسبُ أنّك تعرف

بمقدار ما أعرف... فقد تتبعت أثر تسلّله بين أعشاب باحة الدير... وتعلم...

- بلى، أعلم... ولكنّهم أفلحوا في إجلائه عن الم ، وما أودّ أن أعرفه هو بعض المعلومات حول المنزل...».

انفجر بوترولیه ضاحكاً.

- «المنـزل! المنـزل غير موجـود! إنها خدعة لتضليل العدالة، والواضح أنها خدعة رائعة لأنها انطلت عليكم.

- غير أن الدكتور دو لاتر يؤكّد...

- آه بلى! ولهذا السبب بالذات قال بوترولیه بلهجةٍ واثقة. لأن الدكتـور دو لاتـر يؤكـد ذلك ينبغي ألّا نصـدقه. كيف! لم يدلِ الدكتور دو لاتر حول مغامرته إلّا بمعلومات غامضة! ولم يُرد أن يدلي بأيّة معلومة من شأنها أن تعرّض أمن زبونه للخطر... وها هو فجأة يلفت الأنظار الى منزل مزعوم! ولكن كُن على ثقة أنّه إذا تلفظ بكلمة منزل فلأنّهم أشاروا عليه أن يذكر شيئاً عن منزلٍ ما. وكن على ثقة أن كل الرواية التي أدلى بها على مسامعنا قد فُرضت عليه بالحرف وردّدها خوفاً من تعرّضه لعملية انتقام رهيبة. فالدكتور لديـه زوجة وابنة. وأحسب أنه يحبّهما بالمقدار الذي يرغمه على الرضـوخ لتهـديـدات أناس اختبر قوّتهم ونفوذهم. ولذلك أدلى أمامكم بأكثر المعلومات دقّة.

- وهي من الدقّة بحيث أنها تحول دون عثورنا على المنزل.

- لا بل هي من الدقّة بحيث تجعلكم مثابرين على البحث عنه برغم كلّ الدلائل التي تشير الى أنها كاذبة ولكي تُستدرج جهودكم

ومساعيكم الى مكان آخر غير المكان الوحيد الذي يمكن أن يختبىء فيه الرجل، هذا المكان الغامض الذي لم يغادره، الذي لم يستطع أن يغادره منذ أن وصل اليه زحفاً على أثر الإصابة التي نالها من بندقية الآنسة دو سان فيران، ولاذ به كما يلوذ حيوان بجحره.

ـ ولكن اين بحق السماء؟

ـ بين خرائب الدير القديم.

ـ ولكن لا وجود لهذه الخرائب! إنها مجرد حيطان متداعية وبعض الأعمدة!

ـ ومع ذلك يا سيدي القاضي، أجاب بوتروليه بلهجة حانقة، عليكم أن تبحثوا في هذا المكان وهذا المكان فقط! وفيه ستعثرون على أرسين لوبين.

ـ ارسين لوبين!» قال فيّول وقد أذهلته المفاجأة.

خيّم صمت تشوبه بعض الرهبة. إذ تردّدت ملافظ الاسم الشهير، أرسين لوبين، المغامر الكبير وأمير اللصوص، أيُعقل أن يكون هو الخصم المهزوم والذي لا يزال، برغم هزيمته، متوارياً، أيُعقل أن يكون هو مَن تواصل البحث عنه عبثاً طوال أيام عديدة؟ ولكن الإيقاع بأرسين لوبين، والقبض عليه يعنيان في نظر قاضي التحقيق الترقية الفورية والثروة والمجد!

لم ينبس غانيمار بكلمة واحدة. فقال له إيزيدور:

ـ «ألا توافقني الرأي يا سيدي المفتش؟

ـ بحق السماء!

ـ وأنت أيضاً لم يساورك الشك لحظة واحدة أنّه قد يكون مُدبّر هذه العملية؟

ـ على الاطلاق! مع أنّ لمسته ماثلة في كل شيء. فالعملية التي يدبّرها لوبين لا تشبه أية عملية أخرى تماماً كما يختلف وجه عن وجهٍ آخر. ولكي نعرف هذه اللمسة يكفي أن نفتح أعيننا.

ـ وهل تعتقد فعلاً.. هل تعتقد...، كان السيّد فيّول يردّد بذهول.

ـ بلى أعتقد! قال الشاب. لنمعن النظر على سبيل المثال في هذا التفصيل البسيط: ما هي الأحرف الأولى التي يستخدمها الجناة في مراسلاتهم؟ أ. ل. ن، أي الحرف الأوّل من اسم أرسين ثمّ الأوّل والأخير من لوبين.

ـ آه! قال غانيمار أنت لا تَغفل عن أدقّ تفصيل؛ إنّك خصم عنيد لذلك فإنّ غانيمار العجوز يُلقي سلاحه».

تورّد وجه بوتروليه لسماعه هذا الاطراء وصافح اليد التي مدّها المفتّش لمصافحته. اقترب الرجال الثلاثة من الشرفة؛ وجالوا بأنظارهم على نطاق الخرائب. وهمس السيّد فيّول قائلاً:

«إذاً، لا يزال هنا.

ـ إنه هنا، قال بوترولیه بصوت خفيض. إنه هنا لم يُغادر مكانه منذ أن أصابته الطلقة. فالمنطق والواقع يؤكدان أنّه كان من المستحيل أن يتمكن من الإفلات دون أن تراه الآنسة دو سان فيران أو أحد الخادمين.

ـ وما برهانك على ذلك؟

ـ شركاء الجريح هم الذين وفّروا لنا البرهان. ففي صباح اليوم

نفسه انتحل أحدهم شخصيّة سائق وأقلكما إلى هنا...

ـ لاستعادة القبعة، قرينة الإثبات.

ـ بالضبط ولكن أيضاً، لا بل خصوصاً، لتفقد المكان عن كثب لكي يرى بأمّ عينيه ماذا حلّ برئيس العصابة.

ـ وهل نجح في مسعاه؟

ـ أحسبُ أنه نجح في ذلك لأنّه كان يعرف مكان المخبأ. وأحسب أنّه تثبّت من حالة الرئيس المترديّة، الأمر الذي دفعه، في غمرة قلقه عليه، إلى ارتكاب هفوة رسالة التهديد:

«الويل للآنسة إذا كانت قد قتلت الرئيس فعلاً».

ـ إلّا أن رجاله تمكّنوا من إجلائه عن المكان فيما بعد، أليس كذلك؟

ـ متى؟ رجالك لم يغادروا الخرائب لحظة واحدة. ثمّ إذا تمكنوا من نقله فإلى أين؟ ففي مثل هذه الحال لا يمكنهم الابتعاد به أكثر من بضع مئات من الأمتار إذ يستحيل نقل رجل محتضر في رحلة طويلة... وفي هذه الحال أيضاً لاستطاع رجالك أن يعثروا عليه. لا، لا، أؤكّد لك أنه هنا. إذ يستحيل أن تراود رجاله فكرة نقله من أكثر المخابىء أمناً وضمانة. ثمّ اقتادوا الطبيب الى هنا أثناء انهماك رجال الشرطة باخماد الحريق كأنهم صبيّة.

ـ ولكن كيف لا يزال على قيد الحياة؟ فلكي يصمد في وكره يحتاج الى الطعام والماء!

ـ ليس لدي ما أقوله بهذا الشأن... لست أدري... لكنّه هنا، أقسم لك. إنه هنا لأن ليس بالامكان أن لا يكون هنا. أنا واثق من ذلك كما لو أنني أراه كما لو أنني ألمسه. إنه هنا».

كانت إصبعه الممدودة في اتجاه الخرائب ترسمُ في الهواء دوائر صغيرة تضيق ثم تضيق حتّى أصبحت نقطة. وكان رفيقا بوترولیه يبحثـان عن هذه النقطة بشغف، وقد أطلاّ من حافة الشرفة على نطاق الخـرائب تتملكهمـا رعشــة القناعة التي فرضها بوترولیه عليهما. بلى، أرسين لوبين كان هناك. النظرية تؤكّد أنّه هناك وكذلك الوقائع، كان هناك، وما عاد باستطاعة أي منهما أن يدحض هذه القناعة.

وكان في تلك الحقيقة ما يُشيع مناخاً مؤثراً ومأساوياً لمجرّد أن يتـراءى لأحـدهم أنّ المغامر الذي ذاع صيته موجود هناك يلوذ بمخبأه المُعتم، طريح التراب لا حولَ له محموماً ومنهوكاً.

- «وماذا لو فارق الحياة؟ قال السيّد فيّول بصوتٍ خفيض.

- إذا فارق الحياة، قال بوترولیه، وتثبّت رجاله من موته، فعليك أن تسهر على سلامة الآنسة دو سان فيران، يا سيدي المحقق، لأنّ الانتقام سيكون رهيباً».

بعـد ذلك بدقائق وبرغم إلحاح السيّد فيّول الذي كان يودّ لو يكـون له مساعد بمثل هذه البراعة، غادر بوترولیه الذي تنتهي عطلته المدرسية في ذلك اليوم نفسه عن طريق «دييب». فوصل إلى باريس نحو الساعة الخامسة وعند الثامنة كان يجتاز الى جانب رفاقه التلاميذ بوّابة ثانوية جانسون.

أمـا غانيمار فقد عاد إلى باريس مُستقلاًّ القطار السريع عند المســاء بعـد أن قام بحملة تفتيش دقيقة ومتأنية ولا طائل فيها لخرائب أمبروميزي. وفور وصوله إلى منزله وجد هذه الرسالة المستعجلة:

حضرة المفتش الممتاز،

لقـد انتهـزتُ بعض أوقات الفراغ التي تسنّت لي هذا المساء لجمع بعض المعلومات الإضافية والتي لا بد أن تسترعي اهتمامك.

إنّ آرسين لوبين يحيا منذ عام تقريباً في باريس منتحلاً اسم اتيان دو فودرايكس. ولا بدّ أنّك غالباً ما كنت تصادف ذكر هذا الاسم في زوايا أخبار المجتمع أو أصداء أخبار الرياضة في المجلّات والصحف. إنّه رحّالة محترف. يتوارى عن الأنظار لفترات طويلة يقول إنه يقضيها في ممارسة الصيد، صيد النمور في البنغال أو صيد الثعلب الأزرق في سيبيريا. ويزعمُ أنه رجل أعمال دون أن يُعرف بالضبط أي نوعٍ من الاعمال تلك التي يتولّى إدارتها.

عنـوانـه الحالي: ٣٦، شارع ماربوف. (وأرجو أن تلاحظ أن شارع ماربوف ملاصق لمركز البريد رقم ٤٥)؛ ومنذ يوم الخميس ٢٣ نيسـان/أبـريـل، أي عشيّـةَ الاعتداء الذي تعرّض له دير أمبروميزي، انقطعت أخبار اتيان دو فودرايكس.

وتفضلوا، يا حضرة المفتش الممتـاز، بقبـول أصـدق المشاعر مقرونةً بالامتنان العميق للمودّة الكبيرة التي أبديتموها نحوي..

إيزيدور بوترولبه

ملاحـظة: ولا تحسبوا خصوصاً أنني تكبّدت مشقة كبيرة في الحصولِ على هذه المعلومات. ففي صباح اليوم الذي وقعت فيه الجريمة وبينما كان السيّد فيّول يتابع تحريّاته مع بعض المعنيين، دفعني إلهامٌ سعيد الطالع إلى تفحّص قبعة الفارّ قبل أن يتسنّى للسائق المزعوم استبدالها. وكما تعلمون كان اسم صاحب متجر القبعـات كافياً لالتقاط أول خيوط السلسلة التي أفضت بي الى معرفة اسم الرجل الذي ابتاعها وعنوانه».

في صباح اليوم التالي كان غانيمار عند باب الرقم ٣٦، شارع

ماربوف. وبعد أن استجوب حارسة المبنى فتحت له باب الشقّة اليُمنى من الطبقة الأرضية حيث لم يجد شيئاً سوى بعض الرماد في مدفأة الحائط. فقد جاء اثنان من أصدقاء صاحب الشقّة منذ أربعة أيام وأحرقا كلّ المستندات المشبوهة. ولكن بينما كان السيد غانيمـار يهمّ بالمغـادرة التقى ساعي البريد حاملاً رسالة للسيّد دو فودرايكس. ولم يحِن ظهرُ اليوم نفسه حتّى رُفعت القضيّة الى النيابة العامة التي طلبت تسليمها الرسالة. كانت مُرسلةً من أميركا وتحتوي على هذه السطور باللغة الانكليزية:

حضرة السيّد،

أعـاود تأكيد الجواب الذي تلقّاه وكيل أعمالك. ما أن تصبح لوحات السيّد دو جيفر الأربع في حوزتك أرسلها بالطريقة الملائمة. وأرفقها بالبقية إذا استطعت الحصول عليها وهذا أمر أخشى أن يكون مستحيلاً».

مضـطر للمغـادرة الآن بسبب عمل طارىء، لذلك سأصل في الوقت الذي تستلم فيه هذه الرسالة. سأكون في «الغران أوتيل».

هارلنغتون

وفي اليوم نفسه، كان غانيمار مزوّداً بمذكرة توقيف، يودع السيّد هارلنغتـون، وهـو مواطن أميركي، في سجن مركز الشرطة بتهمة اقتناء مسروقات والتواطؤ في عملية سرقة.

وهكذا إذاً لم تمض أربع وعشرون ساعة إلّا وقد حُلّت ملابسات القضيّة بفضل تعليمات غير متوقعة على الإطلاق وفّرها لهم فتى في السابعة عشرة من عمره. في غضون أربع وعشرين ساعة أصبح كلّ الغموض بسيطاً وواضحاً، في غضون أربع وعشرين ساعة أحبطت هذه المعلومات خطة العصابة لإنقاذ رئيسها، وأصبح القبض على

أرسين لوبين الجريح المحتضر أمراً وشيكاً، وبالاضافة الى ارتباك رجاله وفقدانهم التنظيم المتماسك فقد كُشف النقاب عن إقامته في باريس وعن الشخصية التي ينتحلها، وبذلك تمّ اكتشاف خطة له، ولأوّل مرة، قبل أن يتسنى له تنفيذها كاملةً وهي بلا ريب إحدى أكبر عمليّاته وأكثرها براعةً وتصميماً ودرساً.

كان وقـعُ هذه الأحـداث المتـلاحقة شديداً في أوساط الناس وأحـدث ضجـة أشبـه بمـوجـة ذهـول وإعجاب وفضول. وكان الصحفي من منطقة الرون قد روى في مقالةٍ ناجحة جداً تفاصيل أوّل استجواب لتلميذ علم البيان، واصفاً تعاونه وسحره الطفولي ومـا بدا عليـه من الثقـة بالنفس والهـدوء. وقـد ساهمت بعض التصريحـات التي أدلى بها غانيمار والسيّد فيّول والتي اتسمت أحياناً بحماسةٍ تفوق حسّ الكبرياء المهنيّ، في اطلاع الجمهور على الدور الذي لعبه بوترولیه خلال الأحداث الأخيرة. فهو قد أنجز المهمة كاملةً. وهو وحده يستحق ثناء النصر.

وازداد الحمـاس. وأصبـح إيـزيـدور بوترولیه بطلاً بين ليلةٍ وضحـاهـا، وطالب الجمهـور الذي شُغف بالموضوع بالمزيد من التفـاصيـل المـوسّعة حول الفتى الموهوب. ولم يلبث أن تجمهر مراسلو الصحف أمام باب ثانوية جانسون ـ دو ـ سايي، يترقبون مرور التـلاميـذ الخـارجـين بعد انتهاء صفوفهم للحصول على معلومـات حول كلّ ما يتعلق، من قريب أو من بعيـد، بالمـدعـو بوترولیه. وهكذا ذاعت شهرة التلميذ الذي كان رفاقه يطلقون عليه لقب منـافس شرلوك هولمز. فقد كان يستخدم أصول الاستدلال والمنـطق ويكتفي بقراءة المعلومات التي تنشرها الصحف، وأفلح

مراراً في إيجـاد حلول لقضايا معقدة لا تهتدي إليها العدالة إلاّ متأخّرة. وكانت التسلية السائدة بين تلاميذ ثانوية جانسون أن تُطرح على بوترولية مسائل عويصة وقضايا ملغزة، وكانت الدهشة تخيم على الجميع حين يرى السائلُ كيف يهتدي بوترولية الى نهج استدلال عبر التحليل الواثق وعبر الاستنتاجات المنطقية البارعة. فقبـل عشرة أيام من اعتقال صاحب دكان البقالة جوريس، كان إيزيدور قد أشار الى القسمِ المتحرّك من المظلّة المشهورة. وكذلك الأمر، كان قد أكّد منذ البداية بشأن جريمة سان ـ كلو، أن حارس المبنى هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون القاتل.

إلاّ أنَّ الأطرف في كلّ ذلك كان الكتيّب الذي وجد قيد التداول بين تلاميـذ الثـانوية وهو كتيّب يحمل توقيعه وقد طُبع على الآلة الكاتبة في عشر نسخ ويحمل العنوان التالي: «أرسين لوبين، طريقة عمله، الجانب التقليدي منه والجانب المتميّز» ويتبع هذا النصّ مقارنة بين الفكاهة الانكليزية والسخرية الفرنسيّة.

كان الكتيّب يشتمل على دراسة معمّقة لكلّ مغامرة من مغامرات أرسين لوبين، حيث تبدو وسائل اللصّ الشهير بوضوح مدهش، وحيث تبرز آلية سلوكه والتكتيك الخاص الذي يستخدمه، وكذلك رسـائله الى الصحف، وتهديداته، والإعلان المسبق عن السرقات التي سيرتكبهـا، أي باختصـار، كلّ الحيَل التي كان يستخدمها «لطبخ» الضحيّة المختارة ووضعها في حالة ذهنية ونفسية تجعلها منقادة للعملية المدبّرة باتقان بحيث يتمّ كلّ شيء برضى الضحية نفسها.

وكـان نقـد بوترولية صائباً وثاقباً وحيّاً تشوبه سخرية بارعة

وشديدة القسوة، فما لبث الساخرون منه في البداية أن انحازوا الى صفّه، وانتقل تعاطف الجمهور مباشرة من صفّ لوبين الى صف إيزيدور، وبات الرأي السائد أن الصراع بين الخصمين محسوم سلفاً لصالح عالم البلاغة الشاب.

وبأية حال فإن السيِّد فيّول ومعه النيابة العامة في باريس كانا حريصـين على إبداء تمنيّاتهما بفوز نصير العدالة. والحقيقة أنّ التحريّات لم تؤل من جهة، إلى تحديد هوية السيّد هارلنغتون لأنه تعذّر عليهم الحصول على دليلٍ حاسم يؤكّد صلته بعصابة لوبين. فقد كان يلزم صمتـاً مُطبقاً حيال السؤال عن شراكته في عملية السرقة. لا بل أكثر من ذلك، فبعد التدقيق في خطّه أصبح من غير الممكن التأكيد بشكل حاسم أنّه هو كاتب الرسالة المصادرة، فكلّ ما يمكن تأكيده حسب الوقائع أن شخصاً يُدعى السيّد هارلنغتون ويحمل حقيبة سفر ومحفظة مليئة بعددٍ كبير من الأوراق النقديّة قد نزل في «الغران أوتيل».

أمّا من جهة أخرى فقد كان السيّد فيّول في «دييب» يراوح في المواقع التي أحرزها له بوترولِيه. ولم يتقدم خطوة واحدة. فما زال الغمـوض يخيم على هويّـة الشخص الذي ظنّت الآنسة دو سان فيران عشيّة الجريمة أنه بوترولِيه. كما أن غموضاً مماثلاً يلابس كلّ ما يتعلق بسرقـة لوحـات روبنـز الأربـع. ما الذي حلّ بهذه اللوحات؟ وما هي الطريق التي سلكتها السيارة التي نقلتها أثناء الليل؟

فقد تمّ التثبت من عبورها لو فيراي ويرفيل وإيفتو، وكذلك الأمر في كودوبـك أونكو حيث اجتازت نهر السين عند الفجر على متن

عبّارة بخارية. ولكن التحريّات المتقدّمة أثبتت أنّه بعد العثور على السيارة المذكورة تبيّن أنه من المستحيل أن توضع فيها أربع لوحات كبيرة الحجم دون أن يلحظ عمّال العبّارة وجودها. والمرجّح أنها السيّارة إيّاها، فيصبح السؤال إذاً: ماذا حلّ بلوحات روبنز الأربع؟

عدد من الأسئلة لم يجد السيّد فيّول أجوبةً لها. كان رجاله يعاودون البحث كلّ يوم في النطاق المربّع للخرائب. وكان يشرف كلّ يوم تقريباً على أعمال البحث والتحرّي. ولكنّه لم يقترب قيد شعرة من احتمال العثور على مخبأ لوبين المحتضر - هذا إذا كان افتراض بوترولِيه صحيحاً - إذ يرى المحقق القضائي أنّ هوّة سحيقة تحول دون العثور عليه ولا قدرة له بعدُ على اجتيازها.

لذلك كان من البديهي أن تصوّب الأنظار نحو إيزيدور بوترولِيه، لأنه الوحيد الذي لولا تدخله كان الغموض سيخيم مجدّداً على القضية ليزيدها تعقيداً ولبساً. فلماذا لا يتابع هذه القضية بحماسته المعهودة؟ فما توصل اليه لا ينقصه إلا القليل من الجهد للإفضاء الى الحلّ النهائي.

لقد طُرح عليه السؤال من قبل أحد محرّري «الغران جورنال»، الذي استطاع أن يتسلّل إلى داخل ثانوية جانسون منتحلاً اسم برنو، وكيل ذوي بوترولِيه. وقد أجاب إيزيدور بلهجة حكيمة:

- «يا سيدي العزيز، أتحسب أنّه ليس في العالم سوى لوبين وقصص السرقات والتحريّات؟ تذكّر أيضاً أن هناك حقيقة أخرى اسمها البكالوريا. فالامتحانات النهائية في تموز/يوليو ونحن اليوم

في أيار/مايو. وليس في نيّتي أن أرسب. فلو رسبت ماذا يقول عني والدي الطيب؟

ـ ولكن ماذا تراه يقول لو أنّك أفلحت في تسليم أرسين لوبين لقبضة العدالة؟

ـ أوه! لكل أمر وقته. ربّما في العطلة القادمة...

ـ عطلة عيد العنصرة؟

ـ أجل. سأغادر على متن أول قطار يوم السبت في ٦ حزيران/يونيو.

ـ ويوم السبت مساءً يصبح أرسين لوبين في قبضة العدالة.

ـ ألا تمدّد لي المهلة حتّى يوم الأحد؟ سأله بوترولية ضاحكاً.

ـ وما الداعي لهذا التأخير؟» أجابه الصحافي بنبرة جادة.

لقد كانت تلك الثقة غير المفسّرة، وليدة البارحة والمتينة برغم ذلك، تخالط نظرة الجميع الى التلميذ الشاب وإن كانت الوقائع لا تبرّرها إلّا في حدود معينة. ولكن مهما كان من أمر الوقائع! كان الجميع يؤمن بقدراته. فهو الذي لا يصعبُ عليه شيء. والمؤمل منه ما يؤمل عادةً من قدرات من نفاذ البصيرة والحدس، ومن التجربة الطويلة وحسن الدراية.

في ٦ حزيران/يونيو! تصدّر هذا التاريخ صفحات كلّ الجرائد. ففي ٦ حزيران/يونيو سيستقل إيزيدور بوترولية القطار السريع إلى «دييب» وفي مساء اليوم نفسه سيُلقي القبض على أرسين لوبين.

ـ «إلّا إذا استطاع الفرار في الأثناء... قد يقول بعض من تبقّى من المعجبين بالمغامر الشهير.

ـ مُستحيل! فكلّ المنافذ مراقبة.

ـ إلّا إذا قضي متـأثـراً بجراحه» يجيب أنصار المغامر الذين يفضلون أن يموت بطلهم على أن يقع في الأسر.

أما الجواب على الجواب فكان على النحو التالي:

«مـا هذا الهـراء، لو أن لوبين قد مات فعلاً لبلغ الأمر رجاله ولسارعوا الى الانتقام، كما قال بوتروليه».

وحـلّ يوم ٦ حزيـران/يـونيـو. وتجمهـر نصف دزينـة من الصحافيين في محطة سان لازار في انتظار وصول إيزيدور. وأصرّ اثنان منهم على مرافقته في رحلته هذه. فرجاهما أن لا يفعلا.

سافـر إذاً بمفـرده. وكانت المقطورة التي استقلها خالية من المسافرين، فلم يلبث أن استغرق في سباتٍ عميق لفرط ما أرهقته الليـالي السـابقة التي كرّسها للدراسة. وفي أحلامه رأى القطار يتوقف في عدد من المحطّات وأناساً ينزلون منه وآخرين يستقلونه. وعندما استيقظ، على مشارف روون، كانت المقطورة لا تزال خالية. ولكنّه لمح على المقعد المقابل ورقة كبيرة ثبّتت الى القماش الرمادي بدبّوس. وقد دوّن عليها ما يلي:

«لكل امرىء أن يُعنى بما يعنيه. حاول أن تهتمّ بما يعنيك وإلّا فانت الخاسر الوحيد».

ـ «يـا للروعـة! قال مبتهجـاً. الأمور تزداد سوءاً في صفوف الخصوم. فهذا التهديد ليس أقلّ غباءً من تهديد السائق المزعوم. يا له من أسلوب! من الواضح أنّ كاتب هذه العبارة ليس لوبين».

كان القطار قد توغّل داخل النفق الذي يفضي الى مشارف المدينة النورماندية القديمة. وعندما وصل الى المحطة راح إيزيدور يتمشى على الرصيف لترويض ساقيه. ثمّ ما أن همّ بالصعود مجدّداً الى المقطورة حتّى انطلقت منه صرخة مباغتة. فأثناء مروره من أمام المكتبة قرأ سهواً على الصفحة الأولى من طبعة «جورنال دو روون» الخاصة هذه السطور التي تنبّه فجأةً الى دلالتها المرعبة:

آخر ساعة ـ لقد تلقينا هذا المساء اتصالاً هاتفياً من «دييب» يفيدنا بأنّ عدداً من الجناة قد تسللوا إلى قصر أمبروميزي واختطفوا الآنسة دو سان فيران بعد أن كبّلوا الآنسة دو جيفر. وقد عثر على آثار دماء على بعد خمسمئة متر من القصر وعلى بعد خطوات من الموضع نفسه عثر على وشاح ملطّخ بالدماء أيضاً. ويُخشى أن تكون الفتاة البائسة قد قتلت فعلاً.

مكث إيزيدور بوترولِيه لا يحرّك ساكناً حتى وصوله الى «دييب». كان مستغرقاً في أفكاره وقد أحنى جذعه مسنداً مرفقيه الى ركبتيه فيما يداه تغطيان وجهه. ومن «دييب» استأجر سيارة. وعندما وصل إلى مدخل أمبروميزي التقى قاضي التحقيق الذي أكّد له الخبر المروع.

ـ «أليس لديك معلومات أخرى حول الاعتداء؟ سأله بوترولِيه.

ـ لا، لا شيء، لقد وصلت لتوّي».

وفي هذه الأثناء كان مفوض الشرطة يقترب من السيّد فيّول ويسلمه قصاصة من الورق مجعوكة وممزّقة وصفراء كان قد عثر عليها على مقربة من المكان الذي وجد فيه الوشاح. تفحصها السيّد

فيّول ثم أعطاها لإيزيدور بوترولية قائلاً:

ـ «هذا ما لن يساعدنا كثيراً في تحرّياتنا».

قلّب إيـزيدور قصاصة الورق بين يديه. كانت مليئة بالأرقام والنقاط والعلامات وتمثل هذه كلها الرسم الذي نثبته في ما يلي:

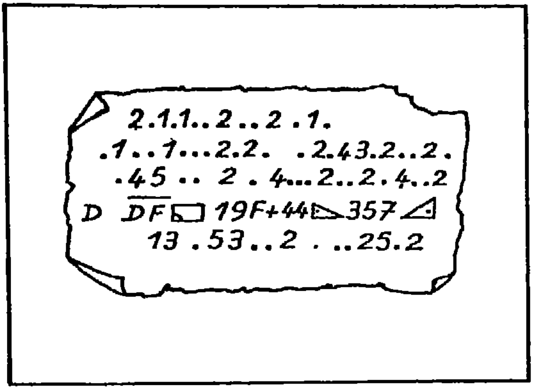

الفصل الثالث

الجثة

نحو السادسة مساءً وبعد أن أنهى كلّ الاجراءات والتحريّات اللازمة، كان السيّد فيّول ينتظر برفقة كاتبه السيّد بريدو، السيّارة التي ستقلّهما إلى «دبيب». وكان السيّد فيّول عصبي المزاج مضطرباً فسأل الكاتب مرتين على التوالي:

ـ «ألم تلمح الفتى بوترولية؟

ـ لا، لم أره يا سيدي القاضي.

ـ أين ذهب بحق الجحيم؟ لم يلمحه احد طيلة النهار».

وفجأة راودته فكرة فأعطى حافظة أوراقه إلى بريدو ودار حول القصر مهرولاً ثمّ اتجه نحو الخرائب.

وهناك قرب الرواق المقنطر الكبير كان إيزيدور مستلقياً على بطنه على التراب المكسو بإبر الصنوبر وقد طوى إحدى ذراعيه وأسند جبينه اليها.

ـ «ما الأمر! ماذا حلّ بك أيّها الفتى؟ هل أنت نائم؟

ـ لا لست نائماً. بل أفكّر.

ـ ليس هذا وقت التفكير! ينبغي أن نعاين أولاً. ينبغي أن ندقق

في الوقائع وأن نبحث عن القرائن وأن نحدّد نقاط استدلال. ولا نبدأ بالتفكير إلّا بعد أن ننجز كل هذه الأمور لنتمكّن من الربط في ما بينها سعياً لاكتشاف الحقيقة.

ـ أجل، أعرف ذلك... إنه الأسلوب المتّبع عادةً... وهو الأسلوب الصحيح بلا ريب. أما أنا فلديّ أسلوب آخر. أنا أفكّر أوّلاً، أحاول قبل كل شيء أن أهتدي الى الفكرة العامّة التي تلخّص القضيّة، إذا جاز لي أن أستخدم هذه العبارة. ثمّ أبدأ بتصوّر فرضية معقولة، فرضيـة منـطقية تتلاءم وتلك الفكرة العامّة. وبعد ذلك ألجأ الى المعاينة. هذا إذا كانت الوقائع تريد فعلاً أن تتطابق مع فرضيّتي.

ـ إنه أسلوب غريب ومعقد جداً.

ـ أسلوب مضمون النتائج يا سيّد فيّول بينما أسلوبكم أنتم ليس كذلك.

ـ ولكن الوقائع هي الوقائع.

ـ هذا إذا كان الخصوم من الطراز العادي، بلى أشاطرك الرأي، إلّا إذا كان الخصمُ واسـع الحيلة خدّاعاً فإن الوقائع عندئذٍ لا تكـون إلّا تلك التي يختـارها هو. فهذه القرائن التي عليها تبني مجـريـات تحقيقك أليست هي نفسها التي خلّفها الجاني بملء إرادته ورغبته؟ وأنت تدرك جيّداً أنّ ما نحن في صدده ليس أقلّ من صنيع رجل من طراز لوبين، وتعلم حقّ العلم إلى أين قد يُفضي بنا ذلك، نحو أي نوعٍ من الأخطاء والحماقات! فحتى هولمز بالذات وقع في شَرَكٍ مماثل.

ـ لقد مات أرسين لوبين.

ـ ليكن. إلّا أن أفراد عصابته ما زالوا على قيد الحياة، وتلاميذ

معلّم من طرازه لا بدّ أن يكونوا من طينة المعلمين هم أيضاً».

أمسك فيّول بذراع إيزيدور وجذبه للسير الى جانبه:

ـ «ما تقوله ليس سوى كلام أيّها الفتى. وهاكَ ما هو أكثر أهميّة. اسمع جيّداً. إنّ غانيمار المنهمك ببعض المشاغل في باريس لن يصل إلّا في غضون بضعة أيام. ومن ناحية أخرى أبرق الكونت دو جيفر في طلب شرلوك هولمز الذي وعد بالمساعدة على حلّ القضيّة ابتداءً من الأسبوع المقبل. إذاً ألا ترى أيها الفتى أنّ ثمّة ما يستحقّ العناء إذا استطعت أن تقول لهذين الرجلين الشهيرين يوم وصولهما: «آسف جداً أيّها السيدان، ولكننا لم نستطع الانتظار أكثر مما فعلنا. لقد أُنجزت المهمّة؟».

كان من المستحيل فعلاً أن يعترف رجلٌ بعجزه بمثل اللباقة التي اعترف بها ذاك الرجل الطيب الذي يُدعى السيد فيّول. فكبح بوتروليه ابتسامةً لاحت على شفتيه وأجاب بلهجة من انطلت عليه الاطراءات:

ـ «أعترف لك يا سيدي المحقّق، أنني وإن تخلّفتُ عن مجريات تحريّاتك فإنما فعلت ذلك على أمل أن تطلعني على الاستنتاجات التي توصلت اليها. لنر إذاً، إلى أين وصلت؟

ـ إليك ما أعرفه. مساء أمس، عند الحادية عشرة، تلقى الشرطيون الثلاثة الذين كلّفهم المفوّض كيفيون بحراسة القصر، أمراً خطيّاً وموقعاً من قبل المفوّض المذكور بالالتحاق بأسرع ما يمكن ببقية مفرزتهم في أوفيل. وما أن تلقوا الأمر حتى امتطوا جيادهم وغادروا، ولكن ما إن وصلوا إلى هناك...

ـ أدركـوا أنّها خدعة وأنّ الأمرَ الخطيّ مزوّر ويتوجب عليهم العودة فوراً الى أمبروميزي.

ـ وهذا ما فعلوه، فعادوا برفقة المفوّض. إلاّ أنّ غيابهم عن القصر استغرق ساعةً ونصف الساعة، وخلال هذه المدة وقعت الجريمة.

ـ وما الملابسات التي رافقتها؟

ـ من أبسـط ما تكون. أحضر الجناة سلّماً من مبنى المزرعة وأسندوه الى حائط الطبقة الثانية من القصر. وعمدوا الى قطع زجاج إحـدى النوافذ ودخلوا منها. دخل رجلان مزوّدان بمسدس كاتم للصوت الى حجرة الآنسة دو جيفر وكبّلاها قبل أن يتسنى لها أن تستغيث. ثمّ، بعد أن أوثقاها بالحبال وكمّما فمها فتحا باب حجرة الآنسـة دو سان فيران. سمعت الآنسة دو جيفر أنيناً مكتوماً ثمّ جلبـة شخص يُقـاوم. وبعد ذلك بدقيقة واحدة شاهدت الرجلين اللذين كانا يحملان ابنة عمّها وقد كبّلت هي أيضاً وكمّم فمها. ثمّ عبرا من أمامها وخرجا من النافذة. ولم تلبث الآنسة دو جيفر أن فقدت رشدها لشدة خوفها وإعيائها.

ـ والكلبان؟ ألم يُحضر السيد دو جيفر كلبين هولوسيّين للحراسة؟

ـ لقد عُثر عليهما مقتولين بواسطة السمّ.

ـ من استطاع أن يقتلهما؟ فلا أحد يجرؤ على الاقتراب منهما.

ـ أمر غامض! ولكنّ المهمّ أنّ الرجلين اجتازا دون أن يعترضـهما أحد خرائب الدير وخرجا من الباب الصغير الذي تعرفه جيّداً. ثمّ اجتازا الغابة بمحاذاة المقالع المهجورة. ولم يتوقفا لحظة واحدة إلاّ

عند شجرة تدعى «السنديانة الكبيرة» على بعد خمسمئة متر من القصر... وهناك ارتكبا جريمتهما.

ـ إذا كان القصدُ من مجيئهما الى القصر هو قتل الآنسة دو سان فيران فلماذا لم يجهزا عليها في حجرتها؟

ـ لست أدري. ربّما لم يطرأ ما يجعلهما مصمّمين على قتلها إلا بعد خروجهما من القصر. أو ربّما استطاعت الفتاة أن تتحرّر من قيودها. لذلك أعتقد أن الوشاح قد استخدم لتكبيل معصميها. والمؤكد في أية حال أنهما أجهزا عليها عند «السنديانة الكبيرة». فالأدلّة التي جمعتها لدي تؤكد ذلك بصورة حاسمة...

ـ وماذا عن الجثة؟

ـ لم يُعثر على الجثة، إلّا أن هذا الأمر ليس مُستهجناً بأية حال. فقد أفضت بي التحريّات التي أجريتها أثناء تتبعي لآثار الجناة إلى كنيسة فارونجيل قرب المقبرة القديمة التي تقع على قمّة الهضبة. ومن هناك يبدأ المنحدر الحادّ... هاوية يبلغ عمقها نحو مئة متر، وفي الأسفل الصخور والبحر. وفي غضون يوم أو يومين، لن يلبث المدّ العالي أن يلفظ الجثة ناحية الشاطىء الصخري.

ـ طبعاً، كلُّ الوقائع واضحة وبسيطة.

ـ أجل، من أبسط ما يكون ولا أجدني مُرتبكاً حيالها. لقد مات لوبين وعلم رجاله بالأمر فعمدوا تنفيذاً لتهديدهم بالانتقام الى قتل الآنسة دو سان فيران. كلّ هذه الوقائع لا تستدعي أي اجتهاد أو تمحيص. ولكن ماذا عن لوبين؟

ـ لـوبيـن؟

ـ أجل، ماذا حلّ به؟ لا بدّ أن رجاله قد نقلوا جثته في الوقت

نفسه الذي اختطفوا فيه الفتاة، ولكن ما هو الدليل على ذلك؟ لا نملك أي دليـل. تماماً كما لا نملك دليلاً على إقامته الطويلة بين الخـرائب أو على موتـه أو نجـاتـه. وهنا موضـع السرّ يا عزيزي بوترولیه. فقتل الآنسة ريموند ليس بداية الحلّ، بل على العكس، إنّه تعقيد إضافي. ما الذي حدث منذ شهرين في قصر أمبروميزي؟ وفي حال عدم توصلنا إلى حلّ لهذا اللغز فسيأتي آخرون ويرغموننا على الانسحاب من القضيّة.

ـ وفي أي يوم سيصل هؤلاء الآخرون؟

ـ يوم الأربعاء أو ربّما الثلاثاء...».

بدا بروتوليه مُستغرقاً في حسابات سريعة، ثمّ قال:

ـ «سيّدي المحقّق، اليوم السبت. وينبغي أن أعود إلى الثانوية مساء يوم الاثنين. إذاً صباح يوم الإثنين حاول أن تكون هنا عند العاشرة صباحاً وسأحاول من جهتي أن أطلعك على مفتاح اللغز.

ـ حقاً يا سيّد بوترولیه... أتظنّ فعلاً؟ أأنت واثق ممّا تقول؟

ـ على الأقلّ آمل أن أستطيع.

ـ والآن، إلى أين تذهب؟

ـ أنا ذاهب لأرى إذا كانت الوقائع تتلاءم والفكرة العامة التي بدأت ترتسم في ذهني.

ـ وإذا كانت لا تتلاءم وفكرتك؟

ـ في هذه الحال يا سيّدي القاضي تكون الوقائع هي المخطئة، قال بوترولیه ضاحكاً، وعندئذٍ سأبحث عن وقائع أخرى أكثر ملاءمة. إلى يوم الاثنين، أليس كذلك؟

ـ إلى اللقاء يوم الإثنين».

بعد دقائق معدودة كان السيّد فيّول يتوجّه نحو «دييب»، بينما سلك إيزيدور الطريق المؤديّة الى برفيل وكو دو بك أنكو على دراجة هوائية استلفها من الكونت دو جيفر.

فثمة أمر أراد الفتى أن يتثبّت منه قبل أن يتكوّن لديه رأي واضح، لأنّ هذا الأمر بدا له المنفذ المثالي إلى نقطة ضعف الخصم. إذ لا أحد يستطيع أن يُخفي مسروقات بحجم لوحات روبنز. لذلك لا بدّ أن تكون موجودة في مكان ما. وإذا كان يستحيل العثور عليها في الوقت الحاضر ألا يمكنه اكتشاف الطريق التي سلكتها قبل أن تختفي؟

لقد كانت فرضيّة بوترولیه هي التالية: لا بدّ أن تكون السيّارة قد نقلت فعلاً اللوحات الأربع ولكن قبل أن تصل الى كو دو بك أُنزلت منها ووُضعت في سيّارة أخرى عبرت نهر السين إمّا في اتجاه أعلى مجراه وإمّا في اتجاه أسفله. ففي اتجاه أسفل المجرى فإنّ أوّل حوض هو حوض كيبوف الذي يشهد حركةً كثيفة ويشكل بالتالي مكاناً غير آمن. أما في اتجاه أعلى المجرى فهناك حوض لا مايوريه، وهي بلدة معزولة وخارج نطاق كل وسائل الاتصال.

نحو منتصف الليل كان إيزيدور قد اجتاز الثمانية عشر فرسخاً التي تبعده عن لا مايوريه، وكان يقرع باب فندق صغير محاذٍ لضفة النهر حيث أمضى ليلته. ومنذ الصباح الباكر راح يستجوب البحّارة الذين يعملون في الحوض والمعديّة. تمّ الكشف على سجلّ المسافرين وتبيّن أن أيّة سيارة لم تعبر يوم الخميس في ٢٣ نيسان / أبريل.

ـ «إذاً عربة خيل؟ لَمح بوترولية، أو طُنبر، أو ربّما مقطورة؟

ـ لا، لا ذكر لمثل هذه الأشياء في السجل».

واصل إيزيدور تحريّاته طيلة فترة ما قبل الظهر. وكان على وشك المغادرة في اتجاه كيبوف عندما استوقفه خادم الفندق حيث أمضى ليلته وقال له:

ـ «في صباح ذلك اليوم كنتُ عائداً من عطلتي السنويّة ورأيتُ عربة خيل بالفعل، ولكنها لم تعبر.

ـ مـاذا؟

ـ لا، لم تعبـر. فقد أنزلت حمولة العربة ووضعت على زورق مُسطح للإنزال، كما يسمونه، كان راسياً عند رصيف الميناء.

ـ وتلك العربة، من أين جاءت؟

ـ أوه! لقد عرفتها على الفور. إنها عربة المعلّم فاتينل العرباتي.

ـ الـذي يقطـن؟

ـ قرية لـو فوتـو».

تفحّص بروتوليه خارطة المنطقة التي يحملها، وتبيّن له أنّ قرية لو فوتو تقع عند تقاطع طريق يفيتو وكو دو بك والطريق المتعرّجة الضيقة التي تجتاز الغابة وصولاً الى لا مايوريه!

ولم يفلح إيزيدور في العثور على المعلّم فاتينل إلاّ نحو السادسة مساءً في إحدى الحانات، وبدا أنّه من طينة أولئك النورمانديين الدهاة الذين يمكثون على تربّصهم ولا يخفون حذرهم من الغرباء، إلاّ أنهم لا يستطيعون أن يقاوموا إغراء قطعة نقود ذهبيّة أو تأثير بضعة أقداح.

ـ «بلى، يا سيّد، لقد كان موعدي مع أولئك السادة، ركّاب السيّارة، في الخامسة صباحاً عند تقاطع الطرق. وسلّموني أربع لوحات كبيرة تبلغ هذا المقدار من العلو. ورافقني أحدهم ونقلنا هذه الأشياء الى زورق الإنزال.

ـ تتحدّث عنهم كما لو أنّك تعرفهم من قبل.

ـ بالطبع أعرفهم من قبل! لقد كانت تلك سادس مهمّة أنجزها لصالحهم.

فانتفض إيزيدور لسماعه هذا الكلام.

ـ «تقول إنها المرّة السادسة؟... ومنذ متى؟

ـ كلّ يوم قبل ذلك اليوم، بحق السماء! ولكنّ الحمولة في المرّات السابقة كانت مختلفة... أحسب أنها قطع كبيرة من الحجارة... وقطع أخرى أضأل حجماً ومستطيلة، يغطّونها دائماً بالخرق ويحملونها بحذر كأنها القربان المقدّس. وكانوا يأمرون بأن لا تمَسّ... ولكن ماذا أصابك؟ أراك شاحباً.

ـ لا، لا شيء... إنه الحرّ...».

خرج بوتروليه مترنحاً. فقد أسكرته المفاجأة، وبهجة أن يعرف ما لم يكن في حسبانه.

عاد أدراجه مطمئناً، وأمضى ليلته في فارونجفيل، وفي صباح اليوم التالي أمضى ساعةً من الزمن في مبنى البلدية برفقة مدرّس البلدة ثمّ سلك طريق العودة الى القصر. وهناك وجد رسالة في انتظاره «كان السيّد الكونت دو جيفر قد تكرّم بحفظها له».

كانت الرسالة تحتوي على هذه العبارة:

«الإنذار الثاني إلزم الصمت. وإلّا...».

«إذاً، قال كأنّه يكلم نفسه، ينبغي أن تُتخذ بعض الاحتياطات لضمان سلامتي الشخصيّة. وإلّا، كما يقول هؤلاء...».

كانت الساعة قد شارفت التاسعة. فتنزّه طويلاً بين الخرائب ثمّ استلقى على الأرض قرب الرواق المقنطر وأغمض عينيه.

- «ما الأمر، أيّها الفتى، هل أنت راضٍ عن حملتك؟».

كان ذلك هو السيّد فيّول الذي وصل في التوقيت المتّفق عليه..

- «بل مسرور، يا حضرة المحقق.

- وهـذا يعنـي؟

- هذا يعني أنني جاهز الآن للوفاء بوعدي، برغم هذه الرسالة غير المشجّعة على الإطلاق».

وأطلع السيّد فيّول على مضمون الرسالة.

- «دعك من هذا الهراء! مجرّد ترّهات، وآمل أن لا يحول ذلك دون...

- دون أن أطلعك على ما أعرفه؟ لا، يا حضرة القاضي. لقد قطعت وعداً: وسأفي بالوعد، في غضون عشر دقائق سنعرف... جزءاً من الحقيقة.

- جزءاً من الحقيقة؟

- أجل، أعتقد أننا سنكتشف المكان الذي يختبىء فيه لوبين، وهذا لا يعني أن القضيّة قد حُلّت برمّتها. أمّا الباقي فسنرى ما سيطرأ بشأنه.

ـ يا سيّد بوترولِيه ما عدتُ أُعجب لأي شيء تفعله. ولكن قل لي كيف استطعت أن تكتشف مكانه؟...

ـ أوه! كأبسط ما يكون! فثمة في رسالة السيّد هارلنغتون إلى السيّد إتيان دو فودرايكس، أو الأحرى إلى لوبين...

ـ الرسالة المصادرة؟

ـ أجل. ثمة عبارة أثارت فيَّ الفضول وحيّرتني. وهذا نصّها: «.. أرسلها (أي اللوحات) بالطريقة الملائمة. وأرفقها بالبقية إذا استطعت الحصول عليها. وهذا أمر أخشى أن يكون مستحيلاً».

ـ بالفعل أذكر هذه العبارة.

ـ ما هي البقيّة؟ تحفة فنيّة، قطعة نادرة؟ لم يكن في القصر من الأشياء الثمينة سوى لوحات روبنز والسجادات. أهي مجوهرات؟ لا يوجد في القصر إلّا القليل منها وهي غير ذات قيمة. إذاً ماذا؟ ومن ناحية أخرى، أيُعقل أنّ لصّاً من طراز لوبين الذي يُشهد له بالبراعة الفائقة، قد فشل في أن يرفق اللوحات بهذه البقيّة التي لا بدّ أنّه هو الذي اقترحها على كاتب الرسالة؟ فقد تكون المهمّة صعبة، وهذا المرجّح، واستثنائية، فليكن، ولكن ممكنة، أي مضمونة، لأن لوبين عازم على تنفيذها.

ـ ومع ذلك أخفق! إذ لم يُفقد شيء.

ـ لم يُخفق: لقد فُقد شيء.

ـ بلى، لوحات روبنز.. ولكن...

ـ لوحات روبنز وشيء آخر... شيء ما تمّ استبداله بشبيه له، كما فعلوا بلوحات روبنز، شيء ما يفوق لوحات روبنز روعةً وندرةً وقيمة.

ـ إذاً ماذا يكون هذا الشيء؟ لقد أسقمتني».

سار الرجلان بين الخرائب وتوجّها نحو الباب الصغير بمحاذاة كنيسة «لا شابيل ديو».

ثمّ توقف بوتروليه.

ـ «أتودّ فعلاً أن تعرف يا سيدي القاضي؟

ـ بالطبع أريد!».

كان بوتروليه يحمل عصا في يده، عبارة عن قضيب ثخين ذي عقد. وبضربةٍ مباغتة من هذه العصا حطّم أحد التماثيلَ التي تزيّن القوس القوطية لمدخل الكنيسة.

ـ «هل جُننت! صرخ فيّول غاضباً وقد هرع نحو أجزاء التمثال المتناثرة. هل جُننت! إنه تمثال رائع...

ـ رائع!» قال إيزيدور وكرّر ضربته فحطّم تمثال مريم العذراء.

فطوّقه السيّد فيّول بذراعيه محاولاً ردعه.

ـ «أيّها الفتى لن أدعك ترتكب...».

فتناثر تمثال آخر لأحد المجوس، ثم مهدأ وفيه الطفل يسوع...

ـ «حركة أخرى وأطلق النار».

كان الكونت دو جيفر قد ظهر فجأةً حاملاً مسدّسه.

فانفجر بوتروليه ضاحكاً.

ـ «هيا أطلق عليها النار يا سيّدي الكونت... أطلق عليها النار،

كما في الأعياد الجوّالة. خذ مثلاً.. هذا الرجل الذي يغطي وجهه براحتيه.

وتناثر تمثال القديس يوحنا المعمدان.

ـ «آه! قال الكونت... مصوّباً مسدسه نحوه، يا له من تدنيس للمقدّسات!... مثل هذه التحف الفنيّة!

ـ إنها خردة، يا سيّدي الكونت!

ـ ماذا؟؟ ماذا تقول؟ صرخ السيّد فيّول وقد انتزع المسدّس من يد الكونت.

ـ خردة، أو كرتون مجصّص!

ـ آه! أيعقل هذا؟

ـ نفيخة! خواء! عدم!».

انحنى الكونت ولمّ قطعة من حطام تمثال.

ـ «انظر جيداً يا سيّدي الكونت... إنّه من الجصّ! جصّ مطلي بالأكسيد، متعفّن ومطحلب مثل حجر قديم... لكنّه جصّ، نماذج مصنوعة من الجصّ... هذا كل ما تبقى من التحف النادرة... وهذا ما فعلوه في أيام معدودة!... وهذا ما أعدّ له السيد شاربونيه، ناسخ لوحات روبنز، منذ عام تقريباً».

وبدوره أمسك بذراع السيد فيّول.

ـ «وأنت، ما رأيك يا سيّدي القاضي؟ أهو أمر جميل؟ أم ضخم؟ أم هائل؟ الكنيسة المسروقة! كنيسة كاملة، كنيسة قوطية شيّدت حجراً حجراً بعناية! جمهرة كاملة من التماثيل الصغيرة استبدلت بشخوص الخردة هذه! أحد أروع النماذج المعمارية لعصرٍ كاملٍ

من الفن الذي لا يُضاهى، صودر خلسةً! وأخيراً سُرقت «لا شابيل ديو»! أليس رائعاً! آه! يا حضرة المحقق، يا لعبقرية هذا الرجل!

ـ أراك مُستسلماً لحماس مفرط، يا سيد بوترولِيه.

ـ لا يكون الحماسُ مفرطاً على الإطلاق، يا سيِّدي، عندما يكون إعجاباً بمن هم من طراز هذا الرجل. فكلّ ما يتعدّى الوسط يستحقّ إعجابنا، وهذا الرجل يتفوّق على الجميع. ففي هذه السرقة ما فيها من سعة الادراك والقوّة والسطوة والبراعة والرشاقة، ما يجعلني أرتعش احتراماً.

ـ من المؤسف أنّه فارق الحياة، قال السيِّد فيّول ساخراً... وإلاّ لانتهى به الأمر الى سرقة أبراج «نوتردام».

هزّ إيزيدور كتفيه.

ـ «لا شيء يدعو الى السخرية يا سيِّدي. فهذا الرجل يثيرُ الاضطراب في روعك حتى ولو كان ميتاً.

ـ أنا لا أقصد... يا سيِّد بوترولِيه، لا بل أعترف أن مجرّد شعوري بأني قد أراه جثة هامدة يثير فيَّ انفعالات شتّى... هذا إذا لم يعمد أعوانه إلى إخفاء جثته.

ـ وعلى الأخصّ إذا سلّمنا جدلاً، قال الكونت دو جيفر، بأنه هو من أصابته رصاصة ابنة أخي المسكينة.

ـ إنه هو، يا سيِّدي الكونت، قال بوترولِيه جازماً، هو الذي تهالك بين الخرائب بعد أن أصابته طلقة الآنسة دو سان فيران. وهو الذي رأته ينهض مجدداً ثمّ يعاود السقوط أرضاً ويزحف نحو الرواق المقنطر الكبير لكي يعود وينهض هناك للمرّة الأخيرة ـ وما أقوله أشبه بمعجزة سأشرح تفاصيلها فيما بعد ـ ليصل بعد عناء،

إلى هذا الملاذ الحجري... الذي سيصبح قبره».

وضرب بعصاه عتبة الكنيسة.

ـ «هاه؟ ماذا؟ صرخ السيّد فيّول مذهولاً... قبره؟... أتحسب أن هذا الملاذ الذي لا سبيل لبلوغه...

ـ إنه هنا.. هنا.. ردّد قائلاً.

ـ لكنّنا فتشنا المكان.

ـ لا بدّ أن التفتيش لم يكن دقيقاً.

ـ ما من مخبأ هنا، قال السيد دو جيفر معترضاً. أنا أعرف الكنيسة جيّداً.

ـ بلى، يا سيّدي الكونت، هناك مخبأ. إذهب إلى بلدية فارونجفيل حيث حفظت كلّ الوثائق التي كانت موجودة في أسقفية أمبروميزي القديمة، وستفيدك هذه الوثائق التي تعود الى القرن الثامن عشر، أن ثمة مدافن للرهبان تحت الكنيسة. وهذه المدافن اقيمت، بلا ريب، تحت الكنيسة الرومانية التي شيّدت الكنيسة الحالية على أنقاضها.

ـ ولكن كيف استطاع لوبين أن يعرف هذا التفصيل؟ سأل السيّد فيّول.

ـ بأكثر الطرق بساطةً، ومن خلال الأشغال التي قام بها لتنفيذ خطة نهب الكنيسة.

ـ مهلاً، مهلاً يا سيّد بوتروليه، إنك تغالي في وصف الأمور... لم ينهب الكنيسة كلّها. انظر مثلاً، فهو لم يمسّ أيّاً من أحجار الزاوية تلك.

ـ بالطبـع، فهـو لم يصبّ قوالب مزيّفـة إلاّ لما له قيمة فنيّة، الحجارة المنقوشة، والمنحوتات والتماثيل، وكامل الكنز المؤلّف من الأعمدة والأقواس القوطية المزركشة. ولم يلتفت الى قاعدة المبنى، فبقيت الدعائم والأساسات كما هي.

ـ ولذلك يا سيّد بوترولية أقول إن لوبين لم يستطع الدخول الى مدافن الكنيسة».

وفي تلك الأثناء كان السيد دو جيفر الذي نادى على واحدٍ من خدمـه قد عاد وبيده مفتاح الكنيسة وفتح الباب. ودخل الرجال الثلاثة إليها.

بعد أن تفحّص المكان لثوانٍ معدودة، أردف بوترولية قائلاً:

ـ «... إن بلاطات الأرضيّـة لم تمسّ لسبب وجيه. ولكن من السهـل أن نلاحـظ أنّ المذبح الرئيسي ليس سوى قطعة مزيفة. والحالُ أنّ السلّم الذي يفضي الى مدافن الكنائس يُفتح عادةً من أمام المذبح ثمّ يمتدّ من تحته.

ـ وهـذا يعنـي؟

ـ هذا يعني أن لوبـين عثـر على باب المدفن أثناء انهماكه في استبدال المذبح».

وراح بوترولية يضرب المذبح بمعول كان الكونت قد أرسل في طلبه؛ فتطايرت قطع الجصّ ذات اليمين وذات اليسار.

ـ «تبّاً، غمغم السيّد فيّول، كم أتحرّق لمعرفة...

ـ وأنا أيضاً»، قال بوترولية الذي اكتسى وجهه بشحوب القلق.

زاد من قوة ضرباته وسرعتها. ولاحظ الجميع أن المعول الذي لم

يصادف جسماً صلباً حتّى تلك اللحظة، ارتطم فجأةً بجسم أشدّ صلابـة وارتدّ إلى الوراء. وسمعت جلبة انهيار أنقاض ولم يلبث المذبح أن غار إلى أسفل بعد أن غارت كتلة الحجر التي صدّعها المعول. انحنى بوترولیه. أشعل عود ثقابٍ وراح يمرّره على ما بدا فتحة فراغ سحيق.

ـ «إن فتحة السلّم تقع أبعد مما كنت أحسب، تحت بلاطات المدخل تقريباً. ومن هنا أستطيع أن أرى درجاته السفليّة.

ـ وهل الارتفاع كبير؟

ـ ثلاثة أمتار أو أربعة... درجات السلّم متباعدة... وبعضها مُحطّم.

ـ لا يُعقل، قال السيّد فيّول، أن يكون شركاء لوبين قد وجدوا متسعـاً من الوقت أثنـاء مدة غيـاب الشرطيين الثلاثة القصيرة، لخطف الآنسة دو سان فيران ونقل الجثة من هذا القبو... ثمّ ما الذي يدفعهم إلى نقل الجثة؟ لا، أعتقد أنه لا يزال هنا».

أحضر أحد الخدم سلماً خشبياً فدلاّه بوترولیه من الفتحة وثبّته مُتلمّساً بين الأنقاض المنهارة. ثمّ أمسك بطرفيه العلويين بقوّة.

ـ «أتريد أن تنزل، يا سيّد فيّول؟».

غامر قاضي التحقيق بالنزول أوّلاً مزوّداً بشمعة. وتبعه الكونت دو جيفر. وبدوره وضع بوترولیه قدمه على أولى درجات السلّم.

كانت ثماني عشرة درجة عدّها دون انتباه فيما عيناه تتفحصان أرجاء المدفن حيث كان نور الشمعة يُصارعُ العتمات الكثيفة. ولكن ما أن وطأت قدماه أرضية القبو حتّى طالعته رائحة حرّيفة كريهة،

واحدة من روائح العفونة تلك التي لا تبرح الحاسّة مهما طال عليها الزمن. أوه! يا لتلك الرائحة التي أوجعت منه القلب...

ثمّ بغتةً أحسّ بيدٍ مرتجفة تتشبث بكتفه.

ـ «ماذا هناك؟ ما الأمر؟

ـ بوترولية»، تمتم السيّد فيّول.

كان عاجزاً عن النطق لشدّة ما تملّكه الرعب.

ـ «هيّا يا سيدي المحقق، تمالك نفسك...

ـ بوترولية... إنه هنا...

ـ هـاه؟

ـ أجل... لمحت شيئاً ما تحت البلاطة الكبيرة التي تداعت من المذبح... فأزحت الحجر... ولمسته... أوه! لن أنسى ما حييت...

ـ أيـن هـو؟

ـ من هذه الناحية... ألا تشمّ هذه الرائحة؟.. ثم.. هاكَ.. انظر...».

أمسك الشمعة وقرّب ضوءها الخافت من كتلة ممدّدة على الأرض.

«أوه!» صرخ بوترولية مذعوراً.

انحنى الرجـال الثـلاثة للتحقّق مما رأوه. وإذا بجثة مخيفة لرجلٍ نحيل شبه عارٍ. كان لحم الميت الذي تظهر مواضع منه خلل الثيـاب الممزقة يميل الى الإخضرار بألوان الشمع الرخو. إلّا أن الأشدّ هولاً وما انتزع صرخة الرعب من صدر بوترولية كان منظرُ

الرأس، الرأس الذي سحقته أكوام الحجارة المنهارة، الرأس المشوّه الذي أصبح كتلة قبيحة ممحوّة القسمات والمعالم... وعندما اعتادت أعينهم ظلمة المكان أيقنوا أن الدود ينخر الجسد الميت...

هرع بوترولیه وتسلّق السلّم في أربع قفزات حتّى وصل الى الهواء الطلق إلى وضح النهار. وعندما صعد السيد فيّول بدوره وجده ممدّداً على بطنه يُغطي وجهه بيديه، فقال له:

- «تهانيّ لك يا بوترولیه. فبصرف النظر عن اكتشاف المخبأ، هناك أمران استطعت من خلالهما ان أختبر دقّة أقوالك. أولاً، أن الرجل الذي أطلقت عليه الآنسة دو فيران النار هو أرسين لوبين فعلاً، كما قلتَ منذ البداية. وثانياً، انه كان يحيا في باريس منتحلاً اسم اتيان دو فودرايكس. فملابسه الداخلية تحمل حرفي أ. ف. هذا ما بدا لي، أليس كذلك؟ والبرهان كافٍ...».

مكث إيزيدور لا يحرّك ساكناً.

- «لقد ذهب حضرة الكونت لتجهيز عربة الخيل. فسيرسل في طلب الطبيب «جويه» للقيام بالمعاينة وإنجاز الإجراءات المتبعة. أمّا أنا فأقول إن الوفاة حدثت منذ ثمانية أيام على الأقلّ ويدلّ على ذلك حالة التعفّن التي حلّت بالجثة... ولكن يبدو لي أنّك لا تصغي؟

- بلى، بلى.

- ما أقوله يستند إلى بيّنات قاطعة هكذا مثلاً...».

تابع السيد فيّول تحليله المنطقي دون أن يحظى، بأية حال، بأية بادرة إصغاء برغم ملاحظته السابقة. إلاّ أن عودة السيّد دو جيفر قطعت عليه مونولوجه الطويل.

عاد الكونت حاملاً رسالتين. إحداهما تخطره بوصول شرلوك هولمز في صبيحة اليوم التالي.

ـ «يا للروعة، قال السيّد فيّول مبتهجاً باشّاً. والمفتش غانيمار سيصل هو أيضاً. كم سيصبح الأمر ممتعاً.

ـ أما الرسالة الثانية، فهي لك يا حضرة القاضي، قال له الكونت.

ـ من حسنٍ إلى أحسن، أردف السيّد فيّول قائلاً بعد فراغه من قراءة الرسالة... لن يجد السيّدان الوافدان ما يفعلانه هنا. بوترولية، لقد بلغني خبرٌ من «دييب» يفيد بأنّ بعض الصيّادين عثروا هذا الصباح على جثة امرأة شابة بين الصخور».

فوجىء بوترولية:

ـ «ماذا تقول؟ جثّة...

ـ امرأة شابة... جثة تعرّضت لتشويه فظيع، كما يوضح الخبر، بحيث أنّه كان يتعذر التعرّف إلى هويّة صاحبتها لو لم يُعثر على سلسلة دقيقة من الذهب حول ساعدها الأيمن وقد حزّت جلده المنتفخ. والحالُ أن الآنسة دو سان فيران كانت تضع حول ساعدها الأيمن سلسلة من الذهب. إذاً لا بدّ أن تكون جثة ابنة أخيك المسكينة، يا سيدي الكونت، والتي لفظها البحر في تلك النواحي. ما رأيك يا بوترولية؟

ـ لا شيء.. لا شيء... أو الأحرى بلى... فالأمور تبدو مترابطة كما ترى، وأصبح تحليلي للوقائع تاماً لا ينقصه شيء. فكل الوقائع، الواحدة تلو الأخرى، وحتّى المتناقضة منها، وحتّى المخيّبة

والمحبطة منها، تصبُّ في خانة التأكيد على الفرضية التي تخيلتها منذ البداية.

ـ لا أفهم جيداً.

ـ لن تلبث أن تفهم كلّ شيء. تذكـر أنني وعدت بالكشف عن الحقيقة كاملةً».

ـ ولكن يبدو لي ...

ـ قليـلاً من الصبر. حتّى الآن لم أفعل إلّا ما يجعلك راضياً مطمئناً. الطقس الجميل. تنزّه قليلاً ثمّ إذهب لتناول طعام الغداء في القصر ودخّن غليونك. أما أنا فسأعود نحو الرابعة أو الخامسة. ولا بأس إذا تأخّرت قليلاً في الوصول الى مدرستي فسأستقل قطار منتصف الليل».

كانا قد وصلا الى حجرة الغسيل في الجهة الخلفية من القصر، فقفز بوتروليه راكباً درّاجته وابتعد.

فور وصوله الى «دييب» توقف عند مكاتب صحيفة «لا فيجي» حيث تصفّح أعداد الأسبوعين المنصرمين. ثمّ قصد بلدة أنفرنو التي تبعد عشرة كيلومترات. وهناك تحدّث إلى كلٍّ من رئيس البلديّة وراهب الرعيّة والناطور. وعندما دقّت ساعة الكنيسة الثالثة بعد الظهر كان قد أنجز تحريّاته.

وعاد أدراجه مُبتهجاً منشداً. كانت قدماه تدوسان بتتابع منتظم وبقوة واثقة على الدوّاستين فيما نسائم البحر المنعش تملأ رئتيه. ومن حين لآخر كان يستسلم لخفّة الإحساس بالفوز فيطلق، دون قصد، صيحات ابتهاج وفي ذهنه مسلسل التحريّات التي أوصلته

الى الهدف المنشود بفضل جهوده المثمرة.

لاحت له مباني أمبروميزي فراح يزيد من سرعته هابطاً المنحدر الذي يفضي إلى القصر. وكانت الأشجار المصطفة على جانبي الطريق في صفوف أربعة لم تتبدّل منذ قرون من الزمن، كأنها تهرع لملاقاته ثمّ لا تلبث أن تتلاشى من ورائه. وفجأةً أطلق صرخة مدويّة، فقد تراءت لعينيه الساهمتين في لحظة صحو عابرة رؤية مباغتة، فلاحظ أن حبلاً يعترض طريقه وقد شُدَّ الى شجرتين متقابلتين.

ارتطمت الدراجة وتوقفت على الفور وقذفته الصدمة بقوة بالغة إلى الأمام، وبدا له أن المصادفة وحدها، ولا بدّ أنها مصادفة عجائبية، قد جنّبته كومةً من الحجارة حيث كان ينبغي أن يسقط محطّماً رأسه.

مكث طائشاً لثوانٍ. ثمّ نهض وقد أصيب برضوض في أنحاء جسمه وبخدوشٍ في ركبتيه، وراح يتفقد الجوار، ولاحظ وجود غابة صغيرة تمتدّ إلى الجهة اليمنى من الطريق ولا بدّ أن الجاني قد سلكها للفرار. فكّ بوتروليه الحبل. ووجد تحت العقدة التي رُبطت بالشجرة في الناحية اليسرى، قصاصة ورق ففتحها وقرأ:

«التحذير الثالث والأخير».

عاد إلى القصر وبعد أن طرح بعض الأسئلة على الخدم انضمّ إلى قاضي التحقيق في حجرة من الطبقة الأرضيّة تقع في نهاية الجناح الأيمن حيث اعتاد السيّد فيّول أن يشرف على عمليّاته من هناك. كان السيّد فيّول منهمكاً بالكتابة وقد جلس كاتبه في الناحية

المقابلة ولم يلبث هذا الأخير أن غادر الحجرة بعد أن أشار عليه القاضي بذلك، ثمّ صرخ السيّد فيول قائلاً:

ـ «ولكن ماذا حلّ بك يا سيد بوتروليه؟ أرى يديك ملطختين بالدماء.

ـ لا شيء يُذكر، لا شيء، قال الفتى... إنها سقطة بسيطة بسبب ذلك الحبل الذي وضعه أحدهم معترضاً طريقي. وأرجو منك فقط أن تلاحظ أن الحبل المذكور قد أُخذ من القصر. فمنذ أقل من عشرين دقيقة كان لا يزال يُستخدم كحبل غسيل قرب حجرة غسل الثياب.

ـ أيُعقل هذا؟

ـ يا سيّدي، هناك من يراقبني في هذا القصر بالذات، يراني ويسمعني ويرصد كلّ أفعالي ويعرف جيّداً كلّ نواياي.

ـ أتعتقد أنه أمر ممكن؟

ـ لا بل أنا واثق مما أقول. ويتوجب عليك، أنت، أن تكتشف من هو ولا أحسبُ أن مثل هذا الأمر يتطلب منك الجهد الكبير. أما أنا، فسأنجز مهمتي وأطلعك على كلّ التفسيرات التي وعدتُ بإعطائها. لقد تقدمت بسرعةٍ لا يتوقعها الخصوم، وبتّ على قناعة أنهم، من جهتهم، سينشطون للردّ بقوة. إن الطوق يضيق من حولي، والخطر داهم، لدي إحساس بذلك.

ـ مهلاً، مهلاً، يا سيد بوتروليه...

ـ على كل حال، سوف نرى. أما الآن فعلينا أن نعمل بسرعة. ولكن أوّلاً يجب أن أستوضحك حول أمرٍ ينبغي أن أستبعده على

الفـور. ألم تُطلع أحداً على مضمون تلك الورقة التي عثر عليها المفوّض كيفيّون وسلّمك إياها في حضوري؟

ـ لا لم أطلع أحداً عليها. ولكن أتعتقد أن لمثل هذه الورقة أهمية ما؟

ـ أهمية كبيرة. لقد خطرت لي فكرة، مجرّد فكرة وأعترف أنها لا تستند إلى أي دليل... لأني حتّى الآن لم أفلح في فك رموز هذه الوثيقة. ولذلك أسالك لكي أستبعد أي احتمال بشأنها».

وأمسك بوترولبه يد السيّد فيول، وقال هامساً:

ـ «أصمت... هناك من يتنصّت.. في الخارج..».

تناهت إلى مسامعهما جلبَة أقدام تنتقل فوق الرمال. فهرع بوترولبه نحو النافذة وأطلّ منها.

ـ «لا يوجد أحد. ولكنّ الحوض مليء بآثار الأقدام... ومن السهل أن تُرفع العلامات».

أغلق النافذة وعاد الى كرسيّه.

ـ «أرأيت يا حضرة القاضي، أصبح الخصم لا يكلف نفسه عناء التحوّط والحذر.. لم يعد لديه الوقت اللازم... وهو أيضاً يشعر أن الوقت يداهمه. إذاً لنعمل بسرعة، ولنتكلم ما دام الخصمُ لا يريدني أن أتكلّم».

وضع الوثيقة على الطاولة وقال:

«قبل أي تفصيل آخر، هناك ملاحظة ملفقة. لم يدوّن على هذه الورقة، باستثناء النقاط، إلّا بعض الأرقام. ففي السطور الثلاثة الأولى، كما في السطر الخامس ـ وهي السطور التي ينبغي أن

تسترعي انتباهنا لأنّ السطر الرابع يبدو من طبيعة مختلفة كلياً ـ لا نجد رقماً يتجاوز الرقم ٥. لذلك من المحتمل أن يكون كلّ من هذه الأرقام يمثل أحد حروف العلة وحسب الترتيب الأبجدي. لندوّن ما نحصل عليه من هذا الحساب».

ودوّن على ورقة على حدة:

e. a. a.. e. a

.a.. a... e. e. . e. oi. e.. e.

.ou.. e. o... e.. e. o.. e

ai. ui.. e .. e u. e

ثمّ أردف قائلاً:

ـ «كما تلاحظ، لا نحصل على أي شيء يُذكر من هذا الترتيب. فمفتاح هذا اللغز بسيط جداً ـ لأن واضعه استبدل حروف العلة بالأرقام والحروف الساكنة بالنقاط ـ ولكنّه في الوقت نفسه صعبٌ جداً، إن لم يكن غير قابل للحلّ، لأن واضعه لم يكلّف نفسه المزيد من العناء لتعقيد المشكلة.

ـ من الواضح غموضه الحالي أكثر من كافٍ.

ـ لنحاول إيضاحه. لقد قسم السطر الثاني الى قسمين، ويبدو القسم الثاني منه مركّباً بحيث تؤلّف على الأرجح كلمة. فإذا حاولنا الآن أن نستبدل النقاط التي تتخلل الحروف بحروف ساكنة، يتحصّل لدينا، بعد تلمس وتجريب، أن الحروف الوحيدة التي يمكن أن نستخدمها، حسب المنطق، هي تلك التي تؤلف كلمة واحدة، كلمة وحيدة:

«demoiselles» (آنسات).

ـ إذاً للأمر صلة بالآنسة دو جيفر والآنسة دو سان فيران.

ـ من دون أدنى شك.

ـ ألا ترى شيئاً آخر؟

ـ بلى. ألاحظ أيضاً ما يُشير الى فاصلٍ في وسط السطر الأخير، وإذا طبّقت الطريقة نفسها في بداية السطر، لا يلبث أن يتضح لي أن بين التقاء حرفين من حروف العلة وفي موضعين بينهما فاصل، ..ai. ui ، لا يسعنا إلّا أن نستبدل النقطة بحرف g. ، وعندما أحصل على بداية الكلمة aigui ، يُصبح من الطبيعي، لا بل من الضروري أن أصل مع النقطتين التاليتين وحرف الـ e الأخير إلى كلمة aiguille. (*).

ـ بالفعل، إن كلمة «مسلّة» هي الملائمة.

ـ أما الكلمة الأخيرة، فألاحظ أنّ هناك ثلاثة حروف علة وثلاثة حروف ساكنة. أتلمّس قليلاً، وأحاول أن أضع كلّ الحروف الممكنة مكان النقاط منطلقاً من المبدأ الذي افترضته بأن النقطتين الأوليين هما حرفان ساكنان، فيتحصل لدي أنّ هناك أربع كلمات تلائم مثل هذا التشكيل ـ وهي: fleuve, freuve, pleure, creuse (**)، فاستبعد الكلمات الثلاث الأولى لأن لا صلة لها بكلمة مسلّة واستبقي كلمة «جوفاء».

ـ فيصبح لدينا ما معناه: مسلّة جوفاء. أقرّ لك بأن الحلّ الذي تقترحه هو الحلّ الصحيح، ولكن ما الجدوى منه؟

(*) إبرة أو مسلّة، هنا: مسلّة.

(**) نهر، دليل، بكاء، جوفاء.

ـ لا شيء، قال بوترولية، لا شيء في الوقت الحاضر... أما فيما بعد فسنرى... فأنا أعتقد أنّ هذا التركيب بين كلمتين: مسلّة جوفاء قد يتكشف عن أشياء كثيرة، وما يُشغلني الآن، هو مادة الوثيقة، الورق الذي استخدم لتدوين اللغز... أما زالت صناعة هذا الورق الرقيق المحبّب رائجة؟ ثمّ هذا اللون العاجي... وهذه الثنيّات، المستهلكة القديمة... وأخيراً، لاحظ، آثار الشمع الأحمر على المقلب...».

في تلك الأثناء قوطع تحليل بوترولية، إذ فتح الكاتب بريدو باب الحجرة وأبلغهما بوصول النائب العام فجأةً.

فنهض السيّد فيّول:

ـ «السيّد النائب العام ينتظر في الأسفل؟

ـ لا، يا سيدي القاضي، النائب العام لم يترجل من سيّارته وسيغادر على الفور ويرجو منك أن تلاقيه عند المدخل، فلديه ما يقوله لك.

ـ إنه أمر مُستغرب، تمتم السيّد فيّول. على أية حال، سنرى... أرجو المعذرة يا بوترولية، سأتغيّب للحظات ثمّ أعود».

غادر الحجرة وسُمع وقع خطواته مبتعداً في الرواق. عندئذ أغلق الكاتب الباب وأوصده بالمفتاح ثمّ وضع المفتاح في جيبه.

ـ «ماذا هنالك! قال بوترولية باستهجان، ماذا تفعل؟ لماذا تقفل علينا الباب؟

ـ أليس هذا أفضل لنتحدّث قليلاً؟» أجاب بريدو.

هرع بوترولية مباشرةً إلى الباب الآخر الذي يفضي الى الحجرة

المجاورة. لقد أيقن الآن أن شريك الجناة هو بريدو الكاتبُ الذي يرافق قاضي التحقيق!

فضحك بريدو هازئاً:

ـ «لا تؤذ أصابعك، يا صديقي، فلدي أيضاً مفتاح الباب الآخر.

ـ لم يبق إلا النافذة إذاً، صرخ بوترولية.

ـ لقد فات الأوان» قال بريدو معترضاً طريقه وقد شهر مسدسه.

أصبحت كلّ المنافذ مسدودة. ولم يبق أمامه إلّا أن يدافع عن نفسه حيال الخصم الذي كشف عن هويّته بفظاظة وجرأة. فوقف إيزيدور الذي يعتصر قلبه إحساس عميق بالقلق، مكتوف اليدين.

ـ «حسناً، قال الكاتب، والآن لنتكلم باختصار».

أخرج ساعته من جيب سترته.

ـ «سيقطع السيّد فيّول المسكين المسافة حتى سور المدخل وهناك لن يجد أحداً بالطبع لا النائب العام ولا سواه. وعندئذ سيعود أدراجه. وهذا يعني أن أمامنا أربع دقائق تقريباً. وتلزمني دقيقة واحدة لكي أقفز من النافذة وأجتاز الخرائب إلى الباب الصغير حيث تنتظرني دراجة بخارية. يبقى لدينا ثلاث دقائق، وهي مدّة كافية».

كان مظهر الرجل غريباً بعض الشيء، إذ ينتصب نصفه الأعلى ضخماً، كجسم العنكبوت، فوق ساقين هزيلتين وطويلتين تفوقهما ذراعاه طولاً. وجهه نحيل ناتيء العظام، وجبين ضيّق يفضح طباعه العنيدة وذكاءه المحدود.

ترنّح بوترولية لخور في ساقيه. فجلس.

ـ «هيّا تكلّم. ماذا تريد؟

ـ الورقة. فأنا أبحث عنها منذ ثلاثة أيام.

ـ ليست في حوزتي.

ـ كاذب. عند دخولي إلى الحجرة كنت تضعها في محفظتك.

ـ وبعد أن أعطيك الورقة؟

ـ بعد ذلك؟ ستعدني بأن تمكث عاقلاً. أنت تسبب لنا المتاعب. فدعنا وشأننا، والتفت الى شؤونك الخاصة. لقد عيل صبرنا».

كان قد اقترب قليلاً مصوّباً مسدّسه نحو الفتى وكان كلامه خافت النبرة واضح اللفظ بلهجةٍ زاخرة بالحيوية. كانت نظراته جامدة وابتسامته مليئة بالقسوة. فارتعد بوترولية. كانت تلك أولى تجاربه في مواجهة خطر حقيقي. وأي خطر! فقد كان يشعر لأوّل مرّة بأنه حيال عدو لا يرحم، بقوّته الغاشمة التي لا تقاوم.

ـ «وبعد ذلك؟ قال بصوت متهدّج.

ـ وبعد ذلك؟ لا شيء... ندعك وشأنك...».

وبعد صمت. أردف بريدو قائلاً:

ـ «لم يبق إلّا دقيقة واحدة، هيّا أيّها الفتى الطيب، دعكَ من الحماقات، عليك أن تحسم أمرك... فنحن الأقوى دائماً وفي كل مكان... هيا بسرعة أعطني الورقة..».

لم ينبس إيزيدور بكلمة واحدة، ممتقع السحنة مكبّلاً بالخوف، إلّا أنه لم يفقد سيطرته على نفسه وبقي صافيَ الذهن برغم التوتّر الذي يشدّ أعصابه. كانت فوهة المسدس السوداء ماثلة لعينيه على

بعد عشرين سنتيمتراً. والإصبع المثنيّة تضغط قليلاً على الزناد. ويكفي أن تضغط أكثر بقليل...

- «الورقة، قال بريدو، وإلّا...

- خذها!» قال بوترولية. تناول محفظته من جيب سترته وأعطاها للكاتب الذي تلقفها بسرعة.

- «عظيم! عينُ العقل. لا بدّ أن نعملَ معاً ذات يوم... جبان بعض الشيء ولكن شديد التعقل والدراية. سأحدّث الرفاق عنك. والآن، يجب أن أغادر. الوداع».

أعاد مسدسه إلى جيبه ورفع مزلاج النافذة. وفي الأثناء سمع وقع خطوات في الرواق.

- «الوداع، قال مجدّداً... في الوقت المناسب».

ولكنّ فكرة خطرت له استوقفته قليلاً. وبحركة سريعة تحقق من المحفظة.

- «سحقاً... قال متوعّداً، الورقة ليست هنا... لقد خدعتني».

فقفز إلى داخل الحجرة ودوّت طلقتان. كان إيزيدور قد شهر مسدسه هو أيضاً وأطلق النار.

- «لقد أخطأتني يا فتى، صرخ بريدو، إن يدك ترتعش، إنك خائف...».

واشتبكا بالأيدي ووقعا معاً على الأرضية. ثمّ سُمعت طرقات على الباب.

كان إيزيدور واهن القوى وسرعان ما استسلم لغلبة خصمه.

إنها النهاية. ارتفعت يد فوقه وانهالت عليه بسكين. فأحسّ بألم مبرح في كتفه وفقد وعيه.

وفي غيبوبة الألم تلك تراءى له أنّ الرجل يفتش في جيوب سترته الداخليـة وأنّه عثر على الوثيقة. ثمّ رأى من خلال الغشاوة التي غطت عينيه طيف الرجل وهو يقفز من حافة النافذة.

في صبيحـة اليـوم التـالي صدرت الصحف التي نشرت آخـر المستجدّات التي جرت في قصر أمبروميزي، من تزييف محتويات الكنيسـة الى اكتشـاف جثة أرسين لوبين وجثة ريموند، وأخيراً محـاولة قتـل بوتـروليـه على يدِ بريـدو، الكاتب المساعد لقاضي التحقيق، كما حملت عناوين هذه الصحف نفسها الخبرين التاليين:

اختفاء غانيمار واختطاف شرلوك هولمز في وضح النهار في وسط لندن فيما كان يهم بالصعودِ إلى القطار قاصداً «دوفر».

هكذا إذاً، استطاعت عصابة لوبين بعد وقتٍ من الارباك الذي سبّبته نباهة صبيّ في السابعة عشرة، أن تستعيد المبادرة وبضربة واحدة كانت هي المنتصرة على كافة الصعد والاتجاهات. فقد تمّ التخلص من خصمي لوبـين الشهـيرين هولمز وغانيمار. وأصبح بوترولية خارج المعركة. ولم يبق من يستطيع أن يجابه خصوماً من هذا الطراز.

الفصل الرابع

وجهاً لوجه

بعد مضيّ ستة أسابيع، قرّرت ذات مساء أن أمنح خادمي يوم عطلة. كان ذلك عشيّة ١٤ تموز/يوليو. كان الحرّ خانقاً كما لم ترق لي كثيراً فكرة الخروج من المنزل. أبقيت النوافذ المطلّة على الشرفة مشرّعة وأضأتُ مصباح المكتب ثمّ جلستُ مسترخياً على كنبة لتصفح صحف اليوم التي لم أقرأها بعد. وبالطبع كانت الصحف تتحدّث عن أرسين لوبين. فمنذ أن تعرّض ذلك المسكين بوترولیه لمحاولة القتل، لم يمض يوم واحد دون أن تتناول الصحف قضيّة أمبروميزي. فقد أفردت لها زاوية يومية. إذ لم يشهد الرأي العام من قبل حماساً يُعادل الحماس الذي أثاره فيه ذلك المسلسل المتسارع من المجريات والأحداث غير المتوقّعة والمحبطة. وكان السيّد فيّول الذي رضي، بأنفة يُشهد له عليها، بالدور الثانوي، قد أسرّ إلى مراسلي الصحف بتفاصيل المآثر التي حققها مُستشاره الفتي خلال الأيام الثلاثة التي لا تُنسى، ممّا أفسح في المجال لأكثر الافتراضات جرأة.

وكانت تلك هي الفرصة المثالية للبعض. أخصائيو وتقنيو الجريمة، روائيون وكتّاب مسرحيون، قضاة ورؤساء سابقون لجهاز الأمن، أشباه السيّد لوكوك من المتقاعدين، وأشباه شرلوك

هولمز من الهواة. كان لكلّ منهم نظريته الخاصة التي يُدبّج تفاصيلها في مقالات طويلة. وكان كلّ واحد منهم يستعيد مجريات التحقيق ويقترح التتمّة. وكلّ هذا استناداً إلى كلام صبي، هو إيزيدور بوترولِيه، تلميذ علم البيان في ثانوية جانسون دو سايي.

ذلك أنّه، والحقّ يقال، ما عادت الحقيقة خفية على أحد بعد أن جمعت كلّ العناصر المكوّنة لها. والسرّ... أين يكمن السر إذا وُجد؟ فقد تمّ الكشف عن المخبأ الذي لاذ به أرسين لوبين وشهد احتضاره، وما من أدنى شك حول هذه النقطة. فقد أسرّ الدكتور دو لاتر، الذي لزم الصمت طوال تلك المدّة متذرعاً بأسرار المهنة، إلى بعض المقربين ـ الذين أذاعوا بدورهم ما أسرّ به إليهم ـ أنّه اقتيد الى مدفن كنيسة بالفعل لمعاينة جريح عرّف عنه شركاؤه باسم أرسين لوبين. وبما أن الجثة التي عثر عليها في هذا المدفن بالذات تبين أنها جثة إتيان دو فودرايكس وعلماً بأن الأخير ليس سوى أرسين لوبين بشحمه ولحمه، كما أثبت التحقيق، فإنّ التطابق بين هوية أرسين لوبين وهوية الجريح لم يعد في حاجة لأي بُرهان.

إذاً، بعد موت لوبين والعثور على جثة الآنسة دو سان فيران والتحقق من هويّتها بفضل السلسلة التي تطوق معصمها، فلا بدّ أنّ القضية قد انتهت.

ولكن القضيّة لم تنته. ولم تكن في قناعة الجميع في حكم المنتهية، لأن بوترولِيه كان قد صرّح بأنها لم تنته. ولم يكن في وسع أحد أن يعرف ما الذي لم ينته بعد من فصول القضيّة، ولكنّ كلام الفتى أبقى السرّ على غموضه. ذلك أنّ براهين الوقائع ما كانت لتصمد حيالَ تأكيد واحد يصدر عن شخص من طراز بوترولِيه.

فساد الاعتقاد بأن هناك أمراً لا يزال مجهولاً وأنّ هذا الأمر لن يجد من يقدر على تفسيره سوى بوترولييه.

ولذلك كم كان القلق سائداً في البداية، في انتظار التقارير التي يعلنها تباعاً الأطباء الذين كلّفهم الكونت بالعناية بالمريض في «دييب»، حول حالة بوترولييه الصحيّة! وأيّ أسى خيّم على الجميع خلال الأيام الأولى التي بدا فيها أن حياته في خطر! وأي حماس عمّ الرأي العام حين أعلنت الصحف، ذات صباح، أن الخطر قد زال عنه! كان الرأي العام يتتبع أي تفصيل من تفاصيل علاجه بتأثر بالغ. فكم كان مؤثراً أن يعرف الناس أن والده هرع فور تبلّغه النبأ ليمكث في جواره والعناية به، وكم أثار إعجابهم مقدار العناية الذي أحاطته به الآنسة دو جيفر التي سهرت الليالي قرب سرير الجريح.

بعد ذلك كانت فترة النقاهة القصيرة الأمد والبهجة التي رافقتها. وأخيراً سيُعرف السرّ! سيعرف الناس ما وعد بوترولييه بالكشف عنه للسيّد فيول، وستعرفُ الكلمات الختامية التي حاول خنجر الجاني دون أن يتلفّظ بها! كم سيطلع الرأي العام على حقيقةِ كلّ التفاصيل التي ما تزال، خارج إطار القضيّة نفسها، مُبهمةً ولم تتوصّل العدالة إلى حلّها برغم كلّ الجهود التي بذلتها.

فما أن يتعافى بوترولييه من جروحه حتّى يُصبح قادراً على التوصّل إلى يقين ما حول هوية السيّد هارلنغتون، شريك أرسين لوبين الغامض والذي لا يزال محتجزاً في سجن «لا سانتيه». كما سيكشف النقاب عن مصير الكاتب بريدو الذي توارى بعد الجريمة وبعد أن تبيّن أنّه شريك آخر للوبين لا تعوزه الجرأة والوقاحة.

وما أن يتماثل بوترولیه للشفاء ويعود إلى مزاولة نشاطه، فلن يصعب عليه أن يكوّن فكرة واضحة حول اختفاء غانيمار واختطاف هولمز. إذ كيف استطاع الجناة تنفيذ مثل هاتين العمليتين؟ ولم يعثر تحريّو الشرطة الانكليزية، على غرار زملائهم الفرنسيين، على أية قرينة بهذا الشأن. فيومَ أحدِ العنصرة، لم يعد غانيمار إلى منزله ولا يومَ الإثنين، ولا في الأيام التي تلت منذ نحو ستة أسابيع.

وفي لندن، يوم اثنين العنصرة، كان شرلوك هولمز يهمّ عند الرابعة مساءً بالصعود إلى سيّارة أجرة لتقلّه الى المحطة. وما أن صعد الى السيّارة حتى سارع الى النزول منها بعد أن ارتاب، على الأرجح، بأمر ما. ولكنّه لم يستطع الافلات إذ طوّقه رجلان، أحدهما لجهة اليمين والثاني لجهة اليسار وأجلساه بينهما، لا بل تحتهما، على المقعد الخلفي ثمّ انطلقت السيارة مُسرعةً. ولقد جرى كلّ ذلك أمام عشرةٍ من الشهود. وبعد ذلك؟ بعد ذلك لا شيء. لم يتوصل أحد إلى معرفة شيء.

ومن يدري ربّما سيتم الكشف، بفضل جهود بوترولیه أيضاً، عن المضمون الكامل للوثيقة، تلك الورقة الغامضة التي يعلّق عليها الكاتب بريدو أهميّة بالغة الى حدِّ انتزاعها بقوّةِ السلاح من حاملها. «قضية المسلّة الجوفاء»، كما كان يُسّميها المتفلسفون الكثر الذين انكبّوا على تمحيص النقاط والأرقام محاولين إيجاد معنى لها... المسلّة الجوفاء! تركيب مُحبط بين كلمتين، ومسألة غامضة تطرحها قصاصة الورق تلك التي يجهل الجميع مصدرها! أهي عبارة مجرّدة من أي معنى، خربشة تلميذ ينثر حبر ريشته على قصاصة ورق؟ أم أنّهما الكلمتان السحريتان اللتان بهما يكتمل

المغزى الحقيقي لتلك المغامرة الكبرى التي قام بها المغامر لوبين؟ فمن يدري.

كلّ هذه الأمور ستتضح. فقد كانت الصحف لا تكفّ عن الحديث، منذ بعض الوقت، عن عودة بوترولية الوشيكة. ولا بدّ أن الصراع سيُستأنفُ من جديد، ولكنّه مصحوب هذه المرّة بتصميم إيزيدور العنيد على الانتقام.

وهذا بالضبط ما لفتني؛ اسمه المطبوع بالأحرف العريضة على الصفحة الأولى من «لو غران جورنال» وتحته هذا الخبر:

«لقد استطعنا اقناع السيّد إيزيدور بوترولية بأن يمنحنا اولوية نشر اقواله التي سيدلي بها غداً، الاربعاء، وقبل ان يُطلع السلطات العدلية عليها. وستنشر صحيفة «لو غران جورنال» الوقائع الحقيقية الكاملة لمأساة أمبروميزي».

ـ «إنه خبر يَعِدُ بالكثير، أليس كذلك؟ فما رأيك يا عزيزي؟».

انتفضتُ في مكاني. فقد رأيتُ على الكرسي المجاور رجلاً لا أعرفه.

فنهضت وأجلتُ أنظاري في الأرجاء بحثاً عن سلاح. ولكن ما إن بدا لي هادئاً ولا يسعى للأذية تمالكت نفسي ودنوتُ منه.

كان رجلاً فتياً بدت على وجهه ملامح الصرامة، طويل الشعر أشقره، وله لحية أميلُ إلى الصُهبة مفروقة عند ترويسة الذقن الى خصلتين قصيرتين ومدبّبتين. وكان ثوبه يُذكّر ببساطة ثوب راهب انكليزي، وفي مظهره ما يوحي بالتقشف والرصانة اللذينْ يستدعيان الاحترام.

ـ «من أنت؟» سألته.

وإذ لزم صمته، سألت مجدّداً:

ـ «من أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟ وما الذي أتى بك؟».

نظر إليّ وقـال:

ـ «ألم تعرفني؟

ـ لا.. لا!

ـ آه! إنه أمر غريب... تذكر جيّداً... أحد أصدقائك... صديق من نوعٍ خاص تقريباً...».

قبضت على ذراعه بقوّة:

ـ «أنت تكذب!... أنت لست من تدعي أنه أنت... غير صحيح...

ـ ولماذا إذاً تذكّرت ذلك الشخص بالذات ولا أحد سواه؟» قال ضاحكاً.

آه! تلك الضحكة! تلك الضحكة الفتيّة الصادحة والتي طالما أغوتني برنّتها الساخرة!... سرت فيّ رعشةٌ. أيُعقل أن يكون هو؟

ـ «لا، لا، قلتُ معترضاً وبشيء من الهلع.. لا يُعقل أن...

ـ لا يُعقـل أن أكـون أنـا لأنني ميت، ولأنّـك لا تؤمن بوجود العائدين من الموت؟».

ضحك مجدّداً.

ـ «وهل تحسبني من طينة أولئك الذين يموتون؟ أن أموت هكذا ببسـاطة، برصاصةٍ في الظهر أطلقتها على فتاة شابة! إنّك تُسيء

تقديري حقاً! كما لو أنني أقبل، من جهتي، مثل هذه النهاية!

ـ هذا أنت إذاً! قلتُ مُتلعثماً، لا أصدّق ما تراه عيناي لشدّة انفعالي... ولكن أجد صعوبة في التعرّف إليك...

ـ إذاً، قال مُبتهجـاً، استـطيـع أن أطمئن الآن. فإذا كان الشخص الوحيد الذي استطاع أن يراني كما أنا في الحقيقة يجد صعوبةً في التعرّف إليّ اليوم، فهذا يعني أنّ لا أحد ممن سيراني كما أنا من الآن فصاعداً سوف يعرفني أيضاً عندما سيراني كما أنا في الحقيقة، هذا إذا أمكن القول كيف أبدو كما أنا في الحقيقة...».

عرفت صوته إذ كفّ عن تبديل نبرته، وعرفت عينيه أيضاً وتعابير وجهه وكلّ ما يمتّ بصلة إلى سلوكه الذي أعرفه، وإلى شخصيته الحقّة من خلال المظهر الذي أراد أن يتنكر تحت غطائه.

ـ «أرسين لوبين، قلت متمتماً.

ـ أجل، أرسين لوبين، صرخ واقفاً. لوبين الواحد والوحيد، بعد عودته من مملكة الظلام لأنني، على ما يبدو لي، احتضرتُ ولاقيتُ حتفي في مدفن كنيسة. أرسين لوبين الذي ما زال حيّاً يرزق، طليق اليدين، مغتبطاً وحُرّاً، وعازماً، أكثر من اي وقت مضى، على التمتع بهذه الحريّة الجديدة في عالمٍ لم يلقَ منه إلّا الحظوة والامتياز».

ورحت أضحك بدوري.

ـ «حسناً، هذا أنت بالفعل وأراك أكثر مَرحاً مما كنت عليه ذلك اليوم الذي أسعدت برؤيتك فيه السنة الماضية. لك مني أحرّ التهاني».

كنتُ أشيرُ إلى زيارته الأخيرة، تلك التي أعقبت مغامرة التاج(*) الشهـيرة وقصّـة انفصـاله عن زوجتـه وهـروبـه برفقة صونيا كريشنوف والحادثة الرهيبة التي أودت بحياة الفتاة الروسيّة. في ذلك اليوم كنتُ أقف أمام أرسين لوبين لا أعرفه، لشدّة ما بدت عليه معالم الضعف والانكسار وقد أتعب البكاء عينيه وكأنّه يستجدي بعض العطف والحنان.

ـ «اصمت، قال، لقد أصبح الماضي بعيداً.

ـ كان ذلك منذ سنة واحدة، قلت.

ـ كان ذلك منذ عشر سنوات، قال بلهجة حاسمة، إنّ سنوات أرسين لوبين تعادلُ عشرة أضعاف ممّا لسواه».

لم ألحّ عليه بهذا الشأن فقلتُ في محاولةٍ مني لتغيير الحديث:

ـ «إذاً، كيف استطعت أن تدخل؟

ـ بحق السماء، كما يدخلُ الناسُ عادةً، من الباب. ولأنني لم أصادف أحداً، اجتزت الصالة وسرت بمحاذاة الشرفة وها أنذا.

ـ ليكن، ولكن ماذا عن مفتاح الباب؟

ـ أنت تعلم جيّداً أنّ الأبـواب بالنسبة لي غير موجودة. كنت محتاجاً لشقّتك، فدخلت.

ـ سمعاً وطاعة. أتريدني أن أغادر؟

ـ أوه! لا، أبداً، وجودك لن يزعجني. حتّى بامكاني القول إنّ الأمسية ستكون مثيرة وممتعة.

(*) أرسين لوبين، مسرحية في أربعة فصول.

ـ أتنتظر أحداً؟

ـ اجل، لدي موعد هنا بالذات عند الساعة العاشرة...».

وتناول ساعته من جيبه

ـ «إنها العاشرة تماماً. إذا وصلت البرقية في الوقت المناسب، فإنّ الشخص الذي أترقّب قدومه لن يتأخر في الوصول».

وبالفعل رنّ الجرس في بهو المدخل.

ـ «أتدرك الآن قصدي؟ لا، لا تكلّف نفسك هذا العناء... سأفتح الباب بنفسي».

من هو القادم، بحق الجحيم؟ وما الذي ستشهده عيناي، لقاء عمل أم مجرّد دعابة؟ فلكي يرى لوبين نفسه انّه موعد على قدر كبير من الأهمية، لا بدّ إذاً أن تكون مناسبة اللقاء استثنائية بعض الشيء.

وبعد ثوان معدودة عاد برفقته شاب نحيل، طويل القامة شاحب الوجه.

ودون أن ينبس بكلمة واحدة راح لوبين يُضيء كل المصابيح الكهربائية بشيءٍ من الحفاوة ممّا أثار ارتباكي. سطعت الأضواء في أرجاء الحجرة. وعندئذ راح الرجلان يحدقان واحدهما في وجه الآخر، وكأن كلاً منهما يحاول أن يسبر غور الآخر بنظراته المتوقّدة. وكان المشهد مؤثراً، أن يقفا هكذا أمامي، صامتين مقطّبين. ولكن من عساه يكون هذا الوافد الجديد؟

وفي اللحظة التي كدتُ فيها أن أدرك الشبه بين هذا الوافد

الجـديد والصورة التي رأيتها مؤخراً في إحدى الصحف، التفت لوبين نحوي وقال:

ـ «يا صديقي العزين، أقدّم لك السيّد إيزيدور بوترولِيه».

ثمّ سرعان ما التفت نحو الشاب وقال:

ـ «أنا مدين لك بالشكر، يا سيد بوترولِيه، أوّلاً لأنّك وافقت، تلبيةً لرجاء خطي مني، على تأجيل موعد الإدلاء بمعلوماتك إلى ما بعد هذا اللقاء، وثانياً لأنّك تكرّمت علي بمثل هذا اللقاء بطيبة خاطر».

ابتسم بوترولِيه..

ـ «أرجو أن تكون مدركاً لحقيقة أن طيبة الخاطر التي ذكرت ليست، على وجه الدقّة، إلّا تنفيذاً لأوامرك. فالتهديد الذي تضمنته رسـالتـك إلي كان قاطعـاً ومقنعاً لأنه لا يستهدفني شخصياً بل يستهدف والدي.

ـ صَدَقت، أجاب لوبين ضاحكاً، فعلى المرء أن يستخدم الوسائل المتوفرة لديه. لقد أدركت، بعد التجربة، أنّك لا تبالي كثيراً بسلامتك الشخصيـة وإلّا لما قاومت كلّ تهـديدات السيّد بريدو. فلم يبق أمامي إلّا والدك... والدك الذي تحبّه كثيراً... فعزفت على هذا الوتر.

ـ وها أنذا»، قال بوترولِيه راضخاً.

رجوتهما أن يجلسا، فجلسا، وبادر لوبين بلهجته التي تمازجها سخرية خفية، إلى القول:

ـ «على أية حال يا سيّد بوترولِيه، إذا كنت لا تقبل مني الشكر فعلى الأقل اقبل مني اعتذاراتي.

ـ اعتذارات! ولِمَ، يا سيّدي؟

ـ لفظاظة السيّد بريدو حيالك.

ـ لا أخفيك بأنّ فعلته قد فاجأتني. فهي ليست من شيم لوبين المعتادة. طعنة خنجر...

ـ الواقــع أنه لا صلة لي بالأمر. فالسيد بريدو لا يزال حديث العهد في جماعتنا. فقد ارتأى أصدقائي أثناء الفترة التي أشرفوا فيها على العمليّات، أنّه قد يكون من المفيد أن نجنّد كاتب قاضي التحقيق بالذات.

ـ وما أخطأ الأصدقاء على الاطلاق.

ـ بالفعـل، فقـد أدّى بريـدو الذي كلّفنــاه بمراقبتك مهمّةً لا يُستهـان بهـا. ولكنّه إذ غلبته حماسة المستجدين في المهنة دفع الأمـور، وبمبادرة منه، إلى أبعد مما يجب، وأربك خططنا عندما حاول قتلك.

ـ أوه! يـا للمأساة.

ـ لا أبداً، على الإطلاق لقد أنّبته بعنف على ما اقترفته يداه. ومع ذلك، ينبغي أن أقرّ بأمر ما في صالح بريدو، فمما لا شك فيه أنّه بوغت بالسرعة غير المتوقعة التي أنجزت بها تحريّاتك. فلو أنّك أتحت لنا بضع ساعات أخرى لكنت نجوت من ذلك الاعتداء الآثم.

ـ وكنت تعرّضت، بلا ريب، لما تعرّض له السيّدان غانيمار وهولز؟

ـ بالضبـط، قال لوبـين مُستغـرقاً في ضحكٍ متواصل. وكنت ستجنبني تلك العـذابـات الرهيبة التي عانيتها بسبب إصابتك.

صدّقني، لقد كابدت ساعاتٍ مبرحّة وما زلت حتى اليوم إذ أرى شحوبك يتملكني الندم. ألست حاقداً عليّ؟

ـ إنّ برهان الثقة الذي تمنحني إياه اليوم بمثولك أمامي من دون أدنى شرط ـ إذ كان من السهل أن أصطحب أحد رجال غانيمار! ـ إن برهان الثقة هذا يمحو كلّ أخطاء الماضي».

هل كان صادقاً في ما يقول؟ أعترف أنّ الأمر أربكني. فقد بدأ الصراع بين الرجلين بطريقة لم أفهم منها شيئاً. أنا الذي شهد أوّل لقاءٍ بين لوبين وهولز في مقهى «محطة الشمال»، لم أستطع أن أنسى ذلك السلوك المتعالي الذي أبداه الخصمان، وصدمة كبريائهما الرهيبة تحت مظهر التهذيب في حركاتهما، وعنف الضربات المتبادلة التي كانا يتبادلانها في النوايا، ومبلغ الخداع والغطرسة.

لم ألحظ شيئاً من كل هذا في لقائه بوترولیه. إذ لم يتبدّل شيء من طباع لوبين. أساليبه هي نفسها وكذلك دماثته الساخرة. ولكن من هذا الخصم الغريب الماثل أمامه؟ وهل هو خصمٌ حقاً؟ الحق يُقال أنّ لا مظهر الشاب ولا لهجته تدلّان على كفايته كخصم. إنه هادىء جدّاً، لكنّه الهدوء الحقيقي الذي لا يُخفي اندفاعة رجلٍ قادرٍ على تمالك نفسه، مهذّب جدّاً ولكن دون إفراط، بشوش ولكن دون استهزاء؛ فقد بدا لي النقيض المثالي لصورة أرسين لوبين، نقيضه التام، حتّى أني حسبتُ أنّ لوبين نفسه يشعر بمثل الارتباك الذي أصابني.

لا، بالتأكيد، لم يكن لوبين حيال هذا المراهق النحيل ذي الوجنتين الأنثويتين المتوردتين وذي العينين الساذجتين

الساحرتين، لا، لم يكن لوبين مالكاً لرباطة جأشه المعهودة، فقد لاحظت مراراً بعض معالم الضيق على وجهه. كان متردّداً ولا يبادر إلى الهجوم الصريح، ويهدر الوقت في إطلاق عبارات اللطف والمراوغة.

كان يتصرّف كمن ينقصه شيء ما. كمن يبحث عن شيء، كمن ينتظر. ماذا؟ أيّ عون؟

قرع الباب مجدّداً فنهض مسرعاً ليفتح.

ثمّ عاد وفي يده رسالة.

ـ «أتسمحان لي؟» سألنا.

وفتح المغلّف الذي يحتوي على برقية. وقرأها.

وفجأة بدا وكأنّه تبدّل كليّاً. بشّ وجهه وانتصبت قامته ورأيت عروق جبينه تنتفخ. وعندئذٍ فقط استعاد صورة المصارع التي أعرفها، صورة صاحب الغلبة، الواثق من نفسه والذي يتحكم بمجريات الأحداث ويسيطر على الآخرين. بسط البرقية على الطاولة، وضرب فوقها بجماع قبضته صارخاً:

ـ «والآن، يا سيّد بوتروليه، بامكاننا أن نبدأ!».

اتخذ بوتروليه وضعية مَن يصغي بانتباه، وراح لوبين يتكلم بنبرة حذرة لكنّها جافة ومطواعة:

ـ «لنسقط الأقنعة، أليس كذلك، ولنكفّ عن الترّهات الخبيثة. نحن لسنا سوى عدوّين وكلّ واحد منا يعرف جيداً كيف يجابه الآخر، والسلوك الذي يسلكه واحدنا هو سلوك عدو حيال عدوّه،

ولذلك ينبغي أن تكون المساومة بيننا مساومة عدوّين.

ـ مساومة؟ قال بوترولِيه مُتعجباً.

ـ أجل، مساومة. وأقصد ما أقول. وأكرّر القول: مساومة، مهما كلّفني الأمر. والكلفة باهظة عليّ. إنها المرّة الأولى التي استخدم فيها مثل هذه العبارة حيال خصم. ولكن أودّ أن أقول لك أيضاً، وعلى الفور، أنها ستكون المرّة الأخيرة. فانتهز الفرصة. لن أغادر هذا المكان قبل أن تقطع لي وعداً. وإلاّ فبيننا الحرب».

بدا بوترولِيه لدى سماعه هذا الكلام أشدّ ذهولاً مما كان عليه. فقال بلطف:

ـ «لم أتوقّع أن أسمع مثل هذا الكلام... إذ أجد كلامك غريباً بعض الشيء! ويختلف كلّ الإختلاف عمّا كنت أتوقعه!... بلى، كنتُ أحفظ في مخيّلتي صورة مختلفة عنك.. لماذا الغضب؟ والتهديد؟ أنحن عدوّان حقاً لأنّ الظروف تضع واحدنا في وجه الآخر؟ عدوّان... لماذا؟».

بدا لوبين مضطرباً قليلاً، ولكنّه انحنى على الشاب وأجاب بنبرة هازئة:

ـ «اسمع جيّداً يا صغيري، ليست المسألة هنا مسألة اختيار العبارات الملائمة. إنه واقع، واقع مؤكد لا يرقى إليه الشك. والواقع يقول ما يلي: منذ عشر سنوات لم أواجه خصماً بمثل قوّتك. ففي مواجهة غانيمار أو شرلوك هولز، كنتُ كمن يلاعب أحداثاً. أمّا في صراعي ضدّك أنت، فأنا مرغمٌ على الدفاع عن نفسي، لا بل أقول: مرغمٌ على التراجع. أجل، حتّى الآن، كلانا يعلم علمَ اليقين أن في الصراع الذي خضته ضدّك ينبغي أن أعتبر نفسي الطرف الخاسر.

إيـزيـدور بوتـروليـه ينتصر على أرسـين لوبين. لقد أفسدت كلّ مخـططاتي. وما سعيتُ جاهداً لأن أبقيه طيّ الغموض والكتمان استطعت، أنت، أن تكشف سرّه وأن تفسّره. أنت تزعجني، وتقطع عليّ طريقي. والآن، طفـح بي الكيـل... لقد حاول بريدو إقناعك بالأمر عبثاً. أما أنا فأكرّر القول، بإصرار، على أن يؤخذ كلامي بعين الاعتبار. لقد طفح بي الكيل».

هزّ بوترولیه رأسه.

ـ «ولكن في خاتمة المطاف ماذا تريد؟

ـ السِلْم! كلّ طرفٍ يلزم حدود ما يعنيه، حدود نطاقه.

ـ هذا يعني أن تكون أنت طليق اليد في تنفيذ سرقاتك كما يحلو لك، أمّا أنا فحرّيتي تتمثل في استئناف دراستي.

ـ استئنـاف دراستـك... أو استئناف ما تشاء... إنه أمر لا يعنيني... ولكن شريطة أن تدعني وشأني... أريد السِلْم...

ـ وكيف لي أن أهدّد سِلْمك المنشود، في الوقت الحاضر؟».

ضغط لوبين على يده بعنف:

ـ «أنت تعلم جيّداً. إذ تملك الآن وثيقة سرّية أعلق عليها أهمية بالغة. ولك مطلق الحقّ في فك رموز هذا السرّ وأنت قادر على ذلك، ولكن لا يحقّ لك بأي حال أن تجعله علنياً.

ـ وهل أنت واثق من أنني عرفت السرّ؟

ـ لقد عرفته، أنا واثق من ذلك: لقد كنت أتتبع مراحل تحليلك وما تنجزه تحريّاتك من تقدّم، يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة. ففي اللحـظة التي تلقيت فيها طعنة بريدو، كنت تهمّ بالإدلاء بكلّ ما

تعرفه. إلّا أنّك وافقت على تأجيل إفادتك خوفاً من التهديد الذي تلقيتـه بشـأن أبيـك. وإذا بك اليـوم وقد أدليت بها الى إحدى الصحف، إلى هذه الصحيفـة. والمقالة جاهزة ماثلة للطبع. وغداً ستصدر على الصفحة الأولى.

ـ هذا صحيـح».

فنهض لوبين وبدرت منه حركة بادية العنف:

ـ «المقالة لن تُنشر، صرخ قائلاً.

ـ بل ستنشر»، قال بوترولية وقد انتصب واقفاً.

أصبـح الرجلان أخيراً في وضعية المجابهة. وأحسستُ برضة ارتطام كأنهما التحما في منازلة. كان بوترولية يبدو وكأنّه استعاد جذوة الحماس بطاقةٍ غريبة، أو كأنّ شرارة ما أشعلت في أعماقه انفعالات جديدة، الجرأة، الكبرياء، حميّا الصراع، أو ربّما ثمالة الخطر.

أما لوبين، قد كنتُ ألمح في توقد نظراته بهجة المبارز الذي يجبه أخيراً سيف خصمه اللدود.

ـ «هل أعطيتهم المقالة؟

ـ لا، ليس بعـد.

ـ أهي في حوزتك الآن.. هنا؟

ـ لستُ على هذه الدرجـة من الغبـاء! لو كنت أحملهـا الآن، لانتزعتها منّي.

ـ إذاً؟

ـ لقد أعطيتها لأحد المحرّرين في مغلّف مختوم.. وإذا لم أعد الى الصحيفة عند منتصف الليل سيدفعها الى المطبعة.

ـ آه! الحقير، غمغم لوبين، لقد احتاط لكل طارىء».

كان غضبه يحتدمُ، ظاهراً بوضوح، ورهيباً.

كان بوتروليه يتابع كلامه، ساخراً بدوره، مبتهجاً للنصر الذي حققه.

ـ «ولكن أصمت أيّها الصبيّ، صرخ لوبين مغيظاً، ألا تعرف من أكون؟ وأنني لو أردتُ لـ... بحقّ السماء، هذا الصبي يجرؤ على الضحك!».

ثمّ ران صمت عميق بينهما، ثم دنا منه لوبين وبصوتٍ خفيض قال له وعيناه تحدقان في عيني بوتروليه:

ـ «ستهرع راكضاً الى «لو غران جورنال».

ـ لا، لـن أفعـل.

ـ وستمزق المقالـة.

ـ لا، لـن أفعـل.

ـ وستطلب مقابلة رئيس التحرير.

ـ لا.

ـ وستقول له إنّك أخطأت.

ـ لا.

ـ وستكتب مقالة أخرى تضمّنها تفاصيل الرواية الرسمية حول قضية أمبروميزي، وهي الرواية التي صدّقها الجميع.

ـ لا».

خطف لوبين المسطرة الحديد الموضوعة على مكتبي وكسرها بين يديه دون جهد يذكر. كان شحوبه مُخيفاً. ومسح قطرات العرق التي كانت تترقرق فوق جبينه. فهو لم يُجبه يوماً بمقاومة عنيدة كتلك التي يبديها الصبيّ، ولذلك تراه فاقداً صوابه.

ضغط براحتيه على كتفي بوتروليه وقال بلهجة آمرة:

ـ «ستنفذ كلّ ما قلته لك، يا بوتروليه، وستقول إنّ آخر تحريّاتك قد أقنعتك بصحة الدلائل على موتي وأنّ هذا الأمر لا يرقى إليه أدنى شك. وستقول ذلك لأنني أريدك أن تقوله، ولأنّه ينبغي أن يصدّق الجميع خدعة موتي. ستؤكّد ذلك لأنّك إن لم تفعل...

ـ لأني إن لم أفعل؟

ـ سيتم خطف والدك، كما تمّ اختطاف غانيمار وشرلوك هولمز».

ابتسم بوتروليه.

ـ «لا تبتسم... أجب.

ـ أُجيبُ بأني آسف جداً لاغضابك، ولكني قطعت وعداً بأنني سأتكلم، وسأفعل.

ـ تكلّم ولكنْ حسب التعليمات التي تلقيتها مني.

ـ سأتكلم كما تقتضي الحقيقة أن أتكلم. قال بوتروليه بحدّة. فمن هو مثلك لا يسعه أن يُدرك لذة، لا بل حاجة، أن يقول المرء ما ينبغي أن يُقال وبأعلى صوت. الحقيقة موجودة هنا، في دماغ مكتشفها، وستخرج منه عارية حيّة. لذلك ستنشر المقالة كما

كتبتها. وسيعلم الجميع أن لوبين لا يزال على قيد الحياة، وسيعلم الجميع لماذا أراد أن يظنّ الناس أنّه ميت. سأقول كلّ شيء».

وبهدوء بالغ أردف قائلاً:

- «ولن ينجح أحد في اختطاف أبي».

ثمّ لزما الصمت، كلاهما، نظراتهما ثابتة لا تحيد. كان واحدهما يراقب ردود فعل الآخر. وقد جرّد سيف المبارزة لا يُردُّ إلى الغمد. وكان ذلك أشبه بالصمت الثقيل الذي يسبق الطعنة القاتلة. فمن سيكون الطاعن؟

تمتم لوبين:

- «هذه الليلة، عند الثالثة فجراً، سيعمد اثنان من رجالي، إن لم يتلقيا أمراً مضاداً مني، إلى الدخول الى غرفة والدك، واقتياده، حسب أوامري التي أعطيت لهما، طوعاً أو غصباً، ثمّ احتجازه الى جانب غانيمار وشرلوك هولمز».

فأجابه بوتروليه بنوبة ضحك مدويّة:

- «ولكن ألم تدرك بعد، أيها اللص، أنني اتخذت كل الاحتياطات اللازمة؟ أوتحسبني ساذجاً إلى هذا الحدّ، فأعمد، بكلّ غباء وحماقة، إلى إرسال والدي مجدّداً الى بيته المعزول في أقصى الريف؟».

آه! تلك الضحكة الهازئة التي أضفت حياةً على وجه إيزيدور! ضحكة فتية على شفتيه، ضحكة تحمل كلّ ملامح لوبين وأسلوبه... ثمّ هذا التخاطب المباشر الوقح الذي يضعه، لأوّل مرّة، في صفّ خصمه ومستواه!... وأردف قائلاً:

ـ «أوتدري يا لوبين انّ نقيصتك الكبرى تكمن في اعتقادك بأنّ كلَّ أحابيلك لا تخطىء. تعلن أنّك مغلوب! يا للدعابة! وفي أعماقك القناعة التامّة بأنّك ستكون المنتصر دائماً في آخر المطاف... وتنسى دائماً أن للآخرين أيضاً أحابيلهم وشراكهم. والشرك الذي نصبته لك شديد البساطة يا صديقي».

كان سماعه ممتعاً وهو يذرع أرض الحجرة جيئةً وذهاباً وقد دسّ يديه في جيبي بنطاله، بعناد وبنزق صبيّ يتلذّذ بتعذيب الحيوان المفترس المكبّل. والحقّ يُقال أنّه كان في تلك الساعة بالذات يثأر، وأيّما ثأر، لكل ضحايا المغامر الشهير. ثمّ خلص الى القول:

ـ «يا لوبين، أبي ليس في «السافوا»، إنّه في الطرف المقابل من فرنسا، في وسط مدينة، وتحت حراسة عشرين رجلاً من جماعتنا الذين تلقّوا الأمر بالسهر على سلامته حتّى نهاية معركتنا. أترغب في سماع المزيد من التفاصيل؟ إنه في «شربورغ»، في منزل أحد مستخدمي الترسانة ـ والترسانة تقفل في الليل ولا يسمح لأحد بدخولها إلاّ مزوّداً بتصريحٍ خاص ومصحوباً بمرشد».

كان قد وقف قبالة لوبين يناكفه كما يناكفُ الولدُ رفيقاً له.

ـ «فما رأيك، أيها المعلّم؟».

كان لوبين قد مكث صامتاً بلا حراك منذ بعض الوقت. لم تغمز عضلة واحدة من عضلات وجهه. فما رأيه؟ وماذا تراه يفعل؟ كان ردّ الفعل الممكن والوحيد لمن يعرف جيّداً عنف كبريائه: الانهيار التام والفوري والنهائي لعدوّه. تصلبت أصابعه. وتراءى لي للحظات أنّه سينقضُ عليه لخنقه.

ـ «ما رأيك، أيّها المعلّم؟» ردّد بوترولیه قائلاً.

تناول لوبين البرقية التي تركها على الطاولة وأعطاها لإيزيدور، وقال بكلّ الهدوء الممكن:

ـ «هاكَ، أيّها الرضيع، اقرأ هذه».

لم يلبث بوترولیه أن استعاد سحنته الرصينة المقطبة إذ أذهلته رقّة الحركة والنبرة. ففتح الورقة، وسرعان ما تمتم رافعاً عينيه نحوه:

ـ «ماذا يعني؟... لا أفهم شيئاً...

ـ ولكن لا بدّ أنّك أدركت معنى الكلمة الأولى في البرقية، قال لوبين، الكلمة الأولى التي تشير الى المكان الذي أرسلت منه... أنظر جيّداً: **شربورغ**.

ـ أجل.. أجل.. أجاب بوترولیه متلعثماً... أجل.. **شربورغ**... وما القصد من ذلك؟

ـ القصد؟... أحسب أن التتمة ليست أقلّ وضوحاً: «**اختطاف الطرد تمّ... اصطحبه الرفاق وفي انتظار التعليمات حتّى الثامنة صباحاً. كل شيء على ما يرام**». ما الذي بدا لك غامضاً في هذه البرقية؟ كلمة «طرد»؟ آه! لم يكن مستحباً أن نستبدلها بعبارة: **السيد بوتروليه الأب**. إذاً، ماذا؟ الطريقة التي نفّذت بها العملية؟ المعجزة التي ساعدت على انتزاع والدك من ترسانة شربورغ برغم وجود عشرين حارساً؟ آه! إنها طفولة! والمهمّ أن الطرد قد أُرسل. فما رأيك أنت، يا طفلي العزيز؟».

حاول إيزيدور بكلّ ما أوتي من جهد واعصاب وقوّة ان يُحافظ

على مظهر الهدوء. إلّا أن رعشةً سرت في شفتيه وانقبضت عضلات فكّيه وزاغت عيناه برغم الجهد الذي بذله لتثبيت نظراته في نقطة ما. تأتأ بضع كلمات وسكت، وفجأةً تهالك على الكرسي وقد غطّى وجهه براحتيه وراح ينتحب:

ـ «أوه! أبي... أبي...».

خاتمة غير متوقّعة إلا أنّها تعبّر عن الانهيار التام الذي ترتضيه كبرياء لؤبين ثأراً، ولكن في الوقت نفسه، كانت خاتمةً من نوعٍ مختلف وحّد اختلافها أنها مؤثرة على سذاجتها البالغة. أبدى لوبين بعض الانزعاج وتناول قبّعته، كأنّه بذلك يعبّر عن ضيقه حيال تلك النوبة المباغتة من الافراط العاطفي. ولكن ما أن وصل الى الباب حتى توقف برهة، حائراً، ثمّ لم يلبث أن عاد أدراجه بخطواتٍ متمهلة، بطيئة.

كان صوت النحيب الخافت يُسمع كأنّه أنين طفل صغير يبرّحه الشجن. كانت الكتفان تهتزّان على وتائر النحيب وتنسربُ الدموع بين الأصابع المتشابكة. انحنى لوبين ودون أن يلمس بوترولية، وقال له دون أن يشوب نبرته أي أثر للسخرية أو لتلك الشفقة المهينة التي تلازم نبرة المنتصرين:

ـ «لا تبك، يا صغيري. يجب أن يتوقّع المرء مثل هذه الضربات عندما يخوضُ حرباً غير متكافئة، كما فعلت أنت. إنّ البليّات الأعظم تحدق بك... إنه قدر المُقاتلين، وهذا ما يشاء. يجب أن تتلقى الضربة برباطة جأش».

ثمّ بنبرةٍ رقيقة أردف قائلاً:

ـ «لقد كنت محقاً، كما ترى، نحن لسنا بعدوّين. لقد أدركت ذلك منـذ وقت طويـل... فقد شعرتُ، منذ البداية، ودون قصدٍ مني، بتعاطفٍ كبير حيال شخص من طينتك، وحيال الكائن المتوقد الذكاء الذي أراه فيك... عطف.. وإعجاب.. ولهذا السبب أريد أن أسرّ إليك بأمر ما... لا تخرج من المعركة مُهاناً... فسيؤلمني أن أهينك.. ينبغي أن أعترف لك بذلك.. إذاً! كُفّ عن صراعك ضدّي... وليس لأني أكنّ لك احتقاراً ما... ولكن، كما ترى، المعركة غير متكافئة... وأنت لا تعـرف... ولا أحـد سواك يعرف كل مصادر القوة التي أمتلكها. خذ مثلاً لغز «المسلة الجوفاء» الذي تسعى لفك رموزه، واعترف للحظة أنه كنز رائع لا ينضب... أو ربّما ملاذ غير مرئي، معجزٌ وشديد الغرابة... أو قل إنه كِلا الاحتمالين معاً... وتخيل تلك القدرة التي تفوق قدرات البشر والتي قد استقيها منه! كما أنك لا تعـرف كلّ القـدرات التي امتلكهـا... وكـلّ ما تتيحه لي إرادتي ومخيّلتي من انجـازات لا تخفق. وفكّـر جيّـداً أن حيـاتي كلّهـا ـ وأستـطيع أن أقول: منذ ولادتي ـ مشدودة نحو هدفٍ واحد، هدف كابـدت الأمـرّين لبلوغـه قبل أن أصبح ما أنا عليه الآن، ولتحقيق المواصفات الكاملة والمثالية للكائن الذي أردت أن أكوّنه فيّ والذي أفلحت في خلقـه. في مثل هذه الحال... ماذا يسعك أن تفعـل؟ ستـرى لحـظة توهّمك الانتصار عليّ، أن انتصارك هذا يتلاشى... وسيكون هنالك دائماً ما أغفلته.. تفصيل دقيق.. حبة الرمل التي أستطيع، أنا، أن أضعها في الموضع الصحيح، وفي غفلة منك... أرجوك، كفّ عن عنادك... وإلاّ أصبحت مُرغماً على إيذائك، وهو أمرٌ يؤلمني...».

وإذ وضع يده على جبينه، ردّد قائلاً:

ـ «مرّة أخرى، يا صغيري، أقول لك كُفّ عن عنادك. وإلاّ فقد يناك منّي ما يؤذيك. فمن يدري، ربّما كان الفخّ الذي سيوقع بك حتماً قد أصبح مُعدّاً تحت قدميك؟».

رفع بوترولية رأسه. كان قد كفّ عن البكاء، ولكن هل أصغى لأقوال لوبين؟ بدا شاردَ الذهن ساهماً كأنّه لم يسمع كلمة واحدة. ومكث صامتاً لدقيقتين أو ثلاث كأنّه يدرس القرار الذي سيتخذه، يدقّق في سلبيّاتــه وإيجابياته، ويعدّد المكاسب أو الأضرار التي ستنجم عنه. وفي آخر الأمر، قال مخاطباً لوبين:

ـ «إذا بدّلت مضمــون مقــالتي على النحو الذي يؤكد حادثة موتك، وإذا قطعت لك وعداً بأنني لن أعمد، ذات يوم، إلى تكذيب الرواية المغلوطة التي سأدعم وقائعها المزعومة بأقوالي، فهل تقسم بأنك ستطلق سراح والدي؟

ـ أقسم لك. لقد انتقل أصدقائي بالسيّارة، برفقة والدك، إلى مدينـة أخـرى من المنـاطق الريفية. وغداً صباحاً عند السابعة بالضبط، إذا وجدت مقالة «لو غران جورنال» كما أريد، فسأتصل بهم هاتفياً فيطلقون سراح والدك.

ـ ليكن، قال بوترولية، أوافق على شروطك كلّها».

ثمّ نهض على الفور كأنّه ارتأى، بعد اعترافه بالهزيمة، أنّ لا فائدة من إطالة المحادثة، وأخذ قبعته وحيّاني ثم حيّا لوبين وغادر.

رآه لوبين مغادراً ثمّ سمع جلبة الباب الذي يُغلق وتمتم:

ـ «إنّه صبيّ مسكين...».

في اليوم التالي، عند الثامنة صباحاً أرسلت الخادم ليحضر لي

نسخةً من «لو غران جورنال». ولم يأتِ به إلّا بعد انقضاء عشرين دقيقة، إذ وجد أن نسخ الصحيفة قد نفدت من معظم الأكشاك فور وصولها.

فتحت الصحيفـة على عجل. فوجدتُ مقالة بوترولِيه في صدر الصفحة الأولى. وهذا نصّ المقالة كما أعادت نشره كلّ صحف العالم:-

حادثة أمبروميزي

ليس الغرض المرجو من هذه السطور تقديم شرح مفصّل للجهد الفكري والأبحاث التي استطعت بفضلها أن أعيد تركيب وقائع حادثة أمبروميزي، لا بل حادثة أمبروميزي المزدوجة. فأنا أزعم أن هذا النـوع من العمـل والتعليقـات التي يتضمنهـا، الاستنباط والاستـدلال والتحـاليـل... إلخ، لا يكتسب سوى أهمية نسبية وعـاديـة جدّاً بأيـة حال، لا، فسوف اقصر كلامي هنا على شرح الفكرتين الرئيستين اللتين قادتا أبحاثي وجهودي، وانطلاقاً منهما سيتضح في ما بعد أن التوصل إلى حلّ المسألتين اللتين تفترضـهما الفكرتان فأكون قد رويت تفاصيل هذه القضيّة على النحو الأبسط ووفق تسلسل الوقائع التي رافقتها.

وسيلاحظ القارىء ربّما أنّ بعض هذه الوقائع لا تقترن بأدلّة تؤكّـدها وأني أفرد هامشاً لا بأس به للإفتراض. وهذا صحيح. ولكن أحسب أن الفرضيّة التي انطلقت منها تقوم على عددٍ لا بأس به من الوقائع المثبتة بحيث تصبح التتمة المفترضة، وإن من دون إثبـات، أقرب الى يقين لا يُردُّ. إذ غالباً ما يختفي الينبوع تحت مجراه المغطّى بالحصى، إلّا أن هذا لا يُلغي حقيقة أنّ ما يلوحُ في

الفسحات المتباعدة تحت زرقة السماء ليس سوى الينبوع نفسه...

أبدأ إذاً بأوّل لغز، وهو ليس اللغز الذي يتناول التفصيل، بل اللغز الشامل الذي لفتني: فكيف يُعقل أن يستطيع لوبين، برغم إصابته القاتلة، البقاء على قيد الحياة مدّة أربعين يوماً، بلا عناية أو أدوية أو طعام، في قعر تلك الحفرة المعتمة؟

لنذكر الوقائع منذ البداية. الخميس ٢٣ نيسان/أبريل وعند الرابعة فجراً، بوغت أرسين لوبين أثناء تنفيذه إحدى أجرأ عملياته. وحاول الفرار عبر الخرائب ولكنّه أصيب برصاصة. فحاول الزحف ونهض ثمّ سقط مجدّداً ولكنه واصل الزحف على أمل الوصول الى الكنيسة. وهناك يوجد المدفن الذي اكتشفه بمحض المصادفة. فإذا نجح في الاختباء فيه، ربّما كتبت له النجاة، فاستنفد كلّ ما تبقى له من قوّة للاقتراب منه، وما أن أصبح على بعد أمتار من المدخل سمع وقع أقدام. فلم يكن أمامه إلّا الاستسلام في انتظار ما سيحدث لشدّة إعيائه. وصل العدو وكانت الآنسة ريموند دو سان فيران. تلك كانت افتتاحية المأساة أو بالأحرى المشهد الأوّل منها.

ماذا جرى بينهما؟ يسهل أن نخمّن الآن ما جرى بعدما وفّرت لنا تتمة المغامرة كلّ الدلائل الضرورية. وجدت الفتاة رجلاً جريحاً ممدّداً عند قدميها، وقد أنهكته الأوجاع وسيتمّ القبض عليه في غضون دقيقتين أو ثلاث. وهي التي أطلقت عليه الرصاص وأصابته. فهل تسلّمه إلى رجال الشرطة؟

لو كان هو قاتل جان دافال لما تردّدت لحظة واحدة في أن ينال

المصير الذي يستحقّه ولكنّ الجريح يطلعها بعبارات مختصرة على حقيقة ما حدث وأدى الى وقوع تلك الجريمة المشروعة على يد عمّها السيّد دو جيفر. فتصدق روايته. فماذا تفعل إذاً؟ لا أحد يراهما. فالخادم فيكتور يراقب الباب الصغير، والآخر، ألبير، مكث قرب نافذة الصالة، وكلاهما ما عادا يريان ماذا يحدث هناك. فهل تسلّم الرجل الذي أصابته بجروح؟

انتابت الفتاة مشاعر شفقة تدركها النساء جيّداً فلم تقاومها. فعمدت بحركات سريعة وحسب ارشادات لوبين، إلى تضميد الجرح بمنديل تجنباً لأي أثر قد يتركه النزيف على الأرض. ثمّ يعطيها مفتاحاً فتستخدمه لفتح باب الكنيسة. وتعينه الفتاة على الدخول إليها ثمّ توصد الباب وتبتعد. عندئذ يصل ألبير.

لو تمّ تفتيش الكنيسة في تلك اللحظة، أو على الأقل خلال الدقائق التي تلتها لكان تمّ القبض على لوبين لأنه ما كان ليستطيع في مدّة قصيرة من الزمن أن يرفع البلاطة التي تحجب مدخل المدفن نظراً لحالة الانهاك التي كان يعانيها... إلاّ أن عملية التفتيش لم تتمّ إلا بعد مضي ست ساعات، ولم يكن تفتيشاً دقيقاً ومتأنياً. وهكذا نجا لوبين ومن أنقذه؟ أنقذته الفتاة التي كادت أن تقتله.

وهكذا أصبحت الآنسة دو سان فيران، شاءت ذلك أم أبت، شريكة له. وأصبحت غير قادرة على مجرّد التفكير بتسليمه، وكان عليها أيضاً أن تتابع ما بدأته وإلاّ مات الجريح في الملاذ الذي ساعدت على إخفائه فيه. وهذا ما فعلته بالفعل... فإذا كان حدسها كامرأة قد دفعها إلى اتمام هذه المهمة على أنها واجب، فإنّ هذا الحدس نفسه قد سهّل لها طريقة التنفيذ. فهي فتاة لا تعوزها

النبـاهــة اللازمة، وتحتاط لكل شيء. فتعمد إلى الإدلاء بأوصاف خاطئة لأرسين لوبين (فلنتذكر هنا التناقض الواضح في إفادة كلٍّ من الفتـاتـين بهذا الشأن). وهي التي ستكتشف هوية السائق المزعوم، شريك لوبين، انطلاقاً من بعض المؤشرات التي أجهلها. وهي التي تشير عليه بضرورة إجراء جراحة عاجلة. ومما لا شك فيه أنها هي التي تستبدل القبعة بأخرى. وتكتب ذلك التهديد الذي يستهدفها شخصياً ـ فكيف يمكن بعد ذلك أن تكون موضع شبهات؟

وهي التي سارعت لحظة شروعي بالإدلاء ببعض استنتاجاتي الأولية على مسمع قاضي التحقيق، إلى الزعم بأنها شاهدتني مساء اليـوم السـابق في غابـة الأشجار المقطوعة، ودفعت السيّد فيّول للارتياب بأمري وإسكاتي. وكانت مناورتها تلك بالغة الخطورة، من دون شك، لأنها ستؤدي الى إثارة شكوكي حولها إذ أجدني متهماً بتهمـةٍ باطلة، إلّا أنها مناورة ناجحة لأنّ الغرض منها لا يتعدّى كسب الوقت وإسكـاتي. وكـانت هي التي تأتي للوبـين بالطعام والعقاقير طوال أربعين يوماً (وليُسأل صيدليّ أوفيل بهذا الشأن، فسيـؤكـد أنه سلّم كمية من العقاقير والأدوية بطلب من الآنسة دو سان فيران)، وأخيراً هي التي اعتنت بالمريض وضمّدت جراحه وسهرت عليه، حتى تماثل للشفاء.

وهكذا نكون وجدنا حلّ أولى المسألتين وفي الوقت نفسه نكون قد عرضنا وقائع الحادثة. فقد وجد أرسين لوبين بقربه، ومن بين أهل القصر بالذات، من يمدّه بالعون الضروري لكي يمكث متوارياً عن الأنظار، أوّلاً، وثانياً لكي يظلّ على قيد الحياة.

والآن، إنه حيّ يرزق. وانطلاقاً ممّا سبق طرحت المسألة الثانية التي قادني التحرّي بشأنها إلى الإمساك بطرف خيط والتي ترتبط بحادثة أمبروميزي الثانية. إذ ما الذي يدفع لوبين، الحيّ، الطليق، والذي عاد مجدّداً إلى تزعّم عصابته مُستعيداً كلّ نفوذه وسطوته، ما الذي يدفعه الى بذل هذه الجهود الحثيثة المستميتة، التي غالباً ما اصطدم بها، لإقناع العدالة والراي العام بفكرة موته؟

يجب أن نذكّر هنا بأنّ الآنسة دو سان فيران فتاة جميلة جداً. ولا تُظهر الصور التي نشرتها لها الصحف بعد اختفائها إلّا فكرة مشوّهة عن جمالها. ولذلك حدث ما كان لا بدّ من حدوثه. لقد مكث لوبين طوال أربعين يوماً، يرى تلك الفتاة الجميلة كلّ يوم ويتحرّق شوقاً إليها حين تغيب عنه، مكث أربعين يوماً مفتوناً بسحرها ورونقها، يتنسّم، كلّما انحنت عليه عطر أنفاسها العذب، فما كان منه إلّا أن تولّه حباً بها. فقد استحال عرفان الجميل حباً، والإعجابُ شغفاً. إنها الخلاص ولكنّها أيضاً بهجة أنظاره وحلم ساعات عزلته وصفاء سريرته ورجاء حياته، لا بل حياته بالذات.

كان احترامه لها يفرض عليه ألّا يستغل إخلاص الفتاة أو أن يتوسل خدماتها للإتصال بشركائه. وبالفعل كانت العصابة تعاني في ذلك الوقت من بعض الخلل في تنظيم عملها. ولكنه يحبها أيضاً، فلا يشغل نفسه كثيراً بالوساوس التي تنتابه وبما أن الآنسة دو سان فيران لم تستجب إلى حبّ يُهينها، وبما أنها راحت تقلّل من وتائر تردّدها عليه حين بدا أن حضورها الدائم إلى جانبه لم يعد ضرورياً، وبما أنّها كفّت عن المجيء نهائياً عندما تماثل للشفاء... اتخذ لوبين، المعذّب اليائس، قراراً رهيباً. فيغادر مخبأه ويخطط

لعمليته ويوم السبت ٦ حزيران/يونيو ينفذ عملية اختطاف الفتاة بمساعدة رفاقه.

ولم ينته الأمر عند هذا الحدّ. إذ ينبغي عليه أن يموّه وقائع عملية الاختطاف، لكي يقطع الطريق سلفاً على أية محاولة للبحث عنها أو أية توقّعات وآمال غير محسوبة: ولذلك يجب أن يبدو الأمر وكأنّ الآنسة دو سان فيران قد قتلت بعد اختطافها. ولهذا الغرض تمّ افتعال جريمة قتل مزعومة مصحوبة بالأدلة الكافية لإثابتها لدى التحقيقات. فوقوع الجريمة مؤكد. فهناك تهديدات سابقة بهذا المعنى، فالمفترض أن شركاء لوبين قد هدّدوا الآنسة بالقتل ثأراً لمقتل رئيسهم، وبهذه الطريقة ـ وهنا تبدو عبقرية المخطط والتخطيط ـ إذا جازت لي العبارة، يكون الجناة قد ساهموا في تزكية القناعة بأن لوبين قد مات.

إلا أن مجرّد دفع الناس الى الاعتقاد لا يكفي بحدّ ذاته، فالحاسمُ في مثل هذه الحال هو الدليل القاطع الذي يولّد اليقين. لقد توقّع لوبين أن أساعد الشرطة بتحريّاتي. كما توقّع اكتشافي لموجودات الكنيسة المزيّفة، والمدفن. وبما أننا لن نعثر على الجثة في المدفن فسينهار عندئذ كلّ ما خطط له.

لذلك سيُعثر على جثة في المدفن. وكذلك الأمر لن يكون إثبات وفاة الآنسة دو سان فيران نهائياً وحاسماً إلّا إذا لفظ البحر جثتها.

لذلك سيلفظ البحر جثة الآنسة دو سان فيران!

الصعوبة هنا بالغة، أليس كذلك؟ ودون تذليل العقبتين ما يشبه الاستحالة؟ بلى، للاستحالة معنى ما إذا كان المعني بها شخص

آخر غير لوبين، أما لوبين فالاستحالة ليست في قاموسه...

وكما توقّع تماماً، اكتشف تزييف الكنيسة، والمدفن وأنزل الى الجحر الذي لاذ به لوبين. وأجد جثته!

مثـل هذه الخدعة قد تضلّل كلّ من صدّق احتمال أن يكون لوبين ميتاً. أما أنا فلم أصدّق لحظة واحدة أنه ميت (بالحدس أوّلاً، ثمّ بالإستـدلال البرهاني). وعندئذ أصبحت الخدعة غير مجدية وكذلك كلّ الأحابيل التي رافقتها. وسرعان ما تنبّهت الى أن الكتلة الحجرية التي انهارت بضربة معول قد وضعت هناك بدقة متناهية بحيث أنهـا يمكن أن تنهـار بفعـل أية صدمة وأنها في انهيارها ستسحق رأس لوبين المزيّف فيتعذّر التعرّف إلى صاحب الجثة الحقيقي.

ثمّ اكتشاف آخر. بعد مضي نصف ساعة يبلغني خبر العثور على جثـة الآنسة دو سان فيران فوق صخور «دييب»... أو بالأحرى خبر العثور على جثة يشتبه بأنها جثة الآنسة دو سان فيران لأنها تحمل في أحد معصميها سلسلة شبيهة بالحلية التي ترتديها عادة الفتاة الشابة. والحقيقة أنها القرينة الوحيدة التي دلّت على هويّة صاحبتها لأنّ الجثة كانت مشوّهة تماماً.

حول هذه النقطة أذكر جيّداً وأفهم. فقبل ذلك التاريخ ببضعة أيام كنت قرأت في أحد أعداد صحيفة «لا فيجي دو دييب»، أن زوجين أميركيين شابين انتحرا بالسمّ خلال إقامتهما في «أنفرمو» وأنّ جثتيهما قد فقدتا ليلة وفاتهما بالذات. فهرعت إلى «أنفرمو».. فتبـيّن لي أن الخبـر صحيح، على ما قيل لي، باستثناء ما يتعلق باختفـاء الجثتين، لأنّ أشقاء الضحيتين جاؤوا للمطالبة بتسلم

الجثتـين ثمّ عمـدوا إلى نقلهمـا بعد إنجاز المعاملات الروتينية. ولا شك في أن هؤلاء الأشقاء يُدعون أرسين لوبين وشركاه.

واستناداً إلى ما سبق نكون قد أقمنا الدليل على حقيقة ما جرى. إذ أدركنا دافع أرسين لوبين لافتعال جريمة قتل الفتاة المزعومة وتزكية الأنباء حول موته. إنّه عاشق، ولا يريد أن يعرف أحدٌ بذلك. ولكي لا يذاع الخبر لا يتوانى عن أي شيء، لا بل يصل به الأمر الى حدّ ارتكاب عملٍ غريب كسرقة الجثتين لتلعب احداهما دوره وهو ميت في ما تلعب الأخرى دور الآنسة دو سان فيران. وبهذه الطريقة يطمئن فلا يخشى تطفل أحد. إذ ليس في استطاعة أحد أن يرتاب بالحقيقة التي يريد أن يطمسها.

لا أحد؟ بلى... ثمة ثلاثة خصوم قد يرتابون، إذا دعت الحاجة، بشيء ما: غانيمار الذي كان متوقعاً قدومه، وشرلوك هولمز الذي كان يهمّ باجتيـاز المضيق، وأنا الذي كنتُ حاضراً في مكان الجريمة. وهؤلاء يمثلون خطراً مثلثاً. فيزيله. يختطف غانيمار. ثم يختطف شرلوك هولمز. أما أنا فيبعدني بطعنة خنجر من يد بريدو.

لم يبق إلّا نقطة واحدة لا يزال يكتنفها الغموض. لماذا استمات لوبـين في محاولاته لانتزاع وثيقة المسلّة الجوفاء مني؟ وذلك على الرغم من علمه التام أن انتزاعه الوثيقة لن يمحو من ذاكرتي نصّها المؤلف من خمسة أسطر؟ إذاً، لماذا؟ هل كان يخشى أن أستخلص منها أية معلومة إضافية، من نوعِ الورق المستخدم مثلاً أو أية علامة أخرى؟

ومهما يكن من الأمر، هذه كلّ الحقيقة حول قضيّة أمبروميزي. وأكـرّر القول أن الفرضيّة تلعب في التفسير الذي اقترحته، دوراً

معيّناً، كما لعبت دوراً كبيراً في التحريّات التي قمت بها بنفسي. إلّا أن انتظار تكامل الأدلّة والوقائع في مجابهة لوبين لا تكون، في الأغلب، إلا ضرباً من الانتظار الذي قد يدوم إلى الأبد، أو ضرباً من الأدلة التي يخلّفها لوبين عمداً، ومن شأنها أن تُفضي الى نقيض الهدف المنشود.

وأنا لعلى ثقة من أن الوقائع لن تلبث، ما أن تجتمع كاملةً لدينا، أن تؤكد الفرضيّة التي أقترحها حول كافة النقاط.

هكذا إذاً استطاع بوتروليه بعد تجاوزه صدمة اختطاف والده ورضوخه للهزيمة وسيطرة لوبين الكاملة، استطاع بوتروليه في خاتمة المطاف ألّا يرضخ للتهديد ولم يلزم الصمت. فقد كانت الحقيقة أجمل وأغرب من أن يرضخ للرغبة في تزويرها، وكذلك الأدلّة التي ساقها فقد كانت مقنعةً في استنتاجاتها ومنطقية. كان العالم بأسره يتلهف لمعرفة أقواله. فتكلم.

وفي مساء اليوم نفسه كانت الصحف تُعلن عن اختطاف السيد بوتروليه الأب. وتلقّى إيزيدور برقية من شربورغ تؤكّد له هذا النبأ عند الساعة الثالثة.

الفصل الخامس

إقتفاء الأثر

كانت الصدمة عنيفة وقد أذهلت بوترولية. ففي أعماق نفسه، وبرغم استجابته في نشره المقالة، لإحدى تلك الاندفاعات التي لا تقاوم والتي تجعل المرء غير آبه بالمخاطر، لم يكن بوترولية ليصدّق لحظة في أعماقه الدفينة أن اختطاف والده أمر ممكن. لقد اتخذ كافة الاحتياطات الممكنة. ولم يتلقّ أصدقاؤه في شربورغ تعليمات صارمة بحراسة بوترولية الأب وحسب، لا بل كان يتوجّب عليهم أن يراقبوا روحاته وغدواته وأن لا يسمح له بالخروج من مكان إقامته بمفـرده؛ حتّى أنهم تلقوا تعليمات واضحة بأن لا تُنقل إليه أية رسـالة قبـل التثبت مُسبقاً من فحواها. لا، لا، لم يكن هناك أي احتمال لأي خطر. ولوبين، على جاري عادته في استخدام الحيلة، وكسب الوقت إنما كان يسعى لارباك خصمه. لذلك كانت الصدمة مباغتة بعض الشيء، ومكث طيلة نهاره في حالة من الذهول الموجع والعجز. كانت فكرة وحيدة تلحّ عليه: أن يذهب، أن يذهب إلى هناك، ليرى بأمّ عينيه ما الذي جرى بالفعل، ليتسنّى له معاودة الهجوم. أرسل برقية الى شربورغ. ونحو الساعة السادسة وصل الى محطة سان لازار. وبعد ذلك بدقائق معدودة استقل القطار السريع.

وكانت قد انقضت ساعة كاملة على بداية رحلته عندما وقعت

عيناه أثناء تصفحه لإحدى صحف المساء على نص الرسالة التي بعث بها لوبين وضمَّنها رداً غير مباشر على مقالته الصباحية.

السيّد رئيس التحرير

انا لا أزعم على الاطلاق أن شخصي المتواضع الذي ما كان ليظلّ غفلاً بلا ريب في أزمنة تمتاز بقدر أكبر من البطولة، قد اكتسب أهمية ما في زمننا الحاضر، زمن الخمول والسطحية. ولكنّ ثمة حدود لا يخترقها فضول العامة المريض إلّا بقصد التشهير المرذول. وإذا هانَ احترامُ كنفِ الحياة الخاصة، فأين يُصبح ملاذ المواطنين؟

أيكون الدافع تذرّعاً بإعلاءِ الحقيقة؟ بئس الذرائع في ما أرى، ما دامت الحقيقة بيّنة ولا يصعب عليّ أن أدوّن اعترافاً رسمياً بها. بلى، الآنسة دو سان فيران ما زالت على قيد الحياة. وبلى، أنا أحبّها. وبلى، يُضنيني الأسى لأنها لا تبادلني الحب. وبلى، أعترف أن تحريّات بوترولیه الصغير مدهشة لشدّة دقّتها وصحّتها. وبلى، أوافقه الرأي حول كلّ النقاط. لم يعد هناك أي لغز. حسناً، ولكن ماذا بعد؟

إذ أشعر بالإساءة من صميم أعماقي مكابداً ألم الجروح المعنوية الأشدّ قسوةً، أطلبُ أن يكفّ البعض عن التشهير بمشاعري وآمالي الدفينة على الملأ لتكون عرضةً للخبث العام. ما أطلبه هو السِلْم، السلم الذي أحتاجه لكي أستحق مودّة الآنسة دو سان فيران ولكي أمحو من ذاكرتها ألف إهانة صغيرة تلقتها من عمّها ومن ابنة عمّها ـ وهذا ما ظلّ طي الكتمان ـ لأنها اعتبرت دائماً النسيبة المعوزة الفقيرة. ستنسى الآنسة دو سان فيران هذا الماضي البغيض. وكلّ ما يمكن أن تشتهيه، حتّى لو كان أجمل حلية في العالم أو حتى أغلى الكنوز المستحيلة، سأضعه تحت قدميها. ستكون سعيدة. وستحبّني. ولكن لكي يكون لي ذلك وأكرّر مرّة

اخـرى، أحتاج إلى السلم. ولهذا السبب ألقي سلاحي، وأحمل لأعدائي غصن الزيتون ـ كلّ أعدائي ولكن مُحذراً إياهم، وبكلّ نبل، أن أي رفضٍ من قبلهم قد تكون له أوخم العواقب.

كلمـة أخرى بخصوص السيّد هارلنغتون. حامل هذا الاسم فتىً ممتاز، إنه سكرتير الملياردير الأميركي كولي، ومكلّف من قبلِه بالاستيلاء على التحف الفنية القديمة التي يمكن الحصول عليها في أوروبـا. وشـاء سوء الطالع أن يصـادف صديقـه إتيـان دو فودرايكس، أي أرسين لوبين، أي أنا. وهكذا نميَ إليه، وما نمي إليـه مغلوط بالطبع، أن ثمة من يُدعى السيد دو جيفر وان هذا السيّـد يريـد التخلّص من أربـع لوحات لروبنز شريطة أن يتم استبـدالها بنسخ عنها ودون أن يحدِّد السعر الذي يرتضيه في المقـابـل. وبذل صديقي فودرايكس كل ما بوسعه لإقناع السيد دو جيفر ببيع «لا شابيل دو ديو». وتواصلت المفاوضات بكل حسن نيـة من جهة صديقي فودرايكس وببراعة فاتنة من جهة السيد هارلنغتـون، إلى أن تبيّن ذات يوم أن لوحـات روبنـز وحجـارة «لا شابيل دو ديو» المنقوشة قد نقلت الى مكان آمن... وأن السيّد هارلنغتون قد أصبح نزيل السجن. لم يبق إذاً إلاّ ان يتمّ إطلاق سراح الأمـيركي المنكـوب لأنّـه اكتفى بأن يلعب دور المخـدوع، والاسراع بفضح الملياردير كولي لأنّه، خوفاً من اية تبعات ممكنة، لم يعترض على اعتقال سكرتيره، والتقدّم بأحرّ التهاني لصديقي إتيان دو فودرايكس، أي أنا، لانه يثأر للرأي العام من خلال تحفّظه على الخمسمئة ألف فرنك التي تلقّاها كسلفةٍ على الصفقة من يدِ ذلك الرجل الغليظ الدم المدعو كولي.

أرجو، يا عزيزي رئيس التحرير، أن تعذر اسهاب هذه السطور، وتفضل بقبول فائق الاحترام.

ارسين لوبين

قد يكـون إيزيدور قد محّص عبارات هذه الرسالة مدقّقاً كما

انكبّ على تمحيص وثيقة المسلّة الجوفاء. فقد كان ينطلق من ذلك المبدأ الذي يسهل البرهان على صحّته، وهو أنّ لوبين لم يلجأ يوماً إلى نشر إحدى رسائله المسلية في الصحف إلّا في حالة الضرورة القصوى أو لدافعٍ ما لا تلبث الأيّام أن تظهره بطريقةٍ أو بأخرى. فما دافعه هذه المرة؟ ولأي سبب يبوح بحبّه وبالرفضِ الذي يلقاه هذا الحب؟ أينبغي أن تستوقفنا هذه الناحية أم التفسيرات التي تتعلّق بالسيد هارلنغتون، أو ربّما أبعد قليلاً، بين السطور وتحت كلّ هذه الكلمات التي قد لا يعني ظاهرها إلّا الاشارة الى الفكرة الصغيرة الرديئة المكّارة والمضلّلة؟...

مكث الشاب لساعاتٍ في مقصورته قلقاً، مُستغرقاً في أفكاره. كانت تلك الرسالة قد ملأت روعه بمشاعر الحيطة والحذر، كأنّها كتبت خصيصاً له وبقصدِ تضليله، هو بالذات. ولأوّل مرّة انتابه الإحساس الصريح بالخوف إذ وجد نفسه لا في مواجهة هجوم مباشر، بل أمام نهج ملتبس من القتال، يصعب عليه تحديده. وما أن طالعته صورة أبيه العجوز الذي اختُطفَ بسببه حتّى راح يتساءل بقلقٍ وريبة عمّا إذا كان عناده في متابعة المعركة غير المتكافئة ليس ضرباً من الجنون. أليست النتيجة محسومةً سلفاً؟ أليس لوبين هو المنتصر سلفاً؟

لحظات تشكُّك عابرة! وعندما غادر عربة القطار عند العاشرة صباحاً بعد ساعات من النوم المريح، كان إيزيدور قد استعاد ثقته بنفسه.

وكان فروبرفال، أحد مستخدمي الميناء العسكري الذي استضاف بوترولِيه الأب في منزله، ينتظر على رصيف المحطة برفقة

ابنته شارلوت وهي فتاة صغيرة في الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها.

ـ «إذاً، ماذا حدث؟» بادره بوترولِيه قائلاً.

فراح الرجل الطيب يغمغم مُتلعثماً، فقاطعه إيزيدور واصطحبه الى مقهى مجاور وبعد أن طلب القهوة، بدأ استجوابه السريع دون أن يتيح لمحدّثه أية فرصة للاستطراد:

ـ «لم يختطفوا والدي، أليست كذلك، فذلك مُستحيل؟

ـ مستحيل، بلى. ومع ذلك لقد اختفى.

ـ منذ متى؟

ـ لا نعلم بالضبط.

ـ كيف!

ـ لا، لا نعلم. عند السادسة من صباح أمس، لاحظتُ أنه لم يخرج من غرفته ففتحت الباب ولم يكن هناك.

ـ ولكنْ، أوّل أمس، كان لا يزال موجوداً؟

ـ أجل. أوّل أمس، لم يبرح غرفته. كان مُتعباً بعض الشيء فصعدت إليه شارلوت بطعام الغداء ظهراً ثمّ بطعام العشاء عند السابعة مساءً.

ـ إذاً اختفى الوالد بين السابعة من مساء أوّل أمس والسادسة من صباح أمس؟

ـ أجل، ليل أوّل أمس. ولكن...

ـ ولكنْ ماذا؟

ـ أعني... أنّه أثناء الليل لا يمكن الخروج من الترسانة.

ـ هذا يعني أنه لم يغادر المكان؟

ـ مستحيل! لقد بحثنا، أنا والرفاق، في الميناء العسكري كلّه.

ـ هذا يعني أنه غادر المكان.

ـ مستحيل. كلّ المنافذ تخضع لحراسة مشدّدة».

فكر بوترولِيه ثمّ قال:

ـ «وفي غرفته هل كان السرير مرتّباً؟

ـ أجـل.

ـ والغرفة على حالهـا؟

ـ أجل. لقد وجدت غليونه في موضعه وكذلك علبة التبغ والكتاب الذي كان يقرأه. حتّى أني وجدت هذه الصورة الصغيرة، صورتك، بين الصفحات.

ـ أرني الصورة».

أعـطاه فرويـرفـال الصـورة. وبدت على وجه بوترولِيه معالم الدهشة. فقد رأى نفسه في الصورة واقفاً وقد وضع يديه في جيبي بنطاله، ومن حوله مرجة خضراء تتخلّلها أشجار وخرائب. وأردف فروبرفال قائلاً:

ـ «لا بدّ أنّها آخر صورة أرسلتها إليه. انظر من الخلف تاريخ التقـاطهـا... ٣ نيسـان/أبريل، واسم المصوّر ر. دوفال، واسم المدينة، ليون... ليون سورمير... ربّما».

وبـالفعـل كان إيزيدور قد قلب الصورة وقرأ هذه الملاحظات المكتوبة بخط يده: ر. دوفال ـ ٣ ـ ٤ ـ ليون.

سكت لبضع دقائق ثمّ سأله:

- «ألم يطلعك أبي على هذه الصورة من قبل؟

- الحقيقة، لا... وقد فوجئتُ حين وجدتها يوم أمس... ذلك أن والدك كان يحدّثنا عنك باستمرار!».

ران الصمت مجدّداً، لفترة طويلة. ثمّ تمتم فروبرفال:

- «لديّ عمل في المشغل... فهلاّ ذهبنا...».

وسكت. كان إيزيدور يحدّق في الصورة، متمعّناً في تفاصيلها. وأخيراً سأل الشاب:

- «أيوجد نزل اسمه نزل «ليون دور» على بعد فرسخ تقريباً من هذه المدينة؟

- بلى، بلى، على بعد فرسخ واحد من هنا.

- على طريق فالونيه، أليس كذلك؟

- على طريق فالونيه بالضبط.

- إذاً، ثمة ما يدفعني إلى الافتراض بأنّ هذا النزل كان مقرّا لأصدقاء لوبين. ومن هناك استطاعوا الاتصال بوالدي.

- أي كلام هذا! كان والدك لا يكلّم أحداً. ولم يرَ أحداً.

- لم يرَ أحداً، ولكنهم استخدموا وسيطاً.

- وما دليلك على ذلك؟

- هذه الصورة.

- لكنّها صورتك؟

- إنها صورتي ولكني لم أرسلها. حتّى أني لا أعرف مصدرها.

لقد التقطت في غفلة مني بين خرائب أمبروميزي، والأرجح أن ملتقطها هو كاتب قاضي التحقيق الذي تبيّن، كما تعلم، أنّه أحد شركاء لوبين.

ـ وهذا يعني؟

ـ أنّ هذه الصورة شكّلت نوعاً من جواز المرور، الطلسم الذي من خلاله استطاعوا كسب ثقة والدي.

ـ ولكن من؟ من استطاع أن يتسلل الى منزلي؟

ـ لست أدري، ولكن أبي وقع في الفخ. قيل له وصدّق من ناحيته أنني في الجوار وأنني أرغب في رؤيته إذا استطاع المجيء الى نزل «ليون دور».

ـ ولكن كل هذا أشبه بالجنون المطبق! كيف لك أن تكون جازماً؟...

ـ ببساطة. لقد قام أحدهم بتزوير خطي على مقلب الصورة لتدوين مكان الموعد بدقة: طريق فالونيه، ٣ أو٤ كلم، نزل «ليون». فحضر والدي إلى المكان واحتجزوه، وانتهى الأمر.

ـ ليكن، تمتم فروبرفال مذهولاً، ليكن... أقرّ... بأنّ الأمور جرت على هذا النحو... غير أن هذا كله لا يُفسّر كيف استطاع أن يُغادر المكان خلال الليل.

ـ لقد غادر في وضح النهار، على أن ينتظر حلول الليل للذهاب إلى موعده.

ـ ولكن كيف يفعل بحق السماء، وهو لم يبرح غرفته طيلة نهار أوّل أمس.

ـ هنـاك وسيلة للتثبت من هذا الأمـر. إذهب الى الميـنـاء يا فروبرفال وحاول أن تستدعي أحد الذين كانوا يقومون بالحراسة في فترة ما بعد ظهر أوّل أمس... وإذا أردت أن تجدني في انتظارك حين تعود حاول أن تسرع قدر المستطاع.

ـ أنـت مغـادر إذاً؟

ـ أجل، سأستقل القطار مجدّداً.

ـ كيف!... ولكنّك لا تعلم... وتحرياتك...

ـ لقد انتهت تحريّاتي. وبتُّ أعرف كل ما أردتُ معرفته تقريباً. وسأغادر شربورغ في غضون ساعة واحدة».

نهض فروبرفال ورمق بوترولیه بنظرات استهجان، مكث متردّداً لثوانٍ، ثمّ أخذ قبعته.

ـ «هيّا يا شارلوت!

ـ لا، دعها، قال بوترولیه، ما زلت في حاجةٍ لبعض المعلومات. فدعها لي. ثمّ إنها مناسبة لنتحدّث قليلاً. لقد عرفتها طفلةً صغيرة».

غادرهمـا فروبـرفال. ومكث بوترولیه برفقة الفتاة وحيدين في صالة المقهى. انقضت دقائق من الصمت، دخل خادم المقهى ورفع الأكواب عن الطاولة ومضى.

التقت عينا الشاب عيني الطفلة، ووضع بوترولیه يده برقّة بالغة على يد الفتـاة الصغيرة. رمقته لثانيتين أو ثلاث مضطربةً كأنها تشعـر بضيق ما. ثمّ فجـأةً شبكت ذراعيهـا فوق رأسها مطرقةً وانفجرت بالبكاء.

مكث يرمقها وهي تبكي، وبعد برهة، قال لها:

ـ «لقد أنجزت، أنت، المهمّة، أليس كذلك، أنتِ مَن لعب دور الوسيط؟ أنتِ مَنْ أحضر الصورة؟ أنت تعترفين، أليس كذلك؟ وعندما قلت إن والدي كان في غرفته يوم أوّل أمس، كنتِ تكذبين، أليس كذلك، لأنّك ساعدته على الخروج...».

مكثت صامتة. فقال لها:

ـ «لماذا فعلت ذلك؟ لقد أعطوك مالاً، من دون شك... ما يتيح لك أن تشتري لنفسك ثوباً.. وشرائطه».

جعلها تخفض ذراعيها ورفع لها رأسها. فرأى وجهاً كئيباً أغرقته الدموع، وجهاً لطيفاً، مُقلقاً ومتبدّلاً يشبه وجوه كلّ الفتيات الصغيرات اللواتي يسهل استدراجهن والإيقاع بهنّ.

ـ «هيّا، أردف بوترولية قائلاً، لقد انتهى الأمر. لن أُحدّثك بهذا الشأن بعد الآن... ولن أسأل حتّى كيف جرت الأمور. ولكن ستخبرينني فقط بما قد يُساعدني في تحريّاتي!... ألم تلاحظي شيئاً دون قصد... كلمةً تلفظ بها أولئك الناس وقد تكون ذات معنى؟ كيف جرت عملية الخطف».

فأجابت دون تردّد:

«بواسطة سيّارة... لقد سمعتهم يتحدّثون بهذا الشأن.

ـ وأي طريق سلكوا؟

ـ آه، لستُ أدري.

ـ ألم يتبادلوا أي كلام في حضورك، أية عبارة قد تساعدنا؟

ـ لا... ولكنّ أحدهم قال: «يجب أن نعمل بسرعة... فعند الثامنة من صباح الغد سيتصل بنا الرئيس هاتفياً هناك...».

ـ أين، هناك؟... تذكّري جيّداً... إنه اسم مدينة، أليس كذلك؟

ـ أجل.. اسم... يشبه أن يكون شاتو..

ـ شاتوبريان؟... شاتوتييري؟

ـ لا.. لا..

ـ شاتورو؟

ـ أجل.. شاتورو...».

وقبل أن تكمل عبارتها كان بوترولية قد نهض عن كرسيه، ودون أن يأبه لعودة فروبرفال الوشيكة أولنظرات الفتاة التي كانت ترمقه بذهول هرع الى الباب وفتحه ثمّ غادر مسرعاً في اتجاه المحطة.

ـ «شاتورو... يا سيّدتي... تذكرة الى شاتورو..

ـ عبر لومان وتور؟ سألت الموظّفة.

ـ بالطبع.. عبر الطريق الأقصر.. وهل أصل الى هناك في وقت الغداء؟

ـ آه! لا..

ـ في وقت العشاء؟ أو النوم؟...

ـ آه! لا، لكي تصل في مثل هذه الأوقات عليك أن تسافر عبر باريس وقطار باريس السريع ينطلق عند الثامنة... وأحسب أنك تأخرت بعض الشيء، لقد فات الأوان».

لم يفت الأوان. فباستطاعة بوترولية أن يستقل القطار السريع من باريس.

ـ «إلى الأمام، قال بوترولية مبتهجاً، لم أمكث في شربورغ لأكثر من ساعة ولكنّها كانت مثمرة جداً».

لم يخطر له للحظة واحدة أن يتّهم شارلوت بالكذب. ذلك أنّ مثل تلك الكائنات الصغيرة، قادرة على الاستجابة أيضاً لاندفاعات صادقة بمقدار ما هي ضعيفة وضالّة وقادرة على أسوأ الخيانات. وكان بوترولية قد لمَح في عينيها الخائفتين سيماء الخجل لما اقترفته من سوء، وسيماء البهجة لقدرتها على إصلاح غلطتها ولو جزئياً. لذلك لم يكن إيزيدور ليرتاب لحظة واحدة في أن شاتورو هي المدينة الأخرى التي ألمح اليها لوبين ومنها سيتلقّى اتصالاً هاتفياً من رجاله.

فور وصوله الى باريس اتخذ بوترولية كل الاحتياطات اللازمة للتثبّت من أنّ أحداً لا يتعقبه. كان يحسّ بخطورة الموقف. فها هو يسير على الدرب الصحيح الذي سيقوده الى والده، وهفوة واحدة منه قد تودي بكل جهوده.

دخل الى منزل أحد رفاق الدراسة في الثانوية وغادره بعد ساعة من الزمن كأنّه شخصٌ آخر. كان متنكراً بزي رجل انكليزي على مشارف الثلاثين، يرتدي طقماً بنيّاً ذا مُربّعات، وبنطالاً قصيراً وجوربين من الصوف، ويعتمر قبعة السفر، في ما بدا وجهه أكثر احمراراً تزيّنه لحية صهباء.

ركب دراجة هوائية حُمّلت سلفاً بعُدة رسّام كاملة واتجه مسرعاً نحو محطة «استرليتس».

أمضى ليلته في «إسّودون». وما أن لاح فجر اليوم التالي حتّى انطلق بدرّاجته. وعند السابعة صباحاً كان في مركز البريد في شاتورو وطلب اتصالاً هاتفياً بباريس. وفي الانتظار راح يتبادل أطراف الحديث مع الموظف وعلم منه أنّه يوم أوّل أمس، في ساعة

مماثلة تقريباً، جاء رجل يرتدي زيّ سائق وطلب اتصالاً هاتفياً بباريس.

كان الدليلُ قاطعاً. فلم ينتظر مدة أطول.

في فترةٍ بعد الظهر علم أن سيّارة ليموزين قد عبرت بلدة بوزانسيه سالكةً طريق تور، ثمّ عبرت مدينة شاتورو وتوقفت على مسافةٍ منها عند أطراف الغابة. وعند العاشرة تقريباً شوهدت عربة كابريوليه يقودها شخص وتوقفت قرب الليموزين، ثمّ انطلقت في اتجاه الجنوب عبر وادي «بوزان» وشوهد شخصٌ آخر يجلس إلى جانب الحوذي. أمّا الليموزين فقد سلكت الاتجاه المعاكس وانطلقت في اتجاه الشمال، نحو «إسّودون».

لم يجد إيزيدور مشقّة في العثور على صاحب الكابريوليه إلّا أن هذا الأخير لم يكن لديه ما يقوله. فقد أجّر عربته وحصانه لشخصٍ ما ثمّ أعادهما بنفسه في اليوم التالي.

وأخيراً لاحظ إيزيدور، في مساء اليوم نفسه، أن السيّارة الليموزين لم تتوقف في «إسودون» بل تابعت طريقها نحو «أورليان» أي في اتجاه باريس.

كانت التحريّات إذاً تؤكّد على نحوٍ قاطعٍ بأن والد بوترولیه لا يزال في الجوار. وإلّا كيف يصدّق المرء أنّ الجناة قطعوا نحو خمسمئة كيلومتر عبر مناطق فرنسا للمجيء إلى شاتورو بهدف إجراء مكالمة هاتفية ثمّ العودة توّاً الى باريس؟ فقد كانت الغاية من هذه الجولة الرائعة نقل بوترولیه الأب الى المكان المتّفق عليه. «وهذا المكان في متناول يدي، كان إيزيدور يقول برعشة الأمل. على بعد عشرة فراسخ، على بعد خمسة عشر فرسخاً من هنا، أرى أبي

في انتظار نجدتي. إنه هنا. ويتنشق الهواء الذي أتنشقه».

دون إبطاء انطلق في حملته. فقسّم المنطقة، مُستعيناً بخارطة عسكرية، إلى نطاقات صغيرة مُربّعة وراح يدقّق فيها على التوالي: كان يدخل الى المزارع ويتحدّث الى المزارعين، ويقصدُ المدرّسين في مدارسهم، والمخاتير ورهبان الرعيّة والنساء. كان يحسبُ أنّه على وشك الوصول إلى غايته، وراحت أحلامه تتعاظم تدريجياً، إذ لم يعد يأمل في إطلاق سراح أبيه فقط، بل أيضاً كلّ الّذين احتجزهم لوبين في أسره: ريموند دو سان فيران، غانيمار، وربما شرلوك هولمز، وآخرين، وآخرين كثر. وفي اهتدائه اليهم يكون في الوقت نفسه قد وصل الى قلب الحصن الذي يلوذ به لوبين، إلى جحره، إلى الملاذ الحصين الذي يكدّس فيه كلّ الكنوز التي سرقها.

ولكن بعد خمسة عشر يوماً من البحث الدؤوب وغير المجدي، وهنت عزائمه وسرعان ما فقد ثقته بجدوى البحث. وإذ تراءت له صعوبة النجاح في ما يسعى اليه، أصبح، بين ليلة وضحايا، يرى أنّه أمرٌ مستحيل، وبرغم مواصلته البحث وفق المخطط المرسوم غير أنه ما كان ليصدّق أن جهوده قد تثمر.

مضت أيام أخرى، رتيبة ومحبطة. وعلم بواسطة الصحف أن الكونت دو جيفر وابنته قد غادرا إمبروميزي وانتقلا للإقامة في نواحي «نيس». وعلم أيضاً بأن السلطات أطلقت سراح السيّد هارلنغتون بعد أن اتضحت لها براءته حسب التعليمات التي ذكرها أرسين لوبين في رسالته.

نقل مقرّ عمليّاته من شاتورو الى «لا شاتر» حيث مكث يومين، ثمّ يومين آخرين في «أرجونتون». وكانت النتيجة نفسها: لا شيء.

كانت الأمور قد بلغت به حدّ اليأس. فلا ريب أن الكابريوليه التي نقلت والده لم تقطع من المسافة إلّا بعضها تلتها مرحلة أخرى تمّت بواسطة عربة أخرى. ولا بدّ أن والده قد أصبح بعيداً عن هذا المكان. وفكّر جديّاً بالرحيل.

ولكن ذات صباح، صباح يوم اثنين، لفته مغلّف رسالة وصلته من باريس بالبريد المحوّل، أربكت كيانه. وكان انفعاله من القوّة بحيث مكث لدقائق ساكناً لا يجرؤ على فتح المغلّف خشية أن تناله خيبة ما. كانت يده ترتعش، أيُعقل ما يراه؟ أليس في الأمر خدعة ما دبّرها له عدوّه الجهنمي؟ ثمّ فتح المغلّف مُتلهّفاً. ووجد أنها بالفعل رسالة من أبيه، ومكتوبة بخطّ يد أبيه. كلّ ما يتميّز به خط أبيه وطريقته في رسم الحروف. وقرأ:

«هل ستصلك هذه الكلمات يا بُنيّ؟ أكاد لا أصدّق.

«لقد أمضينا ليلة اختطافي كلّها في رحلةٍ طويلة بالسيّارة، ثمّ انتقلنا في الصباح إلى عربة. لم أستطع أن أرى شيئاً. فقد عصبوا عيني. أما القصر الذي يحتجزونني داخل جدرانه فيبدو، استناداً إلى هندسته وأعشاب حديقته، أنه من قصور فرنسا الوسطى. والغرفة التي أقيم فيها تقع في الطبقة الثانية، فيها نافذتان إحداهما موصدة تماماً بشبيكة من نبات الوستارية. خلال فترات بعد الظهر يُسمح لي، في ساعات معينة، أن أتنزّه في الحديقة ولكن تحت حراسة مشدّدة.

«أكتب لك هذه الرسالة دون أن أعرف بالضبط كيف لي أن أرسلها. لقد ربطتها بحجر وذات يوم ربّما استطعت أن أرمي بها إلى ما بعد السور فيعثر عليها مزارع ما. لا تقلق بشأني. ألاقي معاملة جيدة.

«والدك العجوز الذي يحبك كثيراً والذي يشعر بالأسى لما يسببه لك من كدر».

«بوتروليه».

سارع بوتروليه الى التحقق من الختم البريدي فإذا به يُشير الى كوزيون (اندر). اندر! هذه المقاطعة التي يستميت، منذ أسابيع، في البحث فيها!

دقّق في دليل جيب يحمله دائماً معه. كوزيون، محافظة إيغوزون... لقد سبق له أن مرّ بتلك الناحية.

ولمزيد من التحوّط نزع عنه شخصيّة الانكليزي التي أصبحت معروفة في الناحية، وتنكر بزيّ عامل وقصد كوزيون، وهي بلدة صغيرة فلم يجد مشقة كبيرة في العثور على مرسل الرسالة.

لا بل عثر عليه على الفور، بضربة حظ.

«رسالة وضعت في البريد يوم الأربعاء الماضي؟... قال العمدة، وهو سيّد نبيل كان قد أسرّ إليه بغرض زيارته فوضع نفسه في تصرفه... اسمع، أعتقد أن لديّ ما يُساعدك في سعيك... صباح يوم السبت، صادفتُ في طريقي مجلّخاً عجوزاً يجوب كل أسواق المحافظة ويُدعى المعلم شاريل، فسألني: «سيدي العمدة هل يمكن وضع رسالة في صندوق البريد إذا كانت لا تحمل طابعاً بريديّاً؟ ـ بالطبع! ـ وهل تصلُ إلى صاحبها؟ ـ بالطبع، عليه فقط أن يدفع ضريبة إضافية لا أكثر».

ـ «وأين يقيم المعلّم شاريل؟

ـ إنـه يقيم هناك، وحيداً، عند منحدر التلّة... في كوخ خلف المقبرة... أتودّ أن أصحبك اليه؟».

كان كوخاً منعزلاً، وسط مرجة تحيط بها أشجار عالية. وعندما دخلا طار ثلاثة من طيور الهذّار من حجرة كلب الحراسة المربوط إلى بابها. لم ينبح الكلب عند اقترابهما ولم يحرّك ساكناً.

لم يخف بوترولييه دهشته من سلوك الكلب ودنا منه. فكان الحيوان المسكين رابضاً على جنبه متصلب القوائم، ميتاً.

فهرعا راكضين نحو البيت فوجدا الباب مفتوحاً.

دخلا. وإذا برجلٍ راقدٍ فوق فراش تبن، في صدر الحجرة الرطبة الواطئة.

ـ «إنه المعلم شاريل! صرخ العمدة... هل مات هو أيضاً؟».

كانت يدا الرجل باردتين وعلا الشحوب وجهه، إلّا أن قلبه ما زال يخفق بطيئاً واهناً، ولم يُصب بأي جرح.

حاولا إنعاشه، ولمّا أخفقا في ذلك هرع بوترولييه بحثاً عن طبيب. ولم يُفلح الطبيب أيضاً في انعاشه. كان الرجلُ العجوز راقداً لا تبدو عليه معالم الألم؛ ومن يراه يحسبُ ببساطة أنه نائم لكنّه نومٌ غير طبيعي كأنّه خضع لتنويم مغنطيسي أو خدّر بمادة مخدّرة.

إلّا أنـه عند منتصف الليلة لاحظ إيزيدور الذي كان ساهراً بقربه أن تنفّسه أصبح قوياً ومنتظماً وبدا جسمه كلّه وكأنّه يتحرّر من تلك القيود الخفيّة التي كانت تشلّ حركته.

استيقظ عند الفجر وعاود حياته الطبيعيّة، فأكل وشرب وتحرّك،

غير أنه لم يستطع الاجابة على أسئلة إيزيدور الذي ألحّ عليه بها طيلة النهار، كأنّ رأسه لا يزال غارقاً في خدرٍ غريب.

وفي اليوم التالي سأل بوترولیه:

- «وأنت، ماذا تفعل هنا؟».

وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يُعبّر فيها عن استهجانه لوجود غريب إلى جانبه.

وشيئاً فشيئاً استعاد، على ذلك النحو، كلّ وعيه. فتكلم وتحدّث مطوّلاً عمّا يودّ أن يفعله. ولكن حين سأله بوترولیه عمّا جرى قبل نومه الطويل، بدا وكأنّه لم يفهم.

وبالفعل كان بوترولیه يشعر في أعماقه بأن الرجل لم يفهم. لقد فقد ذاكرة الأحداث التي جرت منذ يوم الجمعة الفائت. كأنّ ثغرة عميقة تخلّلت مجرى حياته العاديّة. إذ بدا قادراً على سرد كلّ ما جرى له في صباح ذلك اليوم وفي فترة ما بعد الظهر، أعماله التي أنجزها في السوق ووجبة الطعام التي تناولها في المنزل. ثمّ... لا شيء... وعندما استيقظ من غفوته حسِب أنّه يستيقظ في صبيحة اليوم التالي.

وكان بوترولیه يشعر برعب حقيقي حيال هذا الأمر. فالحقيقة كانت هناك، أمامه، في عيني العجوز الذي رأى أسوار القصر، الأسوار التي خلفها يمكث والده منتظراً قدومه: الحقيقة الماثلة في اليدين اللتين عثرتا على الرسالة، وفي الدماغ المشوّش الذي نسي المكان والديكور وكافة تفاصيل ذلك الركن الضيّق من العالم حيث تدور المأساة. وكان الهلع يستبدّ به ليقينه أنه لن يستطيع أن

يحصـل، من هاتـين اليدين، وهاتين العينين، وهذا الدماغ، على صدىً ولو بعيد من تلك الحقيقة التي بدت في متناول يده!

آه! يا لها من عقبة وهميّة كأداء، تلك التي تحول دون أن تثمر جهوده. عقبة مادتها الصمت والنسيان، وكم تحمل بصمات لوبين! فهـو وحـده القادر بعد اكتشافه أمر الرسالة أن يضرب الشاهد الوحيـد القـادر على فضحـه بمثل هذا الموت الجزئي. ليس لأن بوترولية كان يشعر بأن أمره قد افتضح وبأن لوبين الذي أُخطر بهجومه المكتوم وبالرسالة التي استلمها، قد بادر الى الاقتصاص منه. بل ما أذهله هو ما أبداه لوبين من التحوّط والدراية والذكاء في استعجاله التخلّص من الاتّهام المحتمل الذي قد يتعرّض له بناءً على أقوال عابر سبيل! وبات يستحيل على أي كان أن يعرف أن ثمة محتجزاً يستغيث طلباً للعون بين أسوار الحديقة.

لا أحد؟ بلى، هناك بوترولية. ألا يستطيع المعلّم شاريل الكلام؟ ليكن. ولكن من الممكن على الأقل الاهتداء الى السوق حيث أنجز الرجـل العجـوز أعماله، ومن هناك التوصل، بالمنطق، إلى معرفة الطريق التي سلكهـا عائـداً. وهكذا ربّما استطاع خلال سلوكه الطريق نفسها أن يجد...

ولذلك قرّر إيـزيـدور أن لا يعـود مرّةً أخرى الى كوخ المعلّم شاريل، وهو بأية حال كان قد اتخذ منذ البداية كلَّ الاحتياطات اللازمة لكي لا يثير الشبهات. وبعد تحريّات أجراها علم أن يوم الجمعة كان يوم السوق في فريسيّلين، وهي بلدة كبيرة نسبياً على بعد بضعة فراسخ، ويمكن الوصول إليها إما عبر الطريق العام،

وهي طريق متعرّجة وطويلة، وإما عبر قادوميّات في البراري المحيطة.

ويوم الجمعة اختار أن يسلك الطريق العام قاصداً فريسّيلين، ولم يرَ خلال رحلته ما يلفت الانتباه، فلا أسوار عالية ولا أثرَ لقصر قديم. تناول طعام الغداء في نزلٍ هناك وكان يهمّ بالمغادرة عندما رأى المعلّم شاريل قادماً عبر الساحة يدفع عربة المجلّخ الصغيرة أمامه. فتعقّبه ولكن من بُعد.

توقّف العجوز مرّتين ومكث في كلٍّ منهما مدّة طويلة يجلّخ عشرات السكـاكـين. وفي آخر المطاف سلك طريقاً مختلفة تمتدّ في اتجاه كروزان وبلدة إيغوزون.

مشى بوترولِيه خلفه على هذه الطريق. إلا أنه سُرعان ما أدرك أنه ليس المتعقّب الوحيد لأثر الرجل. فقد لمح شخصاً يسير بينهما يتوقف حين يتوقف المعلم شاريل وينطلق حين ينطلق، دون أن يكلّف نفسه عناء التحوّط أو الحذر.

«إنهم يراقبونه، قال بوترولِيه في سرّه، وربّما يفعلون للتثبت من أنه سيتوقف حين يمرّ بالأسوار...».

راح قلبه يخفق بشدّة. فالمرتقب بات وشيكاً.

تابع الرجـال الثلاثة سيرهم، واحدهم خلف الآخر؛ يهبطون المنحـدرات ويتسلقـون التـلال حتّى وصلوا إلى كروزان. وهناك استراح المعلم شاريل ساعة كاملة. ثمّ هبط المنحدر في اتجاه النهر واجتـاز الجسر. وهناك حدث ما لم يتوقعه بوترولِيه. إذ لم يعمد الرجـل الآخـر إلى اجتياز الجسر بل مكث يراقب الرجل العجوز

مبتعداً وعندما غاب عن أبصاره سلك درباً أفضى به إلى وسط الحقول. ما العمل إذاً؟ مكث بوتروليه حائراً لثوانٍ. ثمّ حسم أمره فجأةً. وسار في أثر الرجل الغريب.

«لا بدّ أنّه اطمأن الى أن المعلّم شاريل تابع طريقه المعتاد. قال إيزيدور في سرّه وحين اطمأن كفّ عن مراقبته وذهب. ولكن الى أين؟ إلى القصر؟»

كان على مقربةٍ من الهدف، ويُدرك ذلك جيّداً بسبب تلك الخفّة الموجعة التي تملّكته.

توغّل الرجلُ الغريب داخل غابة معتمة تطلُّ على النهر، ثمّ خرج منها حيث رآه بوضوح عند ظاهر الدرب. وعندما خرج بوترولیه بدوره من الغابة كانت مفاجأة عظيمة إذ وجد أن الرجل قد اختفى. راح يُجيل أبصاره في الأنحاء حين انطلقت منه بغتةً صرخة مكتومة وقفز الى الوراء محتمياً بصف الأشجار عند طرف الغابة. لقد رأى، إلى يمينه، سوراً من الجدران العالية تتخلّلها، على مسافات متساوية، دعائمُ حُصنٍ هائلة الحجم.

إنه المكان!! إنّه المكان! إنّها الأسوار التي تحتجز والده! لقد عثر على المكان السرّي الذي يحتجز فيه لوبين ضحاياه!

مكث بوترولیه في مكانه الذي تحجبه أغصان الغابة المتشابكة. وببطء شديد زحفَ في اتجاه الجهة اليمنى وبعد مشقّة وصل الى قمّة تلّة صغيرة بارتفاع ذُرى الأشجار المجاورة. وكانت الجدران تفوقها ارتفاعاً. ومع ذلك لمح سقف القصر الذي تسوّره، وهو من طراز لويس الثالث عشر القديم تعلوه قباب دقيقة ومصمّمة في شكل رأس تاج يحيطُ بسهمٍ مسنّنٍ يفوقه ارتفاعاً.

اكتفى بوترولي ذلك اليوم بالمراقبة. إذ كان عليه أن يفكّر ملياً قبل التخطيط للهجوم لكي يتجنّب أية مفاجأة طارئة. فبعد اكتشافه المكان الذي يُقيم فيه لوبين أصبح هو سيّد الموقف وله وحده يعودُ اختيار توقيت الهجوم وأسلوب المعركة. ولذلك قدّر أن يعود أدراجه.

قرب الجسر التقى مزارعتين تحملان دلاءً مليئةً بالحليب. فسألهما:

ـ «ما الاسم الذي يُطلق على ذلك القصر هناك، وراء الأشجار؟

ـ إنه قصر «المسلّة» يا سيّد».

كان بوترولي يسأل دون أن يُعنى كثيراً بالجواب. ولكنّ الجواب أذهله.

ـ «قصر «المسلّة»... آه!... ولكن ما اسم هذه المنطقة؟ أهي محافظة الإندر؟

ـ لا، محافظة الإندر تقع عند الجهة المقابلة من النهر... نحن هنا في محافظة «لا كروز»(*)».

بدا إيزيدور وكأنّه تلقّى صدمة انبهار. قصر المسلّة! ومحافظة لا كروز! المسلّة، الجوفاء! مفتاح لغز الوثيقة! لقد أصبح الانتصار في متناول اليد، حاسماً ونهائياً...

ودون أن يتفوّه بأية كلمة أخرى، أولى الإمرأتين ظهره وغادر مُترنحاً كرجلٍ ثمل.

(*) وتعني: الجوفاء. (م. ع).

الفصل السادس

سرّ تاريخي

كان قرار بوترولیه فورياً وحاسماً: سيعمل بمفرده لأنّ اللجوء الى الشرطة قد يشكّل خطراً كبيراً. فبالإضافة الى أنّ ما استنتجه مبنيّ على تخمينات فقد كان إيزيدور لا يخفي تخوّفه من بطء الاجراءات الرسميّة، واحتمال تسرّب الخبر أثناء التحقيقات الأوّلية، الأمر الذي قد يثير انتباه لوبين فيجد متسعاً من الوقت لتنظيم فراره.

في صباح اليوم التالي، منذ الثامنة، حمل متاعه الخفيف تحت ذراعه وغادر النزل الذي كان مقيماً فيه في نواحي كوزيون وتوارى خلف أوّل دغل صادفه فنزع عنه أسمال العامل المزعوم واستعاد شخصيّة الرسام الانكليزي وقصد مكتب الكاتب العدل في إيغوزون التي تُعتبر أكبر بلدان المقاطعة.

ادّعى في حديثه أنّه معجب بالمنطقة وأنّه إذا عثر فيها على منزلٍ ملائم فسيكون من دواعي سروره أن ينتقل اليها هو وأهله. أشار عليه الكاتب بعددٍ من المنازل الشاغرة ولمّح بوترولیه أنّ هناك من أشار عليه بقصر المسلّة، شمالي منطقة لا كروز.

ـ «أجل، بالفعل، ولكن قصر المسلّة الذي استملكه واحدٌ من زبائني منذ خمسة أعوام ليس للبيع.

ـ إنّه يقيم فيه إذاً؟

ـ كان يقيمُ فيه أو الأحرى كانت والدته تقيم فيه. إلّا أنّها لم تستطع احتمال العيش في مناخ القصر. ولذلك هجرته منذ سنة تقريباً.

ـ والآن، أهو شاغر؟

ـ لا، يقطنه رجلٌ إيطالي يُدعى البارون أنفريدي كان موكلي قد أجّره المكان لقضاء فصل الصيف.

ـ آه! البارون أنفريدي، إنه رجلٌ فتيّ، رصين.

ـ الحقيقة، لست أدري... فقد كانت صلته بموكّلي مباشرة. ولم يتمّ الايجار بموجب عقد... بل بموجب رسالة...

ـ ولكنّك تعرف البارون؟

ـ لا، إنـه لا يغادر القصر... أحياناً يغادره ليلاً، على ما يبدو، وبالسيّارة. أما بشأن المؤن فهناك طبّاخة عجوز تتولّى الأمر ولا تكلّم أحداً. إنهم أناس غريبو الأطوار...

ـ وهل يوافق موكّلك على بيع قصره؟

ـ لا أعتقد. إنه قصر تاريخي، من أفضل ما بُني من طراز لويس الثالث عشر. وكان موكّلي يُبدي تعلّقه الشديد به، وإذا لم يطرأ في الأثناء ما يجعله يبدّل رأيه...

ـ أبامكانك أن تطلعني على اسمه؟

ـ لويس فالميرا، ٣٤ شارع مونتابور.

استقلّ بوترولیه قطار باریس من أقرب محطة. وفي اليوم التالي استطاع، بعد ثلاث زيارات غير مثمرة، أن يقابل لويس فالميرا. كان

رجلاً ثلاثينياً ذا وجه بشوش يتألق لطفاً. فارتأى بوترولية على الفور أنّ لا حاجـة للمنـاورة فعرّف عن نفسه بصراحة وروى لمضيفه تفاصيل مسعاه والغرض منه.

ـ «لديّ كلّ الأسباب التي تدفعني للاعتقاد بأن والدي محتجز في قصر المسلّة، قال في خلاصة حديثه؛ وأعتقد أنّ هناك محتجزين آخرين: وجئتُ إليك لأسألك عمّا تعرفه بشأن المستأجر البارون أنفريدي.

ـ لا أعرف الكثير. لقد التقيتُ البارون أنفريدي خلال الشتاء الماضي في مونت كارلو. وإذ علم بمحض المصادفة أنني أملك قصراً سارع الى عرضِ استئجاره مني لأنه يودّ قضاء فصل الصيف في ربوع فرنسا.

ـ أهـو رجـلٌ فتـيّ...؟

ـ أجل، ذو عينين مليئتين بالحيويّة، وشعر أشقر...

ـ ولـه لـحيـة؟

ـ بلى، لحية مفروقة تغطي ياقة مستعارة تزرّر من الخلف وتذكّر بياقة رجل دين. ومظهره يشبه بأية حال مظهر راهبٍ انكليزي.

ـ إنه هو، تمتم بوترولية، إنه هو، تماماً كما رأيته، إنها الصفات التي تنطبق على مظهره.

ـ ماذا!... أتعتقد أنّ...؟

ـ أعتقد، لا بل أنا واثق من أن البارون هو أرسين لوبين».

راقت الحكـايـة للويس فالـميرا. فقد كان مطّلعاً على تفاصيل

مغامرات لوبين وعلى كافة مراحل صراعه ضد بوتروليه. فبدا مُبتهجاً.

ـ «إذاً سيُصبح قصر المسلّة قبلة الأنظار.. وهو أمر لا يُسيئني على الإطلاق، ذلك أني غالباً ما راودتني فكرة بيعه لأوّل مُشترٍ منذ أن هجرته والدتي. وبعد كلّ ما قلته لي، فلن أجد صعوبةً في ايجاد المشتري ولكن...

ـ ولـكـن مـاذا؟

ـ أرجو منك أن تعالج هذه المسألة بحذر كبير وأن تمتنع عن إخطار الشرطة إلّا إذا تثبتّ من الأمر. أنت تعلم جيّداً، احتمال أن لا يكون البارون هو أرسين لوبين؟».

فأوضح بوتروليه مخططه. سيذهب إلى القصر ليلاً، بمفرده فيتسلّق السور ثمّ يختبىء في الحديقة...

فقاطعه لويس فالميرا على الفور:

ـ «لن تقدر على تسلّق جدران بمثل هذا الارتفاع. ولنفترض أنك أفلحت في ذلك فلن تطأ قدماك أرض الحديقة حتّى يستقبلك هناك كلبا حراسةٍ من أشرس الأنواع، كانا لوالدتي فأبقيتهما في القصر.

ـ أوه! يا لهذه الغلطة...

ـ أشكرك! ولكن افترض أنك أفلحت في التخلص من الكلبين. ماذا تفعل؟ كيف ستدخل إلى القصر؟ فالأبواب ضخمة ومحصنة والنوافذ محميّة بحواجز مُشبكة. ثمّ حتّى لو دخلت الى القصر، من سيدلّك هناك؟ فهناك ثمانون غرفة.

ـ أجل، ولكن تلك الغرفة ذات النافذتين في الطبقة الثانية؟...

ـ أذكـرها... نسمّيها غرفة الوستاريّات. ولكن كيف ستهتدي اليها؟ هناك ثلاثة أدراج ومتاهة من الأروقة. ومهما حاولت أن أدلّك أو أن أرشدك الى ما ينبغي أن تفعله، ستضلّ الطريق لا محالة.

ـ إذاً، تعال معي، قال بوترولبه ضاحكاً.

ـ مستحيل. لقد واعدت أمي على ملاقاتها في جنوب فرنسا».

عاد بوتـروليـه الى منزل الصديق الذي استضافه وراح يعدّ العدّة للرحيل. إلّا أنه ما أن أنهى كلّ الترتيبات وهمّ بمغادرة المنزل حتّى فوجىء بزيارة فاليرا.

ـ «أما زلت مصمّماً على اصطحابي؟

ـ طـبعـاً!

ـ إذاً سأذهب برفقتك. أجل، لقد أغوتني المغامرة. أحسبُ أن الأمر سيكون مسلياً، ويسرّني أن أشارك في كل هذا... هذا ناهيك عن أن وجودي هناك سيكون عوناً لك. خذ، هذا أوّل العون».

ولوّح بمفتاح ضخم يغطيه الصدأ كأنه خردة قابلة للكسر.

ـ «وهذا المفتاح يفتح؟... سأل بوترولبه.

ـ يفتح باب السرّ بين دعامتين في السور لم يستخدم منذ قرون طويلة وبدا لي أنه من غير الضروري أن أطلع مستأجري الجديد على وجـوده. والبـاب يفضي الى الحقول المجاورة، وبالتحديد إلى أطراف الغابة...».

قاطعه بوترولبه بغتةً:

ـ «إنهم يعلمون بوجود هذا المدخل. ولا بدّ أنّ الرجل الغريب

الذي تعقبته قد دخل منه الى الحديقة. هيّا، ستكون اللعبة مشوّقة وسنفوز بها. ولكنها لعبة صعبة جداً!».

... بعد ذلك بيومين وصلت الى كروزون عربة غجر يجرّها حصان خائر، واستطاع حوذيّها أن ينال الاذن بأن يحط الرحال عند طرف البلدة في عنبر مهجور. وبالاضافة الى الحوذيّ، الذي لم يكن سوى فالميرا بالذات، كانت العربة تحمل ثلاثة أشخاص منهمكين في جدلِ مقاعد من ألياف السوحر: بوترولية وبرفقته اثنان من رفاق ثانوية جانسون.

مكثوا هناك ثلاثة أيام في انتظار ليلةٍ ملائمة يجوبون فيها، كلّ واحد منهم على حدة، أرجاء الناحية المحاذية للحديقة. وخلال احدى جولاته لمح بوترولية باب السرّ. كان باباً صغيراً بين دعامتين يصعب أن تميّزه عين بعد أن كسته الأشواك والعلّيق عن الشكل البارز لحجارة السور. أخيراً، في مساء اليوم الرابع تلبّدت السماء بغيوم كثيفة داكنة وقرّر فالميرا أن يقوموا بجولة استكشاف على أن يعودوا أدراجهم إذ رأوا أن الظروف غير مؤاتية للتسلّل.

اجتاز الرجال الأربعة الغابة الصغيرة. ثمّ زحف بوترولية بين نبات الخلنج فأدمت يديه إبر العوسج، ثمّ رفع جذعه قليلاً وبحركة حذرة وبطيئة أدخل المفتاح في القفل. وأداره فيه برفق. هل سيُفتح الباب ببساطة؟ أم أن مزلاجاً يوصده من الداخل؟ دفعه قليلاً ففتح الباب دون أن يحدث صريراً. فدخل الى الحديقة.

- «أنت هنا يا بوترولية؟ سأل فالميرا، انتظرني. أما أنتما أيّها الصديقان فراقبا الباب جيداً للتثبّت من أن أحداً لن يعترض طريق عودتنا. وحين تشتبهان بأي شيء أطلقا صفرة واحدة».

أمسك بيد بوترولية وتوغلا في ظلال الأشجار الكثيفة. وعندما وصلا الى طرف المرجة في وسط الحديقة بدت لهما فسحةٌ أقلّ إظلاماً، ومن هناك شاهدا القصر بقبابه المسنّنة التي تزنّر ذلك السهم المشوق الذي منه استقى القصر اسمه بلا ريب. كانت النوافذ معتمة، والسكونُ يُخيّم على الأرجاء. أمسك فالميرا بذراع رفيقه.

ـ «اصمت.

ـ ماذا؟

ـ الكلبان هناك... أرأيتهما...».

سُمعت أصوات نخير فأطلق فالميرا صفرةً خافتة وإذا بكتلتين بيضاوين تقفزان في اتجاهه ولم تلبثا أن أقعتا عند قدميه.

ـ «مهلاً يا صغيريّ... اربضا هنا... أحسنتما...امكثا هكذا هادئين...».

ثمّ خاطب بوترولية قائلاً:

ـ «لنمض الآن، لقد أصبحت مطمئناً.

ـ هل أنت واثق من الطريق؟

ـ أجل، لقد أصبحنا على مقربة من المصطبة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ حالما نصل الى الناحية اليُسرى من المصطبة المطلّة على النهر، حيثُ تعلو قليلاً وتحاذي نوافذ الطبقة الأرضية، سنجد، إن لم تخنّي الذاكرة، درفةً يمكن فتحها من الخارج لأنها لا تقفل جيّداً».

وبالفعل ما أن وصلا الى المكان الذي أشار اليه فالميرا حتّى

اهتديا الى الدرفة واستطاعا فتحها ببعض الجهد. واستطاع فالميرا أن يقطع الزجاج بطرفِ ماسة ورفع المزلاج. ثمّ دخلا الى القصر.

ـ «نحن الآن في الحجرة التي تقع عند طرف الرواق. وبجوارها هناك ردهة واسعة مزينة بتماثيل وعند طرف الردهة هناك درج يفضي الى الحجرة التي احتجز فيها والدك».

ثمّ تقدّم خطوة.

ـ «أتتبعني يا بوترولية؟

ـ أجل، أجل.

ـ لماذا تقف هناك.. ما الذي أصابك؟».

أمسك يده فوجدها باردةً أمّا بوترولية فكأنّه سُمّر في مكانه.

ـ «ما الذي أصابك؟ سأله مجدّداً.

ـ لا شيء... مجرّد أمر عارض.

ـ ولكن، أخبرني..

ـ أنا خائف!

ـ خائف!

ـ أجل، قال بوترولية بارتباك... إنها أعصابي... غالباً ما أكون قادراً على تمالك نفسي.. ولكن اليوم، كلّ هذا الصمت.. والإنفعال... وخصوصاً بعد الإصابة التي نلتها من خنجر ذلك الكاتب.. لكنه أمر عابر».

وبالفعل بدأ يتمالك نفسه فأمسك فالميرا بيده وقاده الى خارج الغرفة. تقدّما متلمّسين طريقهما في الرواق ببطء وحذر. وبدا لهما

أن نوراً خافتـاً ينبعث من الردهة التي يقصدانها. ولم يلبث أن اتضـح لهما أنه نور قنديل وضع فوق طاولة عند أسفل الدرج، خلف شجيرة نخيل.

ـ «قف!» قال فالميرا هامساً.

فقـد رأى رجلاً مسلحاً ببندقية يقوم بالحراسة قرب القنديل. فهل رآهما؟ ربّما. ولكن المؤكد أنه اشتبه بأمر ما لأنه سارع الى رفع سلاحه.

تهالك بوترولِيه راكعاً قرب حوض زرعت فيه شجيرة ومكث بلا حراك هلعاً وقد تسارعت خفقات قلبه.

لم يلبث الرجل أن اطمأنّ الى سكون الأشياء من حوله. فأرخى سلاحه. لكنّه مكث يحدّق في اتجاه الشجيرة.

انقضت دقـائق طويلة من الذعر، عشر دقائق، أو ربّما خمس عشرة دقيقة، وانعكس عبر النافذة شعاعٌ أضاء الدرج. وسرعان ما أدرك بوترولِيه أن انعكاس ضوء القمر لن يلبث أن ينتقل ببطء، وفي غضون عشر دقائق أخرى، سيسلّط على المكان الذي يختبىء فيه.

سقطت قطرات من العرق البارد المتصبّب من جبينه على يديه المرتجفتين. ولشدّة هلعه كاد ينهض لائذاً بالفرار... ولكنّه تذكّر أن فالميرا على مقربـة منه فراح يُجيل نظراته في الأنحاء بحثاً عنه وفوجىء حين رآه، أو بالأحرى حين تراءى له، مُتسلّلاً في العتمة خلف الشجـيرات والتماثيل حتّى وصل إلى أوّل الدرج، على بعد خطواتٍ من الحارس.

أتراه صمّم على العبور من هناك برغم وجود الحارس؟ ويصعد

بمفرده لنجدة المحتجز؟ ولكن هل يستطيع أن يعبر؟ كان بوتروليه يتساءل في سرّه حائراً حين أدرك فجأةً أن فالميرا قد توارى عن أنظاره وأحسّ بأنّ شيئاً ما سيحدث، وأنّ الحدث المرتقب يعتمل في كنف الصمت الثقيل، الراكد في وجوم الرهبة.

وفجأة لمح طيفاً ينقضّ على الرجل، فانطفأ القنديل وتناهت الى مسامعه جلبة قتال... هرع بوتروليه للتحقّق من الأمر، فوجد الرجلين يتصارعان على البلاط. أراد أن ينحني لمساعدة رفيقه لكنّه لم يلبث أن سمعَ حشرجة اختناق تبعتها زفرة أشبه بنخير ثمّ نهض أحد المصارعين وأمسك بذراعه.

- «هيّا بنا، أسرع».

وكان ذلك صوت فالميرا.

صعدا طبقتين ووصلا إلى فناء أحد الأروقة وقد فرشت أرضيّته بالسجّاد.

- «إلى الجهة اليمنى، همس فالميرا... الغرفة الرابعة الى اليسار».

وسرعان ما اهتديا الى باب تلك الغرفة، وطبقاً لتوقعاتهما وجدا أن البابَ مُقفلٌ بالمفتاح. وكان عليهما أن يقتحما الغرفة بالقوة فاستغرقهما ذلك نحو نصف ساعة. وفي آخر الأمر دخلا. استطاع بوتروليه أن يهتدي الى السرير متلمساً طريقه في العتمة المطبقة. كان والده نائماً. فأيقظه برفق.

- «هذا أنا، إيزيدور.. وبرفقتي صديق... لا تخف.. انهض... والزم الصمت...».

ارتدى الأب ملابسه ولكن ما أن همّوا بالخروج حتى قال هامساً:

ـ «لست المحتجز الوحيد في القصر...

ـ آه! ومن هم الآخرون؟ غانيمار؟ هولمز؟

ـ لا.. أو على الأقل لم أشاهدهما.

ـ إذاً مـن؟

ـ هنــاك فتـاة.

ـ إنها الآنسة دو سان فيران، من دون أدنى شك.

ـ لست أدري... لقد رأيتها مراراً من بعيد في الحديقة... وكذلك الأمر أستطيع أن أرى نافذة غرفتها إذا ما انحنيتُ قليلاً فوق حافة نافذتي... وكانت تلوّح لي بإشارات.

ـ وهل تعرف في أية غرفة يحتجزونها؟

ـ أجل، في إحدى غرف هذا الرواق، إنها الغرفة الثالثة لجهة اليمين.

ـ الغرفة الزرقاء، تمتم فالميرا. إنه باب بمصراعين ولن يصعب علينا اقتحامه».

وبـالفعـل، سرعان ما فُتح الباب، وتولّى بوترولیه الأب إخطار الفتاة بما يحدث.

ثمّ خرج من الغرفة برفقة الفتاة وقال مخاطباً ابنه:

ـ «لقد كنت محقاً... الآنسة دو سان فيران».

هبـطوا الأدراج الى الطبقة الأرضيّة وعندما وصلوا الى أسفل

السلّم توقف فاليرا وانحنى قليلاً لمعاينة الرجل الممدّد على الأرض، ثمّ انتحى بهم ناحية حجرة المصطبة وقال لهم:

ـ «لم يمت؛ سيحيا.

ـ آه! تنهّد بوتروليه تعبيراً عن ارتياحه.

ـ لحسن الحظ لم تكن الطعنة قاتلة. وبأية حال، هؤلاء الأنذال لا يستحقون الشفقة».

وعندما وصلا الى الخارج هرع الكلبان لملاقاتهم ورافقاهم حتّى باب السرّ. وهناك انضموا الى رفيقي بوترولیه وغادروا الحديقة. كانت الساعة تشير الى الثالثة فجراً.

ما كان بوترولیه ليكتفي بانتصاره في الجولة الأولى. وما أن وجد مكاناً آمناً لإقامة والده والفتاة حتّى راح يسألهما عن المقيمين في القصر وعن عادات أرسين لوبين بصورة خاصة. وبهذه الطريقة عَلِم أن لوبين لا يأتي الى القصر إلاّ مرّة كلّ ثلاثة أو أربعة أيّام، يصل مساءً في سيّارة ويُغادر منذ الصباح الباكر. وفي كلّ مرّة يتفقد سجينيه ويزورهما؛ وكان بوترولیه الأب والفتاة مُتّفقين على التنويه بمعاملته لهما وبلطفه الشديد. وأوضحا أنّه في تلك الأثناء لا بدّ أن يكون غائباً عن القصر.

وفيما عدا لوبين لم ير أيٌّ منهما سوى امرأة عجوز تتولّى أمور المطبخ وتدبير شؤون القصر، بالإضافة الى رجلين آخرين كانا يتناوبان على حراستهما بصمت، ولا بدّ أنّهما مجرّد مرؤوسين نظراً لمظهرهما وسلوكهما.

ـ «ومع ذلك يمكن القول إنهما شريكا لوبين، قال بوترولیه، لا بل

ثلاثة إذا لم نغفل المرأة العجوز. إنه صيد ثمين. وإذا استطعنا أن نسرع في ما...».

ركب دراجة هوائية وهرع الى بلدة إيغوزون حيث أيقظ رجال المخفر وأخطر الجميع بحقيقة الأمر، ثمّ عاد الى كروزون عند الثامنة برفقة المفوّض وثمانية من رجاله.

مكث اثنان منهم يحرسان العربة. فيما وقف اثنان آخران قرب باب السرّ. وتوجه الأربعة الآخرون وعلى رأسهم المفوّض مصحوباً ببوتروليه وفاليرا الى المدخل الرئيس للقصر. لكنّهم وصلوا بعد فوات الأوان. كان الباب الرئيس مشرّعاً على مصراعيه وأخبرهم أحد المزارعين أنه رأى، لساعة خلت، سيّارة تغادرُ باحة القصر من الباب.

لم تؤدّ التحريّات إلى أية نتيجة ملموسة والأرجح أن العصابة كانت على أهبة الاستعداد للانتقال من القصر في أية لحظة. ولم يُعثر بعد التدقيق إلاّ على بعض الأمتعة العتيقة والملابس وعددٍ من الأواني.

وما أذهل بوتروليه وفاليرا هو اختفاء الجريح ولم يبق في المكان أي أثر للمعركة التي دارت بين الرجلين ولم يعثر على نقطة دماء واحدة على بلاط الردهة.

وفي النهاية لم يُعثر على دليل مادي واحد قد يؤكّد إقامة لوبين في قصر المسلّة، وكان في استطاعة رجال الشرطة أن يرتابوا بصدق مزاعم بوتروليه ووالده ومزاعم فاليرا والآنسة دو سان فيران، لو أنهم لم يعثروا، في اللحظات الأخيرة وفي غرفة مجاورة للغرفة التي احتجزت فيها الفتاة، على نصف دزينة من باقات الورد الرائعة

والتي أرفقت بها بطاقة أرسين لوبين. باقات لم تعرها الفتاة اهتماماً فبقيت في موضعها ذابلةً مهملة... وكانت إحدى هذه الباقات تحمل بالإضـافـة الى بطاقـة لوبين، رسـالةً لم تنتبه الفتاة الى وجودها. وعندما أعطى قاضي التحقيق أوامره بفتح الرسالة، في فترة ما بعد الظهر، تبيّن أنها رسالة من عشر صفحات مليئة بالرجاء والتوسلات والوعـود والتهديدات وعبارات اليأس أي كل ما يتضمنه قاموس الغرام الذي لم يلقَ إلّا الصدّ واللامبالاة. وكانت الرسـالة قد ختمت بالعبـارة التالية: «سأعود مساء الثلاثاء، يا ريموند. وحتى ذلك اليوم، فكّري جيّداً. بتُّ لا أطيق الانتظار وقد أفعل أي شيء».

وحـدث أنّ مسـاء الثلاثاء الموعود جاء بوترولیه وأطلق سراح الآنسة دو سان فيران.

يذكر الجميع تلك الموجة العارمة من الذهول والحماس والتي عمّت العالم بأسره لسماعه النبأ المفاجىء: الآنسة دو سان فيران طليقة! لقد نجت الفتاة التي تولّه لوبين بحبّها وأوقع بها مستخدماً أقصى أحابيله المكيافيليّة، وانتزعت من بين مخالبه! وكذلك الأمر والد بوترولیه استعاد حرّيته: بوترولیه الأب الذي اختطفه لوبين في حميّا سعيه لهدنةٍ ينصرف خلالها لتلبية ما يفرضه عليه هواه. لقد أصبحا طليقين

وسر المسلّة الذي اعتقد الجميع أنّه عصيّ على الفهم، فُكّت رموزه وعُرف ونشرته الصحف في أرجاء العالم كلّه!

وأصبح المغامر سخرية الرأي العام وسلواه. ونظمت الأغنيات في هجائه: «غراميات لوبين». «نحيب أرسين!...»، «اللصّ العاشق»

أو «شكـوى النشّال!»، وكانت الأغنيات تتردّد في الأماكن العامة والخاصة، في الشوارع والساحات.

وكانت ريموند تردّ على الحاح الصحافيين والفضوليين بالقدر الأكبر من التحفّظ. ولكنّ الرسالة موجودة وكذلك باقات الورد وكل تفاصيل المغامرات البائسة! وهكذا هوى لوبين المُهان الذي أصبح أضحـوكـة الجميـع، من عليائه، وبات بوترولية معبود الجماهير ومثالها، فقد رأى وخمّن واكتشف كلّ شيء. وأكّدت إفادة الآنسة دو سان فيران أمـام قاضي التحقيق حول تفـاصيـل اختـطافها، الفرضيّة التي انطلق منها العبقري الشاب. وبدت كلّ التفاصيل مطابقة لتوقعاته المسبقة. وبدا أن لوبين قد وجد أخيراً من يغلبه.

الحّ بوتـروليـه على والده وأقنعه بأن يمضي بضعة أشهر من الراحـة والاستجمـام قبـل عودته الى جبال السافوا، واصطحبه بنفسه وبرفقة الآنسة دو سان فيران الى نواحي «نيس» حيث أقام الكونت دو جيفر وابنته لقضاء فصل الشتاء. وفي اليوم التالي جاء فالميـرا بوالدتـه وانضمّت الى أصـدقائه الجدد، فأصبحت فيللاّ دو جيفر أشبه بمنتجع ترتاده جالية صغيرة من المتبطلين، ويخضع ليـلاً نهاراً لحراسة نصف دزينةٍ من الحرّاس الذين استقدمهم الكونت لهذا الغرض.

في مطلع تشرين الأوّل/ أكتوبر، عاد بوترولية، تلميذ علم البيان، إلى باريس لاستئنـاف دراسته والإعداد لامتحاناته. واستؤنفت عجلة الحياة، هادئةً هذه المرّة لا تعترضها الحوادث من أي نوع. ما الذي قد يحدث؟ ألم تنتهِ الحرب؟

وَلا بدّ أن لوبين قد أدرك، من جهته، هذه الحقيقة وأيقن أن لا

مفـرّ من الرضوخ للأمر الواقع؛ ولذلك ربّما عُثر ذات يوم، ودون سابق إنذار، على ضحيتيه الأخريين، غانيمار وشرلوك هولمز. فجأة عادا الى الحياة ولم يكن في ظهورهما مجدّداً ما يدعوهما إلى الفخر والاعتزاز. فقد عثر عليهما عامل التنظيفات عند «الكيه دو رفيفر» قبالة مركز الشرطة، مكبّلين ومخدّرين.

لم يتبـدّد ذهولهما إلاّ بعد انقضاء أسبوع كامل، وعلى الأثر استطاعا ترتيب أفكارهما وراحا يرويان ـ أو الأحرى راح غانيمار يروي، لأنّ هولمز لزم صمتاً مطبقاً ـ أنهما قاما برحلة بوليسية على متن اليخت «ليروندیل»، حول أفريقيا، وكانت الرحلة ممتعة ومفيدة حيث مكثـا طليقـين طيلة المـدّة التي استغرقتها باستثناء بعض الساعات التي أمضياها في قعر الأنبار، فيما طاقم اليخت يتنزّه في المـوانىء الغربية. أما كيف وصلا إلى «الكيه دو رفيفر» فلا أحد منهما يذكر شيئاً حول هذا الأمر، إذ لا بدّ أنّهما خدّرا قبل ذلك بأيامٍ عديدة.

كان إطلاق سراح الرجلين بمثـابـة اعتـراف بالهـزيمـة. وفي انسحابه من المعركة كان لوبين يقرّ بها دون مواربة.

وقـد حدث أيضاً ما جعلَ الهزيمة أشد وضوحاً: الإعلان عن خطوبة لويس فالميرا والآنسة دو سان فيران. فقد ساهمت ظروف العيش الحميمـة المستجـدّة في التـوفيق بين مشـاعـر القلبـين العـاشقـين. فالمـيرا، من جهـة، أحبّ مسحة الكآبة في شخصية ريموند؛ أما هي التي كابدت قسوة الحياة فقد وجدت في شخصه ما يلبّي حاجتهـا للإحسـاس بالأمـان والرعـاية، وجدت فيه قوّة واندفاعة مَن ساهم بجرأةٍ في انقاذ حياتها.

وكان الرأي العام ينتظر يوم زفافهما المُعلن بكثير من التوجّس والقلق. ألن يلجأ لوبين الى الهجوم مرّة ثانية؟ أيقبل صاغراً بأن يفقد الى الأبد المرأة التي أحبّها بجنون؟ لمرّتين أو ثلاث اشتبه الحرس بأشخاص غرباء يتجوّلون في جوار الفيلّلا. وذات مساء، تعرّض فالميرا لإطلاق نار، فقد عمد سكّير مزعوم الى اطلاق النار عليه من مسدسه فاخترقت إحدى الرصاصات قبّعته. إلاّ أن هذا كلّه لم يحل دون اتمام مراسيم الزفاف في الموعد المحدّد، وهكذا أصبحت الآنسة دو سان فيران زوجة لويس فالميرا.

بدا الأمر وكأنّ القدر نفسه قد انحاز الى صف بوترولیه ووقّع ببصمته على وثيقة انتصاره. وبدا الجمهور واثقاً من أمر هذا الانحياز فانبثقت، من بين المعجبين به، فكرة مأدبة حافلة تقامُ خصّيصاً لتكريم البطل المنتصر والاحتفال بسحقه لوبين. فكرة رائعة أثارت الحماس الشديد. وفي غضون أسبوعين جمعت تواقيع ثلاثمئة متطوّع. ووزّعت الدعوات على ثانويات باريس، بمعدّل دعوتين لكلٍّ من صفوف علم البيان. وكالت الصحف المدائح وأغدقت الدعاية. وجرت المأدبة كما ينبغي أن تكون: احتفال تمجيد بمآثر البطل.

لكنّه احتفالٌ فاتن وبسيط لأن بوترولیه بطله. إذا كان حضوره كفيلاً بإعادة كل الأمور الى نصابها الطبيعي. فإنه بدا متواضعاً على جاري عادته، مُستهجناً كلّ المبالغات في وصف مآثره والمطوّلات التي أُلقيت في وصف تفوّقه على أبرع رجال الشرطة وأكثرهم شهرة... كان يشعر ببعض الضيق، إلاّ أنه بدا متأثراً. وعبّر عن تأثّره بكلمات قليلة أعجبت الجميع وقيلت بارتباك طفلٍ يخجل أن

يكون محط أنظار الجميع. عبّر عن غبطته واعتزازه. والحقّ يقال أنه مهما بدا متعقلاً واثقاً من نفسه، فلا بدّ أنه شعر، في تلك اللحظات، بنشوةٍ لا تنسى، وكان يقف هناك مبتسماً للأصدقاء، لرفاق المدرسة، لفالميرا الذي قدم خصّيصاً لتكريمه، للسيد دوجيفر ولأبيه.

وما أن أنهى كلامه وكأسه ما زالت في يده، علا صوت في طرف الصالة وشوهد أحد المدعوين يلوّح من بعيد بصحيفة. طُلب منه السكوت فجلس إلاّ أنّ رعشة فضولٍ سرت حول الطاولة وانتقلت الصحيفة من يدٍ ليد، وكلّما اطلع عليها أحد المدعوين أطلق صرخة تعجّب.

- «إقرأوا! إقرأوا!» صرخ أحدهم من الجهة المقابلة.

نهض الجالسون على منصّة الشرف. وتقدم بوترولیه الأب وانتزع من أحدهم الصحيفة وأعطاها لابنه.

- «إقرأ! إقرأ!» صرخ الصوت مجدّداً.

فأجابته أصوات أخرى:

- «إسمعوا! سيقرأ... إسمعوا!».

كان بوترولیه واقفاً في مواجهة الجمهور، وعيناه تبحثان في صحيفة المساء عن المقالة التي أثارت هذا القدر من اللغط. وسرعان ما لفته عنوان وُضع تحته خطٌ بالحبر الأزرق. فرفع يده مُطالباً الحضور بالإصغاء، ثمّ راح يقرأ بصوتٍ يزداد تهدّجاً كلّما توالت المعلومات المذهلة التي تقوّض كل الجهود التي بذلها وتكذّب كلّ

أفكاره حول المسلّة الجوفاء وتُظهر كلّ كفاحه في معركته ضدّ أرسين لوبين:

«رســالة مفتوحة موجّهة من السيّد ماسّيبان، عضو أكاديميّة المدوّنات والفنون الجميلة».

«حضرة المدير

«في ١٧ آذار/مارس ١٦٧٩ ـ وأقول بوضـوح ١٦٧٩، أي إبّان مُلك لويس الرابــع عشر ـ صدر كتيّب صغـير في باريس يحمـل العنوان التالي:

«سرّ الـمسلّة الـجوفاء»

كلّ الحقيقـة تُكشف لأوّل مرّة. تمّ طبـع مئـة نسخـة بفضل جهودي سعياً لإخطار البلاط الملكي.

«عند الساعة التاسعة صباحاً من ذلك اليوم، يوم ١٧ آذار/مارس، عمد المؤلف، وهو شاب أنيق المظهر مجهول الاسم، الى توزيع هذا الكتيّب على الشخصيّات الرئيسة في البلاط. وعند العاشرة، كان قد وزّع أربـع نسخٍ منه عندما اعترضه ضابط الحرس واقتاده الى ديوان الملك ثمّ سارع الى البحث عن بقية النسخ التي تمّ توزيعها. وعندما جمعت النسخ المئة كاملة، وعُدّت وتمّ التثبّت منها بعناية، رمى الملك بها الى النار وأحرقها، باستثناء نسخة واحدة احتفظ بها لنفسه بحضور المؤلّف. ثمّ امر الملك ضابط الحرس باقتياد مؤلف الكتيب للمثول أمام السيد دو سان مارس، فما كان من هذا الأخير إلّا أن أمر بحبس المتّهم في «بينيرول» لبعض الوقت، ثمّ تمّ نقله الى حصن جزيرة «سانت مرغريت». ولم يكن هذا الرجل بالطبع، سوى صاحب «القناع الحديدي» الشهير.

«وما كانت الحقيقة لتذاع، أو على الأقل، جزءٌ منها، لو لم يعمد ضابط الحرس الذي شهد المقابلة، ومُستغلاً غفلة الملك عنه لثوانٍ،

إلى إنقاذ نسخة أخرى من المدفأة قبل أن تلتهمها النيران. وبعد انقضاء ستة أشهر عثر على الضابط جثة هامدة على طريق «غابيون» في «نانت». وكان القتلة قد جرّدوه من ثيابه، وعثر فيما بعد، في جيب سترته الأيمن، على جوهرة من الأنواع النادرة جدّاً ولا تقدّر قيمتها بثمن.

«كما عثر بين أوراقه الشخصيّة على ملاحظات دوّنت بخط يده. لم يأتِ فيها على ذكر الكتيّب الذي انتشله من النيران إلاّ أنّه ضمّنها ملخصاً لفصوله الأولى. تدور هذه الفصول حول سرّ عرفه ملوك انكلترا ثمّ فقدوه عندما انتقل تاج هنري الرابع الأبله المسكين ليزيّن راس دوق يورك، إلاّ أن «جان دارك» أفشت السرّ لملك فرنسا شارل السابع، ومنذ ذلك الحين أصبح «سراً من أسرار الدولة»، ينتقل من ملكٍ إلى آخر بواسطة رسالة مختومة تترك على سرير الملك الميت وقد دوّنت عليها هذه العبارة: «إلى ملك فرنسا». يتضمّن هذا الكتيّب معلومات تتعلّق بوجود كنز رائع وتحدّد موقعه، ويُعتبر هذا الكنز ملكاً للملوك ويتضاعف حجمه على مرّ العهود.

«ولكن بعد انقضاء ١١٤ عاماً، وفيما كان الملك لويس السادس عشر سجين «التامبل»، انفرد أحد الضبّاط المولجين بحراسة العائلة المالكة وقال له:

ـ «يا سيّد، الم يكن أحد أسلافك ضابط حرس في بلاط جدّي الملقّب بالملك الكبير؟

«ـ بلى يا صاحب الجلالة.

ـ إذاً، هلاّ كنت رجلاً... هلاّ كنت رجلاً...؟».

وتردّد لثوانٍ. فأكمل الضابط العبارة.

ـ هلاّ كنت رجلاً من الأوفياء؟ أوه، يا صاحب الجلالة.

«ـ إذن اسمعني جيّداً».

«أخرج الملك من جيبه كتيّباً وانتزع إحدى صفحاته الأخيرة. إلّا أنّه أردف مُستدركاً:

«ـ لا، الأفضل أن أنسخها...».

«تناول ورقة كبيرة وراح يمزّق أطرافها ولم يستبق منها إلّا قصاصة مستطيلة ونسخ عليها خمسة أسطر من النقاط والخطوط والأرقام. ثمّ أحرق الصفحة المطبوعة وطوى القصاصة في ثنيتين وختمها بالشمع الأحمر وأعطاها له.

«ـ يا سيّد، بعد وفاتي ستسلم هذه القصاصة للملكة وستقول لها: «من قبل الملك، يا سيّدتي... لجلالتك ولوريثه...».

«ـ وإن لم تفهم ما أقول؟...».

«ـ ستضيف: «إنها بشأن سرّ المسلّة». وستفهم الملكة على الفور».

«بعد أن أنهى كلامه رمى الكتيّب فوق الجمر المتأجج في الموقد.

«ويوم ٢١ كانون الثاني/يناير اقتيد الى المقصلة.

«لم يستطع الضابط أن يفي بالوعد الذي قطعه أمام الملك إلّا بعد انقضاء شهرين بسبب نقل الملكة الى سجن الكونسيارجري. وأخيراً وبعد أن بذل جهوداً مضنية استطاع ذات يوم أن يقابل ماري أنطوانيت وأسرّ اليها بما يلي:

ـ «من قِبَل الملك، يا سيّدتي، لجلالتك ولوريثه».

«وأعطاها الرسالة المختومة.

«وحين اطمأنت الى ابتعاد الحرس نزعت الختم وبدت عليها الدهشة حيال السطور المرمّزة، ثمّ سرعان ما تبدّلت ملامح وجهها وبدا أنّها فهمت المقصود منها. ابتسمت بشيءٍ من المرارة وسمعها الضابط تخاطبه بهذه الكلمات:

«ــ «لمَ تأخرت كثيراً؟».

«تردّدت قليلاً. أين تخفي هذه الوثيقة الخطيرة؟ وأخيراً فتحت كتاب الصلوات ودسّت القصاصة في جيب خفّي بين جلد الغلاف والورقة التي تغطيه.

«ــ «لمَ تأخرت كثيراً؟...» قالت.

«وبالفعل، فإذا كان من شأن هذه الوثيقة أن تنقذ حياة الملكة فقد وصلتها متأخرة، لأنّ ماري انطوانيت اقتيدت الى المقصلة في شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر التالي.

«إلاّ أن الضابط عثر بين أوراق جدّه العتيد، ضابط الحرس في بلاط لويس الرابع عشر، على المذكرة المكتوبة بخط يده. ومنذ تلك اللحظة كرّس كلّ أوقاته لحلّ هذه القضيّة الغريبة. فقرأ كلّ المؤلفين اللاتينيين، ودرسَ كلّ المصنّفات في تاريخ فرنسا والبلدان المجاورة، وقصد الأديرة وتصفح كتب الحساب والخرائط والمعاهدات، وبهذه الطريقة استطاع أن يعثر على بعض الشواهد المتفرّقة، عبر العصور.

«في الكتاب الثالث من كتاب [الشروحات] لقيصر حول حرب الغوليبل ذُكِر أنّ اثر هزيمة فيريدوفيكس على يد غ. تيتوليوس سابينوس، اقتيد زعيم الكاليتيين أمام القيصر وأنّه افتداءً لروحه أفشى سرّ المسلّة...

«وتفيد معاهدة سان كليرسور أبت، المعقودة بين شارل الساذج و«رول»، زعيم برابرة الشمال، أن اسم «رول» قد ذكر متبوعاً بكل ألقابه وبين هذه الألقاب نقرأ التالي: مالك سرّ المسلّة.

«وتفيد المفكرة الساكسونية (طبعة جيبسون، ص ١٣٤) على ذكر «غيوم الفاتح» أن عقب سارية بيرقه قد جُعل في شكل حدّ مُفولذ وفيه ثقب يُشبه ثقب الإبرة.

«وفي إحدى العبارات التي تلفظت بها جان دارك خلال محاكمتها، تعترف أنها ما زالت تحتفظ بسرّ يجب أن تقوله لملك فرنسا، وكان ردّ القضاة عليها: «أجل، نعلم جيّداً طبيعة هذا السرّ ولذلك يا جان ستلاقين حتفك».

«كان الملك الطيب هنري الرابع يحلف أحياناً «بفضائل المسلّة».

«وقبل ذلك وفيما كان فرنسوا الأوّل يخطب في أشراف الهافر عام ١٥٢٠، نُقلت عنه هذه العبارة التي دوّنها أحد بورجوازيي هونفلور في مفكّرته الخاصة:

«إن ملوك فرنسا يحفظون أسراراً تسوّي مسار الأشياء كما مصير المدن».

«كل هذه الشواهد، يا سيدي المدير، وكل الروايات حول القناع الحديدي وضابط الحرس وحفيد أحفاده، قد وجدتها اليوم في كتيب ألّفه هذا الحفيد بالذات ونُشر في حزيران/يونيو عام ١٨١٥، عشية أو غداة معركة واترلو، أي في حقبة من الاضطراب الهائل فلم يستلفت مضمونه الأنظار.

«ما أهمية هذا الكتيّب؟ قد تقول، لا أهمية له على الإطلاق، وينبغي ألاّ نصدّق ما يتضمّنه من معلومات. في البداية تكوّن لدي انطباع مشابه. ولكن كم كانت دهشتي عظيمة عندما فتحت كتاب «الشروحات» لقيصر ووجدت في الفصل المشار اليه العبارة الواردة في الكتيب! وكذلك الأمر معاهدة سان كلير سور أبت، والمفكرة الساكسونية ومحاكمة جان دارك، أي باختصار، كلّ ما أتيح لي أن أدقق بصحته حتّى الآن.

«وفي الختام أشير الى واقعة يسرد تفاصيلها مؤلّف كتيّب العام ١٨١٥. ويقول إنّه خلال الحملة الفرنسية كان ضابطاً في جيش نابوليون، وذات يوم، إذ نفق حصانه، قرع باب أحد القصور فاستقبله رجل عجوز من قدامى فرسان سان لويس. وعلم خلال

حديثـه الى الرجـل العجـوز أنّ هذا القصر الذي يقع عند طرف مقاطعة «لا كروز» يُسمّى قصر المسلّة وأن لويس الرابع عشر هو الذي شيّـده وسمّاه، وأن القباب والسـهم الذي يشبه المسلّة قد صمّمت بطلب منه. ولا بدّ أن يكون ذلك قد تمّ نحو عام ١٦٨٠.

«١٦٨٠، أي بعـد انقضـاء عام واحـد على صدور الكتيّب واحتجـاز القناع الحديدي. وبهذه الطريقة يتضح كلّ شيء: لقد شاء لويس الرابع عشر، خوفاً من ذيوع السرّ، أن يشيّد هذا القصر ويسميه قصر المسلّة لكي يُعطي للفضوليين تفسيراً ملموساً للسرّ القديم. المسلّة الجوفاء؟ إنه قصر ذو قباب مروّسة يقع عند طرف مقاطعة «لا كروز» ويملكه صاحب البلاط. فيحسب الفضولي أنه اكتشف مفتاح اللغز فيكفّ عن البحث والتدقيق!

«وكان الملك مصيباً في حسبانه، فبعد نيّفٍ وقرنين من الزمن وقع السيـد بوتـروليـه في شرك الفضول، وهذا، يا سيّدي المدير، كلّ الغرض من تدبيج رسالتي هذه. ذلك أنّه إذا كان لوبين قد استأجر قصر المسلّة من السيّد فالميرا باسم البارون آنفريدي، ثمّ عمد الى احتجـاز سجينـه هنـاك، فلأنه افترض سلفاً أن تحريّات السيّد بوترولبه ستقوده الى القصر حتماً، ولأنّه سعياً وراء السلم الذي طالب به، كان يُعدّ للسيّد بوترولبه بالذات ما يمكن أن تسميه شرك لويس الرابع عشر التاريخي.

«ما يُفضي بنا الى التالي، كاستنتاج قاطع لا يُردّ، وهو أنه، أي لوبين، متوسّلاً اشراقاته الخاصة، ودون أن يتوفّر لديه أكثر مما توفـر لدينـا من معطيات، قد توصّل، مُستعيناً بعبقريته الخارقة والتي لا مثيل لها، إلى فك رموز الوثيقة المبهمة. ذلك أنّ لوبين، آخر ورثة ملوك فرنسا، يعرف السرّ الملكي بشأن المسلّة الجوفاء».

وكانت تلك خاتمة المقالة. ولم يتمكّن بوترولبه من قراءة المقالة حتّى الخاتمة. فما أن شرع الكاتب في الكلام على قصر المسلّة، حتى

أصبح بوتروليه عاجزاً عن المتابعة، كأنّه أدرك هزيمته وأحسّ بوطأة المهانة التي تعرّض لها، فترك الصحيفة وتهالك على كرسيّه وقد أخفى وجهه بين راحتيه.

ولم يلبث الحاضرون أن أثارتهم تلك الرواية العجيبة وراحوا يقتربون منه حتّى تحلّقوا من حوله. وساد انتظار صامت يشوبه القلق تحسّباً لما سيقوله إيزيدور وما سيردّ به على مزاعم المقالة.

إلّا أنه مكث ساكناً.

وبرفق دنا منه فالميرا ونظر إليه.

كان إيزيدور بوتروليه يبكي.

الفصل السابع

كتابُ المسلّة

إنّها الرابعة فجراً وإيزيدور لم يعد الى الثانوية. ولن يعود اليها قبل نهاية الحرب الضارية التي أعلنها على لوبين. فقد أقسم في سرّه على خوض هذه الحرب بلا هوادة فيما كان أصدقاؤه ينقلونه بالعربةِ مُتهالكاً وكئيباً. قَسَمٌ أحمق! وحربٌ عبثيّة وغير منطقية! إذ ما الذي يستطيعه، هو، الولد المعزول والأعزل، ضدّ ظاهرة الحيويّة والطاقة التي يمثلها لوبين؟ فمن أية جهةٍ يُساقُ الهجومِ عليه؟ إنه حصن حصين. وكيف النيل منه؟ إنه لا يقهر. وكيف الوصول اليه؟ إنّه المتعذر بلوغه.

الرابعة فجراً... ومجدّداً قبل إيزيدور أن يحلّ ضيفاً على رفيق مدرسته. يقف أمام مدفأة غرفته يتكىء بمرفقيه على حافةِ رخامها وقد أسند ذقنه بقبضتيه المضمومتين، ويستغرق في تأمّل صورته في المرآة.

كفّ عن البكاء، ولا يريد أن يبكي بعد الآن ولا أن يتقلّب مغيظاً فوق سريره، ولا أن ينال منه القنوط كما استبدّ به طيلة الساعتين المنصرمتين. يريد أن يفكّر، ويفهم.

عيناه لا تفارقان عينيه في المرآة، كأنه يودّ بذلك أن يُضاعف قوّة

أفكاره عبر تأمّله صورته المفكّرة، لكي يعثر في أعماق الكائن الماثل قبالته على الحلّ المستحيل الذي لم يعثر عليه في أعماقه هو. لبث على هذه الحال حتى السادسة صباحاً. وفي الأثناء كانت المسألة تتضح تدريجياً مُجرّدة من كافة التفاصيل التي تضاعف غموضها وتعقيدها، وتطرح نفسها عليه فظّة وصريحة وبدقة معادلة لا شبهة فيها.

بلى، لقد أخطأ. بلى، وتفسيره للوثيقة مغلوط. فكلمة «مسلّة» لا تشير الى قصر مقاطعة «لا كروز». وكذلك الأمر، كلمة «آنسات» لا تعني ريموند دو سان فيران وابنة عمّها، ما دام نصّ الوثيقة يعودُ إلى قرونٍ سحيقة.

إذاً، ينبغي أن يعود الى البداية. كيف؟

إن منطلق كلّ عمل توثيقي حول الموضوع ينبغي أن ينطلق من الكتيِّب الصادر في عهد لويس الرابع عشر. والحالُ، انّ النسخ المئة التي طبعها القناع الحديدي العتيد قد أحرقت باستثناء نسختين. ضابط الحرس سرق إحداهما ثم فقدها. والأخرى احتفظ بها لويس الرابع عشر وأورثها للويس الخامس عشر لتصل الى لويس السادس عشر الذي أحرقها. ولكن هناك نسخة عن الصفحة الأساسيّة في الكتيِّب، الصفحة التي تشتمل على حلّ المسألة، أو على الأقلّ الحلّ المرمّز، تلك الصفحة التي سلّمت الى ماري أنطوانيت فدسّتها تحت غلاف كتاب الصلوات.

أين أصبحت هذه القصاصة؟ أهي نفسها تلك القصاصة التي أمسكها بوترولیه بيديه والتي انتزعها لوبين منه بواسطة الكاتب بريدو؟ أم انها لا تزال في كتاب ماري انطوانيت؟

وتعود المسألة لتطرح على النحو التالي: «ماذا حلّ بكتاب الملكة؟».

بعد استراحة لم تستغرق سوى ثوانٍ معدودات، سأل بوترولیه والد صديقه، وهو خبير مجموعات أثرية وفنية شهير، وغالباً ما يُستدعى بصفة غير رسمية للمساعدة في هذا المجال، وكان آخر هذه الاستدعاءات ما طلبه مدير أحد متاحفنا من مساعدة في إصدار فهرس متخصص.

ـ «كتاب الصلوات الذي كانت تحتفظ به ماري أنطوانيت؟ قال الخبير. لقد أعطته الملكة لخادمتها وكلّفتها بإيصاله الى الكونت دو فرسن. وقد حافظت أسرة الكونت على الوديعة بأمانة وورع. أمّا اليوم فتجده معروضاً في واجهة، وضع فيها منذ خمس سنوات.

ـ في واجهة؟

ـ في إحدى واجهات متحف كرنافاليه، ببساطة.

ـ ومتى يفتح هذا المتحف أبوابه؟

ـ في غضون عشرين دقيقة».

في اللحظة التي فُتحت فيها أبواب فندق السيّدة دو سيفينيه القديم، كان إيزيدور يترجل من العربة برفقة صديقه.

ـ «انظر، إنّه السيد بوترولیه!».

حيّت وصوله عشرة أصوات من هنا وهناك. ولدهشته البالغة أدرك أنها جمهرة الصحفيين الذين يتابعون قضية «المسلّة الجوفاء». وصرخ أحدهم قائلاً:

- «أليس أمراً غريباً! لقد راودتنا جميعاً الفكرة نفسها. ولكن حذار، قد يكون أرسين لوبين بين الحاضرين».

دخلوا معاً. ولم يلبث مدير المتحف أن وضع نفسه بتصرّفهم ما أن بلغه نبأ قدومهم، وأرشدهم الى الواجهة المعنية وأشار في داخلها الى مجلّد بائس خالٍ من أي نقش أو زينة ولا تبدو عليه أي من سمات الطابع الملكي. وبرغم ذلك سرت في أعماقهم رعشة انفعال حيال هذا الكتاب الذي لمسته أصابع الملكة في تلك الأيام المأساوية، والذي نظرت اليه عيناها المتورّمتان بالدموع. ومكثوا على هذه الحال لا يجرؤ أحدهم على الإمساك به وتفتيشه لشعورهم أن قيامهم بمثل هذا العمل يُشبه تدنيس المقدّسات.

- «هيّا يا سيّد بوترولیه، إنها مهمّتك».

أمسك بالكتاب متوجّساً، وبدا له أن أوصافه مطابقة لتلك التي أوردها مؤلّف الكتيب الثاني. ما يلفت فيه أوّلاً هو الغلاف المصنوع من الرَقّ، الرق المتّسخ المسوّد والتالف في بعض مواضعه وتحته التجليد الفعلي، من الجلد الخشن.

وكم ارتعشت يدا بوترولیه حين بدأ بالبحث عن الجيب الخفيّ! أيكون مجرّد خرافة؟ أم أنه سيعثر على الوثيقة التي تركها لويس السادس عشر وأودعتها الملكة في رعاية صديقها الوفي؟

عند مقلب الغلاف الأوّل، من الجهة العليا لم يجد أثراً للجيب.

- «لا شيء»، تمتم قائلاً.

- لا شيء» ردّدوا جميعاً في حالةٍ من الاضطراب.

إلّا أنه حين تفحّص الغلاف الأخير، وبعد أن ضغط بقوّة على

طرف الرَقّ من الأسفل عثر على ما يُشبه الجيب بين الرقّ والتجليد. فدسّ أصابعه... بل أحسّ بشيء ما يلامس أصابعه... إنها قصاصة ورق...

- «أوه! قال بلهجة انتصار، هذه... ولكن أيُعقل هذا؟

- هيّا أسرع! أسرع! صرخ أحدهم. ماذا تنتظر؟».

وسحب من الجيب الخفيّ ورقة مطوية.

- «هيّا، إقرأ! ثمة كتابة بالحبر الأحمر... انظر كأنه دم.. دم باهت.. هيّا إقرأ!».

فقرأ:

«إليك يا فرسن. من أجل ابني. ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٧٩٣... ماري انطوانيت».

وفجأة انطلقت صرخة تعجّب من صدر بوترولیه. تحت توقيع الملكة رأى كلمتين مدوّنتين بالحبر الأسود وتحتهما إمضاء... كلمتين: «أرسين لوبين».

تناوبوا جميعهم على قراءة الورقة وأطلق كلٌّ بدوره صرخة تعجّب مماثلة:

- «ماري أنطوانيت... أرسين لوبين».

ران صمت مطبق. هذا التوقيع المزدوج، هذان الاسمان مجتمعان، إذ عثر عليهما في جيب كتاب الصلوات، حيث دفن منذ قرن ونيّف من الزمن، نداء الملكة اليائسة، وهذا التاريخ الرهيب، ١٦ تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٧٩٣، يوم قُطع الرأس الملكي، كلُّ هذا كان يُضفي على المكان مناخاً مأساوياً كئيباً.

ـ «أرسين لوبين!»، غمغم أحد الأصوات وكأنّه يشير بذلك الى مقدار الرعب الذي قد يثيره توقيع هذا الاسم الشيطاني على الورقة المقدّسة.

ـ «أجل، أرسين لوبين، ردّد بوتروليه. لم يستطع صديق الملكة أن يدرك معنى استغاثة المرأة الموشكة على الموت. وعاش حياته في صحبة التذكار الذي أرسلته اليه صديقته المحبوبة، ولم يفطن إلى السرّ المدفون في هذا التذكار. أمّا لوبين فقد عرف كلّ شيء... وأخذ.

ـ وما الذي أخذه؟

ـ الوثيقة، بحق السماء! الوثيقة المكتوبة بخط يد لويس السادس عشر، تلك الوثيقة التي حملتها، أنا بيديّ. الأوصاف ذاتها، والحجم ذاته والختم ذاته. الآن أدرك سبب استماتة لوبين في انتزاعها مني، فلو كنت لا أزال أحتفظ بها لاستطعت أن أصل الى شيء ما لمجرّد تفحّص الورق والأختام... إلخ.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنّه ما دامت الوثيقة التي أعرف نصّها صحيحة، لأنني رأيت الأختام الحمراء، ولأن ماري أنطوانيت تؤكد، عبر العبارة المكتوبة بخط يدها، أنّ كل رواية الكتيّب التي نقلها السيّد ماسييان صحيحة، ولأنّ هناك بالفعل قضيّة تاريخية تتعلّق بالمسلّة الجوفاء، لكلّ هذه الأسباب أنا واثق من النجاح.

ـ وكيف ذلك؟ سواء كانت الوثيقة صحيحة أم لا، فإذا لم تتوصّل إلى حلّ رموز الكتابة لن يكتب لك النجاح لأنّ لويس السادس عشر قد أحرق الكتاب الذي يتضمن حلّ المسألة.

ـ هذا صحيح. ولكن النسخة الثانية التي أنقذها ضابط الحرس في بلاط لويس الرابع عشر من بين النيران لم تتلف.

ـ وما أدراك أنت؟

ـ برهن لي على العكس».

سكت بوتروليه ثمّ، متمهّلاً، مغمضاً عينيه كأنّه يسعى إلى إيضاح وتلخيص ما يدور في رأسه، قال:

ـ «عندما أصبح ضابط الحرس مالكاً للسرّ، راح يكشف عن أجزاء متفرّقة منه في دفتر يوميّاته الذي عثر عليه حفيد حفيده. ثمّ لزم الصمت، وتكتّم على مفتاح اللغز. لماذا؟ لأنّ إغراء استخدام السرّ لمصلحته قد بدأ يتسرّب الى كيانه، ثمّ لم يلبث أن استسلم له. والبُرهان على ذلك؟ عملية قتله. والبرهان؟ الجوهرة الرائعة التي وجدت في أحد جيوبه، والتي أخذها، بلا ريب، من الكنز الملكي المخبّأ في مكان لا يعرفه أحد، ولا بدّ أن هذا المخبأ هو الذي يدور حوله سرّ المسلّة الجوفاء. لقد ألمح لوبين الى هذا الأمر أمامي: ولم يكن لوبين كاذباً.

ـ إذاً ما هو استنتاجك، يا بوتروليه؟

ـ أخلص من كلّ ما سبق الى القول انّه ينبغي إثارة ضجة إعلامية كبيرة حول هذه الحكاية ولتنشر الصحف، كلّ الصحف، أننا بصدد البحث عن كتاب يحمل عنوان: «كتاب المسلّة». وقد يعثر عليه أحد ما في احدى مكتبات المناطق المنسيّة».

على الفور كُتبت المقالة، ودون أن ينتظر ما ستثيره من ردود فعل محتملة، باشر بوتروليه تحريّاته.

كان عليه أن ينطلق من طرف خيط: فقد وقعت جريمة القتل في نواحي غابيون. وفي اليوم نفسه قصد هذه المدينة. لم يكن يحسب بالطبع أنه سيتمكن من كشف تفاصيل تلك الجريمة التي وقعت منذ أكثر من مئتي سنة، ومع ذلك كانت تحدوه قناعة ما بأن بعض الجرائم تترك أثراً في ذكريات سكان المنطقة وتقاليدهم.

ولا بدّ أن الصحف المحليّة تنشر بعض هذه الذكريات. فذات يوم قد يعثر أحد مثقفي المناطق، أو أحد المهتمين بالخرافات القديمة، أو أحد الرواة المهتمين بسرد وقائع الحقب المنصرمة، قد يعثر أحد هؤلاء إذاً على واقعة أو أثر ما فيكتب حوله مقالة لصحيفة محليّة أو دراسة يرسلها الى الأكاديمية المختصة في عاصمة منطقته.

استطاع أن يتحدّث الى ثلاثة أو أربعة باحثين من هذا الطراز. وتمكّن بمساعدة أحدهم، وهو كاتب عدل عجوز، أن يطلع ويدقق في سجلّات السجن وفي سجلّات المحاكم وقيود أحوال الرعيّة. ولم يعثر على أية إشارة إلى مقتل أحد ضبّاط الحرس في القرن السابع عشر.

لم يُحبطه إخفاق المحاولات الأولى وواصل تحريّاته في باريس حيث قد يجد في محفوظاتها ملفّات التحقيق في القضيّة. إلّا أن جهوده هناك لم تُسفِرْ أيضاً.

إلّا أن طرف خيط آخر دفعه لمتابعة تحريّاته في اتجاه آخر. أليس بامكانه معرفة اسم ضابط الحرس الذي هاجر حفيده والذي خدم حفيد حفيده في جيوش الجمهورية وتمّ الحاقه بسجن «التامبل»

أثناء اعتقال الأسرة المالكة، وخدم تحت لواء نابوليون وشارك في الحملة الفرنسية؟

وبعد تدقيق وطول أناة تحصّلت لديه لائحة أسماء من بينها اسمان متطابقان تقريباً: السيّد دو «لاربيري» في عهد لويس الرابع، والمواطن «لاربري» في حقبة الطغيان.

كان ما أحرزه بوترولييه تقدّماً ملحوظاً في متابعة القضيّة. وكشف عمّا توصل اليه عبر مقالة صغيرة نشرت في الصحف يطلب فيها كافّة المعلومات المتوفّرة حول المدعو «لاربيري» أو حول أحفاده.

وجاءه الجواب من السيّد ماسيّبان، محقق الكتيّب الثاني وعضو الأكاديمية:

«حضرة السيّد،

«أفيدكم علماً بمضمون إحدى الفقرات التي وردت في كتاب «فولتير» المخطوط: «عصر لويس الرابع عشر» (الفصل الخامس والعشرون: «نوادر وحكايات عن ملكه») وقد تمّ حذف الفقرة المذكورة من كافة الطبعات الصادرة حتى اليوم.

«لقد سمعت في أحد مجالس المغفور له السيّد دوكو مارتان، رئيس ديوان الأموال وصديق الوزير شاميّيار، أن الملك غادر على عَجلٍ، ذات يوم في عربته الملكيّة بعد أن بلغه نبأ اغتيال السيّد دو لاربيري وسرقة مجوهرات ثمينة كانت في حيازته. وبدا آنذاك في حالة من الانفعال الشديد وكان يردّد: «لقد ضاع كل شيء... لقد ضاع كل شيء...». وفي العام التالي صدر أمر ملكي بنفي ابن لاربيري وابنته، زوجة الماركيز دو فيلين، وفرض الاقامة الجبريّة عليهما في ممتلكاتهما في البروفانس وبروتانيه. إن الصلة بين الحادثتين أمرٌ لا يرقى اليه الشك.

«لا بل وأضيف من جهتي أنّ ما يؤكّد الصلة بين الواقعتين هو ما أورده «فولتير» أيضاً بأنّ السيد شامبيار كان آخر وزير اطلع على سرّ القناع الحديدي الغريب.

«لا بدّ أنّك أدركت، يا سيّد، حجم الفائدة التي نستقيها من تلك الفقرة والصلة البديهيّة التي تربط تلقائياً بين المغامرتين. أما أنا فلا يسعني التقدّم بفرضيّات بالغة الدقّة حول سلوك، وحول شكوك، وحول مخاوف لويس الرابع عشر في مثل تلك الظروف، ولكن ألا يحقّ لنا، من جهةٍ أخرى، وبما أنّ للسيد دو لاربيري ابناً أصبح على الأرجح جدّ المواطن الضابط لاربري، وابنةً، ألا يحق لنا الافتراض بأن قسماً من الأوراق التي تركها لاربيري قد انتقل الى الابنة وانها بين الأوراق المذكورة عثرت على النسخة الشهيرة التي أنقذها ضابط الحرس من الاحتراق؟

«لقد دقّقت في دليل القصور. ووجدتُ أن في نواحي «رين» ثمّة من يُدعى البارون دو فيلين. فهل يكون البارون المذكور أحد أحفاد الماركيز؟ ومهما يكن من أمر ما كان، فقد كتبتُ يوم أمس رسالةً الى هذا البارون أسأله فيها إذا كان يحتفظ بكتاب قديم ترد في عنوانه كلمة «مسلّة». وما زلت أنتظر رسالته الجوابيّة.

«وإنّه لمن دواعي سروري أن أتحدّث اليكم حول هذه الأمور. وإذا كانت زيارتي لا تكبّدكم عناء المشقة الكبيرة «فأهلاً بكم. وتفضلوا، يا سيّدي، بقبول... الخ.

«ملاحظة: بطبيعة الحال، لطالما امتنعت عن اطلاع الصحف على مثل هذه الاكتشافات الصغيرة. والآن وقد اقتربتم من الهدف، أرى أن التكتم التام واجب على الجميع».

وكان بوترولیه یشاطره الرأي في ذلك. لا بل سيذهب في حذره الى أبعد حدّ: ففي صباح ذلك اليوم بالذات ألحّ عليه صحفيّان للإدلاء

بتصريح ما، فما كان منه إلّا أن زوّدهما بمعلومات هوائية غير دقيقة حول حالته النفسية ومشاريعه المرتقبة.

وخلال فترة بعد الظهر هرع لزيارة ماسيّيان الذي يقطن الرقم ١٧ في «كيه فولفير». وهناك فوجيء بأن ماسيّيان اضطر للمغادرة على جناح السرعة بعد أن ترك رسالة له في حال استطاع المجيء. ففتح إيزيدور الرسالة وقرأ:

«لقد تلقيت برقية عاجلة اثارت فيّ بعض الأمل. سأغادر فوراً وأمضي ليلتي في رين. أما أنت فتستطيع أن تسافر في قطار المساء وبدون أن تتوقّف في رين تابع رحلتك الى محطة فيلين. وسنلتقي في القصر الذي يبعد أربعة كيلومترات عن هذه المحطة».

لقد استحسن بوتروليه خطة الرجل، وخصوصاً فكرة أن يصل الى القصر في الوقت الذي يصل فيه ماسيبّان. تحسّباً لأية هفوة قد يرتكبها نظراً لقلّة خبرته في هذا المجال. عاد الى منزل صديقه وأمضى بقية النهار في صحبته. وعند المساء استقل قطار بروتانيه السريع. وعند السادسة صباحاً وصل الى فيلين. واجتاز الكيلومترات الأربعة سيراً على قدميه بين الغابات الكثيفة. ومن بعيد لاح له القصر الريفي المستطيل عند أعلى التلّة، وبدا من طراز هجين يتراوح بين طرازي عصر النهضة ولويس ـ فيليب، إلّا أن ذلك لم يفقده شيئاً من مظهر الأبّهة بأبراجه الأربعة وجسر المدخل المتحرّك المغطى باللبلاب.

أحسّ بوترولية أن خفقات قلبه تتسارع كلّما اقترب من المكان. فهل كان حقاً في طريقه إلى خاتمة المطاف؟ وهل يجد مفتاح السرّ في القصر؟

وكانت خشيته كبيرة. فكلّ ذلك بدا له أجمل مما ينبغي وراح يسـأل نفسـه عمّا إذا كان ينقاد هذه المرّة أيضاً لخطة جهنمية صمّمها لوبين بعناية، وماسيّيان بالذات، لماذا لا يكون، مثلاً مجرّد أداة طيّعة بين يدي عدوّه اللدود.

ثمّ انفجر ضاحكاً.

مهلاً، إنها هواجس مثيرة للضحك. وكأنّ لوبين رجلٌ لا يخطىء واسع الحيلة يعلمُ بالأشياء مسبقاً، نوع من الإله القادر الذي لا يقاوم. هراء! لوبين يُخطىء، ولوبين يجد نفسه، هو أيضاً، مُرغماً على مراعـاة الظروف، لوبـين يرتكب الهفوات، ولأنه ارتكب هفوة فقدانه الوثيقة، بدأت أتغلّب عليه. تلك كانت البداية. وكلّ الجهود التي يبذلها الآن، ليست في المحصلة، إلاّ محاولةً منه لاستدراك تبعات تلك الهفوة. وإذ عاودته البهجة والثقة بالنفس، قرع الباب.

ـ «أيةُ خدمة، يا سيّدي؟ قال خادم عند العتبة.

ـ هل لي بمقابلة البارون دو فيلين؟».

وأعطاه بطاقـته.

ـ «سيّدي البارون لم يستيقظ بعد، ولكن إذا شاء سيّدي أن ينتظره...

ـ ألم يحضر شخص آخر لمقابلة البارون، رجلٌ ذو لحية بيضاء منحني القامة قليلاً؟»، قال بوترولیه الذي يعرف أوصاف ماسّيیان من خلال الصور التي نشرتها الصحف.

ـ «بـلى، لقـد وصل هذا السيّد منذ عشر دقائق، وأدخلته الى الردهة. أرجو من سيّدي أن يتبعني أيضاً».

كان اللقاء بين ماسيّيان وبوتروليه لقاءً ودياً وحارّاً.. فقد عبّر إيزيدور عن امتنانه للمعلومات القيّمة التي زوّده بها العجوز، كما عبّر له ماسّييان عن اعجابه الكبير به بعبارات مفعمة بالودّ والحرارة. ثمّ تبادلا الآراء حول الوثيقة وحول الفرص المتاحة للحصول على الكتاب، وردّد ماسيّيان على مسامع بوتروليه ما استطاع أن يعرفه بخصوص السيّد دو فيلين. فالبارون رجلٌ في الستين من عمره اختار، بعد وفاة زوجته منذ سنوات بعيدة، أن يحيا في عزلةٍ تامة إلى جانب ابنته، غابرييل دو فيلمون، التي فجعت بفقدان زوجها وابنها البكر على أثر حادث سيّارة.

ـ «سيّدي البارون يرجو منكما، أيّها السيّدان، الصعود اليه».

وقادهما الخادم الى الطبقة وأدخلهما الى حجرة فسيحة عارية الجدران وخالية من الأثاث تقريباً باستثناء بعض المكاتب الصغيرة والخزائن والطاولات التي وضعت عليها كميات من الأوراق والسجلّات. استقبلهما البارون بمودّة ظاهرة وبتلك الرغبة في الكلام التي يُبديها عادةً الأشخاص الذين اختاروا حياة العزلة التامة. فوجدا صعوبة بالغة في شرحِ غرضِ زيارتهما.

ـ «آه! بلَى، أعلم، لقد كتبت لي رسالة بهذا الشأن يا سيّد ماسيّيان. أنت تبحث عن كتاب يتحدّث عن مسلّة ما، والمفترض أن أكون ورثته عن أجدادي؟

ـ بالضبط.

ـ إذاً أقول لكما منذ البداية أنني كنت على خلافٍ حادّ مع أجدادي. كانت العائلة حريصة على تقاليد وقناعات غريبة في ذلك

الوقت. أما أنا فأشعر بأنني أنتمي الى قناعات العصر الذي أحيا فيه. فقطعت صلاتي بالماضي.

ـ أجل، قال بوترولیه معترضاً وقد عيل صبره، ولكن ألا تذكر أنك رأيت هذا الكتاب؟

ـ بلى، طبعاً! لقد أرسلت له برقية عاجلة بهذا الشأن، قال مخاطباً ماسيبان الذي بدا منزعجاً يذرع أرجاء الردهة جيئةً وذهاباً محدّقاً في النوافذ العالية. بلى، بالطبع!... أو في الأقلّ لقد بدا لابنتي أنها رأت هذا العنوان بين آلاف الكتب التي تزحم المكتبة. ذلك أن القراءة بالنسبة لي، أيّها السادة... حتّى أني لا أقرأ الصحف...! إبنتي تقرأ أحياناً، فقط حين يكون صغيرها جورج، الذي تبقّى لها من هذه الدنيا، في حالة صحية جيّدة! وفقط حين تكون عقاراتي جيّدة وماشيتي على خير ما يرام!... أترىان سجلّاتي... أنا أحيا فيها، أيّها السادة... واعترف لك أنني لم أفقه كلمة واحدة من تلك الحكاية التي أطلعتني عليها في رسالتك يا سيد ماسيّبان...».

سارع إيزيدور بوترولیه الذي أصغى لهذه الثرثرة ساخطاً، إلى مقاطعته بفظاظة:

ـ «عفوك يا سيّدي ولكن ماذا عن الكتاب...؟

ـ لقد بحثت عنه ابنتي. منذ الأمس وهي تبحث عنه.

ـ إذاً؟

ـ إذاً، لقد عثرت عليه، عثرت عليه منذ ساعة أو اثنتين. لحظة وصولكما...

ـ وأين هو الآن؟

ـ أين هو؟ لقد وضعته على هذه الطاولة.. هناك...».

قفـز إيزيدور. وهناك وجد الكتاب فوق كومة من الأوراق غير المـرتبة؛ كتاب صغير مغلّف بالسختيان الأحمر. ووضـع يده عليه بقوّة كأنّه بذلك يحول دون أن يمسّه كائن سواه... أو كأنّه أيضاً لا يجرؤ، هو نفسه، على الامساك به.

ـ «ماذا إذاً، صرخ ماسيّبان لشدّة انفعاله.

ـ لقد وجدته... إنّه هنا... والآن قُضي الأمر..

ـ ولكن العنوان... هل أنت واثق؟...

ـ بحقّ السماء! أنظر».

وأشار الى الحروف المذهبة التي نقشت على الجلد الأحمر! «سرّ المسلّة الجوفاء».

ـ «هل اقتنعت؟ هل أصبح مفتاح السرّ بين أيدينا أخيراً؟

ـ الصفحة الأولى... ماذا ترى فيها؟

ـ إقـرأ: «كـل الحقيقة تُكشف لأوّل مرّة. تم طبع مئة نسخة بفضل جهودي سعياً لإخطار البلاط الملكي».

ـ إنه هو، إنه هو، تمتم ماسيّبان بصوت متهدّج، إنها النسخة التي انتزعت من بين النيران! إنه الكتاب الذي أحرقه لويس الرابع عشر».

راحـا يتصفحـانه. كان القسم الأوّل منه يتضمّن الشروحات التي أوردها الضابط دو لاريبري في دفتر يوميّاته.

- «اقلب الصفحات، هيّا، قال بوترولية مُتعجّلاً الوصول الى الحلّ.

- كيف أقلب الصفحات! لن أفعل. فنحن نعلم حتّى الآن أنّ الرجل ذا القناع الحديدي قد سجن لأنّه علم بسرّ الأسرة المالكة في فرنسا وأراد أن يذيعه! ولكن كيف استطاع أن يكشف السرّ؟ ولماذا أراد أن يذيعه؟ ثمّ من يكون هذا الرجل الغريب؟ أهو أخٌ غير شقيق للويس الرابع عشر، كما زعم فولتير، أم أنّه الوزير الإيطالي ماثيولي، كما تؤكّد الأدبيات الحديثة؟ سحقاً! إنها أسئلة بالغة الأهمية!

- سنرى في ما بعد! في ما بعد! أجاب بوترولية معترضاً وكأنه يخشى أن يتلاشى الكتاب بين يديه قبل أن يهتدي الى حلّ اللغز.

- ولكن، قال ماسيّيان الذي تستهويه مثل هذه التفاصيل التاريخية، لدينا كلّ الوقت، في ما بعد... لذلك دعنا نقرأ الشروحات».

وبغتة سكت بوترولية. الوثيقة! في وسط إحدى الصفحات، لجهة اليسار، لمحت عيناه السطور الخمسة الغامضة والمؤلّفة من أرقام ونقاط. وسرعان ما تبيّن له أن نصّ هذه السطور مطابق للنصّ الذي انكبّ على تحليله. كان ترتيب الاشارات هو نفسه... والفواصل نفسها التي أتاحت له تركيب كلمة «آنسات» واكتشافه، على التوالي، كلمتي «المسلّة الجوفاء».

وفوق هذه السطور دوّنت الملاحظة التالية: «لقد قام الملك لويس الثالث عشر بحصر كلّ الإرشادات اللازمة في الجدول التالي نصّه».

ويلي الملاحظة نصّ الجدول. وفي أسفله يرد شرح الوثيقة.

فقرأ بوترولِيه بصوتٍ متقطّع:

«كما نرى، حتّى لو تمّ استبدال الأرقام بأحرف ساكنة فإنّ هذا الجدول لن يعين على ايجاد الحلّ. إذ يمكن القول إن شرط العثور على حلٍّ لهذا اللغز هو أن يعرف الباحث ماهية اللغز أوّلاً. فكلّ ما يُعطاه أولئك الذين لهم الدراية بشعاب المتاهة هو طرف خيط. فلنمسك بطرف الخيط هذا فأرشدكم في مسعاكم.

«لنأخذ السطر الرابع أوّلاً. السطر الرابع يشتمل على قياسات وإرشادات. فباتّباعنا الارشادات وحفظنا للقياسات المدوّنة نصلُ الى الغاية من دون ريب، ولكن بالطبع شريطة أن نكون مُدركين أين نقف وإلى أين نسير، أي باختصار أن نكون مدركين للمعنى الحقيقي للمسلّة الجوفاء. وهذا المعنى تتضمّنه السطورالثلاثة الأولى. السطر الأوّل يُقرأ على النحو التالي لانتقامي من الملك، وبأية حال لقد سبق لي أن حذّرته...».

ـ «ماذا هنالك؟ ماذا؟ قال ماسّيبان.

ـ هذا الكلام ليس له معنى.

ـ بالفعل، قال ماسيّبان. «السطر الأوّل يُقرأ على النحو التالي لانتقامي من الملك...» ما معنى هذا الكلام؟

ـ سحقاً! صرخ بوترولِيه.

ـ ماذا جرى؟

ـ لقد مُزّقت! صفحتان! الصفحتان التاليتان!... انظر!...».

كانت يداه ترتجفان لشدّة ما أحسّ بالغيظ والأحباط. إقترب ماسيبان وتمعّن في صفحات الكتاب:

ـ «هذا صحيح ما زالت نتفُ الصفحتين عالقة. ويبدو أن الأثر حديث العهد. لم يعمد الفاعل الى قصّ الورقتين بل انتزعهما.. انتزعهما بعنف... انظر، كلّ الصفحات الأخيرة تبدو مدعوكة بعض الشيء.

ـ ولكن مَنْ؟ من؟ قال إيزيدور مغيظاً... أحد الخدم؟ أحد شركاء لوبين؟

ـ ولكن ربّما حدث ذلك منذ بضعة أشهر. قال ماسيّبان مستدركاً.

ـ سيّان... فلا بدّ أن يكون هناك من استطاع أن ينبش الكتاب، أن يعثر عليه... إذاً، أنت، يا سيّد، صرخ بوتروليه مخاطباً البارون، ألا تعلم شيئاً حول هذا الأمر؟... ألا تتهم أحداً؟

ـ لنسأل ابنتي.

ـ أجل.. أجل.. أحسنت.. فقد يكون لديها ما تقوله...».

نادى السيّد دو فيلين على الخادم. وفي غضون دقائق انضمّت اليهم السيّدة دو فيلمون. كانت ابنة البارون امرأة شابة تبدو على محيّاها معالم الألم والصبر. فبادر بوترولیه الى سؤالها:

ـ «هل وجدتِ الكتابَ في المكتبة، يا سيّدتي؟

ـ أجل، وجدته بين كتب أخرى كانت لا تزال في رزمة مختومة.

ـ وهل قرأته؟

ـ أجل، مساء أمس.

ـ وعندما قرأته هل لاحظت أنّ هناك صفحات ناقصة، هنا؟ تذكّري جيداً. الصفحتان التاليتان لجدول الأرقام والنقاط هنا؟

ـ لا، أبـداً، على الاطلاق، قالت مذهـولة: لقد كانت صفحات الكتاب كاملة.

ـ ومع ذلك لقد انتزعت منه صفحتان...

ـ إنه أمر مُستغرب... لقد أبقيت الكتاب في غرفتي طيلة الليلة الماضية.

ـ وهـذا الـصبـاح؟

ـ هذا الصبـاح، أحضرت الكتاب بنفسي ووضعته هنا عندما أبلغنا الخادم بوصول السيد ماسيّيان.

ـ إذاً؟

ـ إذاً، أنا لا أرى... إلّا إذا... لا، لا..

ـ مـاذا؟

ـ جورج.. ابني.. هذا الصباح... كان يلهو بالكتاب».

وغادرت مُسرعةً يرافقها كلٌّ من بوترولیه وماسيیان والبارون. لم يجدوا الطفلَ في غرفته. بحثوا عنه في كلّ مكان. وفي آخر المطاف وجدوه خلف القصر مُنهمكاً باللعب. إلّا أن اضطرابهم وأسئلتهم التي تنمّ عن لهجة تأنيب لم تسفر، إذ راح الطفلُ يصرخ مذعوراً ومنتحبـاً. هرع الجميع في كلّ اتجاه وناحية. واستجوب الخدم، وشهـد القصرُ بلبلةً لا توصف. وفي الأثناء كان بوترولیه في ذروة حيرته يشعر بأنّ الحقيقة تتوارى مبتعدةً عنه كما ينسرب الماء من بين أصابع اليدين. إلّا أنه بذل كلّ ما في وسعه لكي يتمالك نفسه وامسك بذراع السيّدة دو فيلمون واصطحبها مجدّداً الى الصالون يتبعهما البارون وماسيّيان، ثمّ قال لها:

ـ «صفحات الكتاب ناقصة، فليكن، لقد انتزعت منه صفحتان... ولكنّك قرأت هاتين الصفحتين أليس كذلك يا سيدتي؟

ـ بلى.

ـ وتذكرين جيداً مُحتواهما؟

ـ أجل.

ـ هلاّ أطلعتنا عليه؟

ـ حرفيّاً. لقد قرأت الكتاب بفضول كبير، إلاّ أن ما لفتني بالفعل هو محتوى هاتين الصفحتين نظراً لأهمية ما تكشفانه، أحسب أنه أهمّ ما في الكتاب.

ـ إذاً، هيّا يا سيّدتي، تكلّمي، أتوسّل اليك. الأمر بالغ الخطورة. تكلمي، أرجوك، فالدقائق التي تضيع لا تعوّض. المسلّة الجوفاء...

ـ إنه أمر بسيط! المسلّة الجوفاء تعني...».

في تلك اللحظة دخل خادم.

ـ «رسالة لسيّدتي...

ـ أمر غريب... لقد مرّ الساعي من قبل.

ـ لقد أتى بها صبيّ لا أعرفه».

فتحت السيّدة دو فيلمون الرسالة وقرأتها ثمّ لم تلبث أن وضعت يدها على صدرها، ناحية القلب، وكأنها موشكة على السقوط وبدا وجهها مترباً ومذعوراً.

سقطت الورقة من يدها. فلمّها بوترولیه، ودون أن يستأذن، قرأ بدوره:

«إلزمي الصمت... وإلاّ فابنك النائم لن يستيقظ أبداً...».

ـ «إبني، إبني...» قالت متلعثمة، وقد أقعدها الهلع عن الذهاب فوراً لنجدةِ الطفل المهدّد.

طمأنها بوترولية.

ـ «هذا التهديد غير جدّي... إنه مجرّد دعابة... لنرَ قليلاً، ما الجدوى من كل هذا، ولمصلحة مَن؟

ـ إلاّ إذا كان أرسين لوبين، قال ماسيبان».

أشار عليه بوترولية بالسكوت. فقد كان يعلم، وحقّ السماء جيّداً أنّ العدو في الأنحاء، مُجدَّداً، مُتربّصاً ومتأهّباً لكل شيء، ولذلك، بالضبط، أراد أن ينتزع من فم السيّدة دوفيلمون زبدة الكلام الموعود منذ زمنٍ طويل، أن ينتزعها توّاً وعلى الفور.

ـ «أتوسّل اليك يا سيّدتي؛ تمالكي نفسك... كلّنا هنا من حولك... وما من خطر على الاطلاق...».

هل تتكلم؟ كان يعتقد أنها ستفعل، لا بل يأمل أن تفعل. فغمغمت بكلام غير مفهوم. إلاّ أن الباب فُتح مجدّداً ودخلت الخادمة هذه المرّة وبدا عليها الاضطراب.

ـ «السيّد جورج.. يا سيّدتي.. السيّد جورج».

فجأةً استعادت الأمّ كلّ قواها. وبسرعة نهضت مدفوعةً بالحدس الذي لا يخطىء، هبطت السلم واجتازت الردهة وهرعت نحو المصطبة. وهناك كان جورج الصغير ممدّداً على كنبة، نائماً بلا حراك.

ـ «إذاً ماذا! إنه نائـم:...

ـ لقـد نام بغتـةً، يا سيدتي، قالت الخادمة. أردت أن أبقيه صاحيـاً ريثما أصعد به الى الغرفة. لكنه غفا بين يديَّ، ويداه.. كانت يداه باردتين.

ـ باردتـين! تمتمت الأم... أجـل، صحيح... آه! يا الهي، يا الهي... أرجو أن يستيقظ!».

دسّ بوتـروليـه يده في أحـد جيوبه وأمسك بقبضة مسدسه واضعاً سبّابته على الزناد، ثمّ شهر السلاح بغتةً وأطلق النار على ماسيّيان.

إلّا أنّ ماسيبان استطاع أن يتلافى الطلقة بحركةٍ مفاجئة كأنّه استبقَ ما كان في حسبانه، فانقضّ عليه بوتروليه مُستنجداً بالخدم:

ـ «ساعدوني! إنه لوبين!...».

لم يستـطع ماسيّبان أن يصدّ عنفَ اندفاعة خصمه، فارتميا فوق كرسيّ قريب.

وبعد ثوانٍ، نهض ماسيبان شاهراً مسدّس بوتروليه الذي مكثَ دائخاً متلاحق الأنفاس.

ـ «حسنـاً.. إمكث كما أنت.. لا تتحرّك... أمامك دقيقتان أو ثلاث... لا أكثر... لقد تأخّرت كثيراً في اكتشافك... لا بدّ أنني كنتُ بارعاً في انتحال شخصيّة ماسيبان، أليس كذلك؟...».

انتصب في وقفتـه متفـاخراً وراح يسـخر منهم جميعاً محدّقاً بالخدم الثلاثة ثمّ رمق البارون الذي بدا مذعوراً.

ـ «إيزيدور، لقد ارتكبت احدى هفواتك. لو أنّك لم تصرخ «ساعدوني! إنه لوبين!» لانقضّ على هؤلاء الأشاوس، سحقاً، ولكنتُ الآن في خبر كان، رحماك يا ربّ! هجوم معاكس!».

ودنا منهم.

ـ «هيّا لا تخافوا يا صغاري... لن أصفع مؤخراتكم... خذوا... هذه بعض السكاكر، فقد تُعينكم على استرداد عافيتكم. آه! أنتَ مثلاً، سأستردّ منك المئة فرنك. بلى، بلى، أعرف أنّك أنت. لقد أعطيتك المال منذ قليل لكي تسلّم الرسالة... هيّا، أسرع، أيّها الخادمِ الخائن...».

وخطف المئة فرنك من يد الخادم ومزّقها.

ـ «مال الخيانة... إنّه يحرق أصابعي».

ثمّ رفع قبّعته وانحنى طويلاً أمام السيدة دو فيلمون:

ـ «هلاّ غفرتِ لي يا سيّدتي؟ إن مصادفات الحياة ـ وحياتي أنا على نحو خاص ـ تدفعنا دائماً إلى ارتكاب فظاعاتٍ أكونُ في طليعة من يخجل بها. ولكن لا تقلقي كثيراً بشأن طفلك، إنّها مجرّد حقنة، حقنة صغيرة في الذراع... أثناء انشغالكم باستجوابه. لا تقلقي، ساعة واحدة على الأكثر، وسيكون على ما يرام... ومرة ثانية، أرجو أن تقبلي اعتذاري. ولكنّ صمتك ضروري».

انحنى مجدّداً، وشكر السيد دو فيلمن على ضيافته الكريمة، امسك بعصاه وأشعل سيكارة ثمّ أشعل سيكارة للبارون، وأشار بقبعته بتحية مودّة دائرية للجميع ثمّ خاطب بوترولبه بلهجة من له

دالّة عليه: «وداعاً يا طفلي!» وغادر بهدوء وهو ينفث دخان لفافته في وجه الخدم.

تريّث بوتروليه لبضع دقائق، ورمق السيّدة دو فيلمون التي بدا أنّها استعادت بعض هدوئها. ثمّ دنا منها عازماً على تكرار رجائه للمرّة الأخيرة.. فالتقت نظراتهما ولم يقل شيئاً. لقد أيقن أنّها لن تتكلّم مهما الحّ عليها بالرجاء. وأدرك أنّ لغز المسلّة الجوفاء قد دُفن مرّة ثانية في رأسِ الأمّ كما دُفن من قبل طيّ ظلمات الماضي.

فكفّ عن المحاولة وغادر.

كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف، وثمة قطار يغادر في الحادية عشرة والدقيقة الخمسين. اجتاز الممر عبر الحديقة متمهلاً ثمّ انعطف سالكاً درب المحطة.

ـ «إذاً، ما رأيك، هل أعجبتك الخدعة؟».

كان ذلك صوت ماسيّيان، أو الأحرى صوت لوبين الذي ظهر بغتةً من بين أشجار الغابة المحاذية.

ـ «أليست حبكة رائعة؟ وصاحبك العجوز، أتراه يجيد الرقص على الحبال؟ أدرك جيّداً انّك ما زلت تحت وطأة المفاجأة، أليس كذلك؟ وربّما كنت تسأل نفسك إذا كان المدعو ماسيّيان، عضو أكاديمية المدوّنات والفنون الجميلة، موجوداً بالفعل؟ بالطبع، إنّه موجود فعلاً.. وسندعك تراه إذا ابديت بعض التعقّل. ولكن، اوّلاً، أعيد لك مسدسك... آه، تريد ان تعرف إذا كان مذخراً؟ بالطبع، يا بنيّ. خمس رصاصات تبقّت، وتكفي واحدة منها لأصبح في جوار

الرب(*)... إذاً هلّا وضعته في جيبك؟... أخيراً... كم أثمّن لك ما تفعله الآن ولكن هناك... لقد كانت حركة رذيلة! ببساطة، تأخذنا حميّا الشباب إذ ندرك فجأة - كالبرق! - أننا خُدعنا مرّة أخرى بأحابيل لوبين اللعين، وما أن نرى أنه أمامنا على بعد ثلاث خطوات... بوووم... نطلق النار.. ولكني لستُ حاقداً عليك، هيّا... والبرهان هو أنني أدعوك للركوب في سيّارتي المئة حصان. اتفقنا؟».

ودسّ اصبعين في فمه وصَفَر.

بدا الأمر على قدرٍ من الطرافة إذ غلبَ ذلك التنافر الواضح بين المظهر الوقور لماسيّبان العجوز وتصرّف لوبين الصبياني في لهجته وحركاته. ولم يستطع بوتروليه إلّا أن يضحك.

- «لقد ضحك! لقد ضحك! صرخ لوبين مغتبطاً. أرأيت يا صغيري، كنت تفتقد نعمة الإبتسام... إذ تبدي من الرصانة ما لا يتلاءم وسنّك... أنت صبيّ لطيف وتتمتع بسحر السذاجة والتواضع.. ولكن بالفعل، أنت لا تجيد الإبتسام».

واستدار نحوه فأصبحا وجهاً لوجه.

- «مثلاً، أراهنك الآن أنّك ستبكي. أوتدري كيف استطعت أن أتتبع تحريّاتك؟ وكيف علمت بأمر الرسالة التي كتبها لك ماسيبان وبأمر الموعد هذا الصباح في قصر دو فيلين؟ بفضل صديقك الثرثار، ذاك الذي يستضيفك في منزله... أنت تسرّ لهذا الأحمق بكلّ شيء، فيسارع الى البوح بكلّ شيء على مسمع صديقته

(*) باللاتينية في الأصل: ad Patres .

الصغيرة... وصديقته الصغيرة لا تحفظ سرّاً أمام لوبين. ماذا قلت لك؟ ها أنت توشك على البكاء... لقد اغرورقت عيناك... الصداقة التي تخون... أليس كذلك؟ لقد أحزنك الأمر... أوتعلم يا بنيّ، أنت رائع... ولولا الحرج لكنتُ أقبّلك.. لك ذلك النوع من النظرات التي تصيبني مباشرةً في الصميم... أذكر جيّداً ذلك المساء في غابيون، عندما جئت لاستشارتي... بلى، بالطبع، الكاتب العدل العجوز لم يكن أحدٌ سواي.. أنا.. هيّا اضحك، يا بنيّ... أقول لك مجدّداً، صحيح أنّك لا تجيد الإبتسام. لا بل تفتقد... كيف أعبّر لك؟ أنت تفتقد «التلقائية». أما أنا فأتمتّع بها، «التلقائية».

على مقربةٍ منهما كان يُسمع هدير محرّك. وفجأة أمسك بذراع بوترولیه وخاطبه بنبرةِ جفاءٍ قائلاً:

- «والآن، هل ستدعني وشأني؟ أنت تعلم جيّداً أنّك لن تتغلّب عليّ. إذاً ما الداعي لاستنفاد قواك ووقتك؟ هناك لصوص آخرون في العالم... فطاردهم وكفّ عن إزعاجي... وإلّا... اتفقنا، أليس كذلك؟».

كان يهزّه بعنف لكي يملي عليه إرادته. ثم قال هازئاً:

- «يا لي من أحمق! أطلب منك أنت، أن تدعني وشأني؟ لستَ من النوع الذي يتراجع... آه! لا أعرفُ ما الذي يُثنيني... لو شئتُ لأشرتُ باصبعي وفي غضون ثوانٍ تكون مقيّداً مكمّماً... وفي غضون ساعتين تُصبح في موضع النسيان لبضعة أشهر... وعندئذٍ أمكث مطمئنّ البال منصرفاً الى الحياة الهانئة التي أعدّها لي أجدادي، ملوك فرنسا، والتمتع بالكنوز التي تكرّموا وكدّسوها من أجلي... ولكنّ، كُتِبَ لي أن أواصل الغلطة إلى النهاية... ماذا أفعل؟

لكلّ منا مكامن ضعفه... وأحد مكامن الضعف لديّ هو أنت... ثمّ، ما الذي أخشاه. فبين اليوم واليوم الذي ستضع فيه اصبعك في جوف المسلّة روحٌ من الزمن يليه روح... بحقّ الشيطان! لقد استغرقني الحلّ، أنا، لوبين، عشرة أيام. فلا بدّ أن يستغرقك عشرة أعوام. هناك فرق بيننا، برغم كل شيء».

وصلت السيّارة ذات الهيكل المغلق الضخم. فتح الباب، فلم يتمالك بوترولیه صرخةً صدرت عنه. داخل الليموزين رأى رجلاً. وكان الرجل هو لوبين، أو الأحرى كان ماسيّيان.

وإذ أدرك الخدعة راح يضحك.

فقال له لوبين:

ـ «لا تتمالك ضحكك، إنّه مستغرقٌ في النوم، لقد قلت لك إنّك ستراه. وبامكانك الآن أن توضح لنفسك حقيقة ما جرى، أليس كذلك؟ عند منتصف الليل أُبلغت بالموعد في القصر. وعند السابعة صباحاً كنت هناك، وعندما مرّ بي ماسيّيان لم يكن إلّا أن أقطفه... ثمّ حقنة صغيرة... وقُضي الأمر! نم، يا صديقي الطيّب، سنودعك عند تلةٍ ما ... تحت أشعة الشمس لكي لا تشعر بالبرد... هيّا... حسنٌ... لا بل حسنٌ جداً... بل رائع... وقبّعتنا في اليد!... درهم واحد.. لو سمحت... آه! يا صديقي ماسيّيان، هلّا اعتنيت بلوبين؟».

كان المشهد هزليّاً بالفعل، أن ترى ماسيبان قبالة ماسيبان، وجهاً لوجه، ماسيبان النائم وماسيبان الرصين، المتيقّظ والوقور.

ـ «حسنةٌ للأعمى الفقير... هاكَ يا ماسيبان، درهمين وبطاقة زيارة.

ـ والآن، يا أبنـائي، لننطلق بأقصى سرعة... هل سمعت أيها السائق، بسرعة ١٢٠ كلم في الساعة. هيّا يا إيزيدور، اصعد... هُناك اجتماع للأكاديمية بكامل هيئتها، اليوم، والمفترض أن يقرأ ماسيبان عند الثالثة والنصف نصّ مذكّرة حول ما لستُ أدري. وبـالفعـل، سيقرأ ماسيبان مذكّرته. سأمثل أمامهم كما لم يكن ماسيبان من قبل، ما سيبان بلحمه وشحمه، الحقيقي، الأكثر من حقيقي، مزوّداً بأفكاري الخاصة حول المدوّنات البحريّة. بسرعةٍ أكبر أيّها السائق، ما زلت عند حدود ال ١١٥ كلم في الساعة... ما بك؟ هل أنت خائف، أنسيت أنّك في رفقة لوبين؟... آه! يا إيزيدور... وهنـاك من يجرؤ على القول إنّ الحياة رتيبة، الحياة رائعة... يا صغـيري ويكفي أن يعرف المرء.. وأنا، من جهتي، أعرف... كم كانت بهجتي عظيمة هناك، في القصر، عندما انهمكتَ، أنت، بالثرثرة مع فيلين العجوز، كنت، من جهتي، ألوذ بناحية النافذة لكي أنتزع الصفحتـين من الكتـاب التـاريخي! وفي ما بعـد، حين انشغلت باستجواب السيّدة فيلمون حول المسلّة الجوفاء! كنتُ أسأل نفسي: هل تتكلّم؟ أجل، ستتكلّم... لا، لن تتكلّم.. لا.. بلى.. وكنتُ في الأثناء مستسلماً لقشعريرةٍ سرت في جسمي... لو تكلمت لكان عليّ أن أبدأ حيـاتي من الصفـر، لتقوّض كلّ ما بنيته في حياتي... هل يصل الخادم في الوقت المناسب؟ بلى.. لا.. هوذا أتى... ولكن بوتروليه، أسيكتشف هويّتي الحقيقيّة؟ أبداً! حماقته تفوق الحدّ! بلى.. لا.. قُضي الأمر.. لا لم يُقضَ الأمر.. بلى.. إنه يرمقني بنظراتٍ غريبة.. قُضي الأمر.. سيشهر مسدسه... آه! يا للنشوة!... إيزيدور، أنت

تفرط في الكلام... هيّا، لننم قليلاً، لو سمحت؟ آكاد أغفو.. عم مساءً...».

التفت بوتروليه نحوه. فبدا غارقاً في سبات عميق. كان قد غفا بالفعل.

كانت عجلات السيّارة تنهب الطريق، مُسرعةً في اتجاه أفقٍ لا يني يقتربُ لكنّه يتجدّد في البعيد. لم يبقَ في اتساع الفيافي مدنٌ أو قرى أو حقول أو غابات، لم يبق إلّا الاتساع نفسه، طريق تنهبها العجلات وتبتلعها. حدّق بوتروليه طويلاً في وجه رفيق رحلته بكثيرٍ من الفضول المتوقّد، تحدوه الرغبة في اكتناه الملامح الحقيقيّة التي يغطّيها القناع. وراح يفكّر في الظروف التي جمعت بينهما، أحدهما الى جنب الآخر، في الحيّز الضيق الذي يُفسحه الداخل الحميم لتلك السيّارة.

ولكن بعد أن أنهكته انفعالات الصباح واحباطاته، حلّ التعبُ في أوصاله وغفا بدوره.

عندما استيقظ وجد لوبين منكباً على القراءة. فانحنى بوتروليه قليلاً ليرى عنوان الكتاب. وكان: الرسائل إلى لوسيليوس، بقلم سينيكا الفيلسوف.

الفصل الثامن

من قيصر الى لوبين

«بحقّ الشيطان! لقد استغرقني الحلّ، أنا، لوبين، عشرة أيام. فلا بدّ أن يستغرقكَ عشرة أعوام!».

لقد كان لهذه العبارة التي أطلقها لوبين عند مغادرتهما قصر دو فيلين، أبلغ الأثــر على سلوك بوترولِيه، فبرغم ما تمتّع به من هدوءٍ وثقة بالنفس كانت تراود لوبين أحياناً، لحظاتٌ من الانتشاء والبوح الرومانسي، لحظات من الحماسة الدراماتيكية والسانجة في وقتٍ معاً، حيث تصدر عنه بعض الإعترافات، بعض الأقوال التي قد يجد فيها صبيّ من طراز بوترولِيه ما يعينه على التفكير.

وكان بوترولِيه، بصرف النظر عن جانب الحق والصواب في ما يراه، يعتقد أنّ مثل هذه العبارة لا يمكن إلاّ أن تكون اعترافاً غير مقصود. وبناءً عليه توصّل، وله كلّ الحقّ في ذلك، إلى الإستنتاج التالي: إذا كان لوبين يُقارن بين جُهديهما لاكتشاف الحقيقة حول المسلّة الجوفاء، فذلك لأنّه يقرّ بأنّ كليهما يمتلكان الوسائل نفسها للوصــول الى الغاية المنشودة. وهذا يعني أن لوبين لم يعثر على عناصر تعينه على النجاح وتختلف عن تلك التي يمتلكها خصمه. فحظوظ النجاح متساوية. والحال أنّ لوبين، مزوّداً بحظوظ النجاح

وعناصره هذه، لم يعثر على الجواب إلاّ في غضون عشرة أيام من الجهد. فما هي هذه العناصر والوسائل والحظوظ؟ إنّ مصدرها المؤكّد ينحصر بالاطلاع على الكتيّب الصادر عام ١٨١٥، ولا بدّ أن لوبين، شأنه شأن ماسيبان، قد عثر على هذا الكتيّب بمحض المصادفة، وبفضله استطاع أن يكتشف في رسالة ماري انطوانيت البالغة الإيجاز الوثيقة العتيدة. إذاً، الوثيقة والكتيب هما قاعدتا انطلاق لوبين. وبهما استطاع أن يعيد تركيب اللغز. ولم يتوسّل أي عونٍ خارجي. تمحيص الكتيب وتمحيص الوثيقة، فقط، نقطة على السطر.

في مثل هذه الحال، ألا يستطيع بوتروليه أن يقف على الأرضيّة ذاتها؟ إذاً ما الجدوى من ذلك الصراع المستحيل؟ وما الجدوى من كلّ التحريّات التي لا طائل فيها والتي، إذا اطمأنّ الى قدرته على تجنّب شراكها العديدة، لن تفضي به، في آخر الأمر، إلاّ الى نتائج بائسة.

كان قراره فورياً وواضحاً، وما أن عقد العزم على الالتزام به حتّى راوده الحدسُ المفرحُ بأنّه سلك الدرب الصحيح. فبادر أوّلاً إلى الانتقال من منزل صديق الدراسة في جانسون دو سايي دونَ لومٍ أو اتهامات لا طائل فيها؛ وحمل حقيبته بحثاً عن مقرّ جديد لاقامته. وبعد جهدٍ وطواف استقرّ في فندقٍ صغير في وسط باريس التجاري. مكث في الفندق لا يغادره لأيام عديدة. حتّى أنّه قليلاً ما كان يُشارك النزلاء الآخرين وجبات الطعام. فقد كان، في معظم الأوقات، منصرفاً الى التفكير داخل غرفته بعد أن يُقفل بابها بالمفتاح ويُغلق نوافذها جيّداً ويُسدل الستائر لمزيدٍ من العزلة.

«عشرة أيام»، قال أرسين لوبين. وكان بوتروليه، في سعيه

الدؤوب لنسيان كلّ شيء باستثناء العناصر التي يذكرها من الكتيِّب والوثيقة، يطمح فعلاً للإهتداء إلى الجواب خلال مهلة العشرة أيام. إلّا أن اليوم العاشر انقضى، وكذلك الأمر الحادي عشر والثاني عشر؛ ولكن في اليوم الثالث عشر التمعت بارقة في ذهنه، وبسرعة خاطفة، بالسرعة المحبطة لتلك الأفكار العجيبة التي تنمو في داخلنا مثل نبتة عجائبيّة، انبثقت الحقيقة وأينعت وتوطّدت. طبعاً لم يكن في مساء اليوم الثالث عشر قد اهتدى إلى مفتاح اللغز، لكنّه اهتدى، من دون ريب، إلى إحدى الطرق التي قد تؤدي الى اكتشافه، وهي الطريقة المثمرة التي استخدمها لوبين بلا أدنى ريب.

طريقة بسيطة يمكن استنباطها من السؤال التالي: هل هناك صلة ما بين كافة الأحداث التاريخيّة، مهما تراوحت أهميّتها، التي يربط الكتيّب بينها وبين سرّ المسلّة الجوفاء؟

كان التنوّع الهائل في طبيعة هذه الأحداث يجعل الإجابة صعبة المنال. ومع ذلك استطاع بوترولية، بعد تمحيصه المعمّق، أن يعزل طابعاً جوهرياً تشترك فيه هذه الأحداث قاطبة. فقد جرت كلّها، ومن دون استثناء، ضمن حدود مقاطعة «نوستريا» القديمة التي أصبحت اليوم مقاطعة النورماندي. وكلّ أبطال هذه المغامرة العجيبة هم نورمانديون، أو يصبحون نورمانديين أو ينشطون فوق الأرض النورماندية.

يا لها من رحلةٍ مذهلة بين العصور! ويا له من مشهدٍ مؤثر إذ يحتشد فيه ذلك العدد الهائل من البارونات والدوقات والملوك، الذين ينطلقون من نقاطٍ متباعدة ومتقابلة ثمّ يلتقون، في آخر المطاف، في تلك البقعة من العالم!

عمد بوترولية إلى تصفّح كتب التاريخ دون قصد أو غاية. وعلم أنّ رول، أو رولّون، وهو أول دوق نورماندي، كان مالك سرّ المسلّة على أثر معاهدة سان كلير سور أبت!

وأنّ غييوم الفاتح، دوق نورمانديا، ملك انكلترا، هو الذي جعل سارية بيرقه مثقوبةً مثل المسلّة.

وفي روون أحرق الانكليز جان دارك مالكة السرّ!

وفي بداية المغامرة، من يكون زعيم الكاليتيين الذي يفتدي حياته بافشاء سرّ المسلّة على مسامع القيصر، إن لم يكن زعيم محاربي بلاد القوط التي تقع في وسط نورمانديا؟

بدأت الفرضيّة تتضح. وكلّما اتضحت ضاق نطاق البحث، لينحصر في نواحي روون، وضفاف السين، وبلاد القوط... إذ بدا أنّ كلّ السبل تفضي الى تلك الناحية. وإذا أتت المصنّفات التاريخية على ذكر اثنين من ملوك فرنسا، على نحو خاص، بعد أن فقد زعماء مقاطعة النورماندي وورثتهم ملوك انكلترا سرّ المسلّة، وأصبح بين يديّ ملوك فرنسا، فالأوّل هو هنري الرابع، هنري الرابع الذي حاصر روون وانتصر في معركة «آرك» عند أبواب «دييب». والثاني هو فرنسوا الأوّل، الذي شيّد «لو هافر» وأطلق هذه العبارة: «إنّ ملوك فرنسا يحفظون أسراراً تسوّي مسار الأشياء كما مصير المدن!» «روون»، «دييب» و «لو هافر»... زوايا المثلث الثلاث، المدن الكبيرة الثلاث التي تحتلّ زوايا المثلّث. وفي الوسط بلاد القوط.

ثمّ يحلّ القرن السابع عشر. ويعمد لويس الرابع عشر إلى إحراق الكتيّب الذي يكشف فيه الغريبُ حقيقة السرّ. ويستولي الضابط دو لاربيري على نسخة منه ويحاول أن يستغلّ اكتشافه السرّ،

فيسرق عدداً من المجوهرات ثم يعترضه قطاع طرق ويموت قتلاً. وأين تقـع الجـريمـة؟ في غاييون! غاييون البلدة الصغيرة التي تحاذي الطريق التي تؤدي من «الهافر» أو «روون» أو «دييب» الى باريس.

بعد ذلك بعام واحد يأمر لويس الرابع عشر بتشييد قصر المسلّة. وأي موقع يختار له؟ وسط فرنسا، سعياً منه لتضليل الفضوليين. وعندئذ يكفّ الفضوليون عن البحث في منطقة النورماندي.

روون.. دييـب... لو هافـر... المثلّث القـوطي... هنـا بيت القصيـد... من جهة، البحر. ومن جهة أخرى، نهر السين. ومن الجهة الثالثة، تقع الوديان التي تربط بين روون ودييب.

وفجأة التمعت فكرة في ذهن بوترولية، إن هذا النطاق الواسع من الأراضي، إن هذه المقاطعة المكوّنة من هضاب مرتفعة التي تبدأ من ضفاف السين الصخريّة لتصل الى ضفاف المانش الصخرية، كانت بالذات مسرح عمليّات لوبين خلال السنوات الأخيرة.

فمنذ عشر سنوات أصبحت تلك المنطقة مسرحاً لعمليّات لوبين المنتظمة، وكأنّه اختار مقرّاً له في وسط البلاد التي ترتبط مباشرةً بأسطورة المسلّة الجوفاء.

قضيّة البارون دو كاهورن(*)؟ كان مسرحها ضفاف السين، بين روون ولو هافـر. قضيّـة تيبرمينيل(**)؟ جرت أحداثها عند طرف

(*) ارسين لوبين، اللصّ الظريف (ارسين لوبين في السجن).

(**) ارسين لوبين، اللصّ الظريف (شرلوك هولمز يصل بعد فوات الأوان).

الهضبة المقابل، بين روون ودييب. وسرقات غروشيه، ومونتينيي وكراسفيل؟ في وسط بلاد القوط. وأيّةُ مدينةٍ كان لوبين في طريقه اليها عندما هاجمه بيار أونغري، سفّاح شارع لا فونتين(*)، في مقصورته وكبّله؟ كان في طريقه الى روون. وعندما وقع شرلوك هولمز في أسر لوبين، أين احتجزه(**)؟ في مكان قريب من الهافر.

والقضيّة التي جمعت بين لوبين وبوتروليه أين تدور أحداثها؟ في أمبروميزي، على الطريق المؤدّية من الهافر الى دييب.

روون، دييب، لو هافر، المثلّث القوطي نفسه.

إذاً لبضع سنوات خلت، استطاع أرسين لوبين أن يحصل على كتيّب عام ١٨١٥ وهكذا استطاع أن يهتدي الى المكان الذي خبأت فيه ماري انطوانيت الوثيقة، وانتهى به الأمر الى الاستيلاء على كتاب الصلوات العتيد. وبعد أن استولى على الوثيقة، بدأ حملة التفتيش، وعثر على ضالته، وأقام نهائياً هناك في المقاطعة السليبة.

وبدوره بدأ بوتروليه حملته.

انطلق في حملته تراوده مشاعر إثارة حقيقيّة؛ فقد كانت صورة لوبين ورحلته ماثلةً في ذهنه. لوبين الذي ساورته الآمال نفسها والإثارة نفسها في رحلته الطويلة لاكتشاف ذلك السرّ الرائع الذي

(*) أرسين لوبين، اللصّ الظريف (المسافر الغامض).

(**) أرسين لوبين ضدّ شرلوك هولمز (السيّدة الشقراء).

منحه هذا القدر الهائل من السطوة. فهل تسفر جهود بوترولیه عن نتائج مماثلة؟

غادر روون في ساعة مبكرة، سيراً على الأقدام، وقد طلى وجهه بمساحيق كثيرة وحمل حقيبته على ظهره مُستعيناً بعصا، فبدا كرحّالة في مقتبل العمر يقوم برحلة في كافة أنحاء فرنسا.

اتّجه مباشرةً إلى دو كلير حيث تناول طعام الغداء. وعندما غادر تلك القرية، تبع مجرى «السين» ولم يحد عنه. كان حدسُه المشفوع بعددٍ كبير من القرائن، يملي عليه خطَّ السير بمحاذاة الضفاف المتعرّجة للنهر الجميل. فعندما سطا اللصوص على قصر كاهورن، هُرّبت التحف عبر السين. وعندما سرقت «لا شابيل دو ديو» أُرسلت المسروقات الأثرية إلى ضفاف السين ليتم نقلها عبر النهر. وكان بوترولیه في استغراقه يتخيّل أسطولاً صغيراً من المعديّات التي تقوم برحلات منتظمة بين روون والهافر، محمّلة بالتحف الفنية وثروات المقاطعة لتنقلها من هناك الى بلاد أصحاب المليارات.

«أتحرّق لهفةً! أتحرّق لهفةً!...» كان الفتى يردّد مترنحاً تحت ضربات الحقيقة التي توالت عليه عنيفةً.

لم يحبط عزائمه إخفاق الأيام الأولى. فقد كان مسلحاً بايمان عميق وراسخ بصحة الفرضيّة التي ينطلق منها. فرضية جسورة ومفرطة، ليس مهمّاً ما تكون! يكفي أنها تليق بالخصم المُطارَد. لقد كانت الفرضيّة تليق بالواقع الخارق الذي يُدعى «لوبين». فإزاء هذا الرجل أيمكن البحثَ خارج ما هو هائل ومفرط ويفوق إدراك البشر وطاقتهم؟ جو مييج، لا مايّوريه، سان واندريّ، كو دو بيك،

تانكارفيل، كيبوف، كلّها دساكر مفعمة بذكراه! وكم من المرّات وقف متأملاً عظمة قبابها القوطية أو روعة خرائبها الشاسعة!

إلاّ أن لو هافـر ونـواحي لو هافـر كانت محط أنظار إيزيدور كأضواء منارة.

«إن ملوك فرنسـا يحفظون أسراراً تسوّي مسار الأشياء كما مصير المدن».

كلمات غامضة ولكنّها بدت فجأة شديدة الوضوح! أليس في هذه العبارة بيان الأسباب التي جعلت فرنسوا الأوّل يأمر بتشييد مدينـة في ذلك المـوضـع بالذات، أليس مصير «هارفر دو غراس» مُرتبطاً بسرّ المسلّة بالذات؟

«لقد وجدتها... وجدتها... تمتم بوتروليه باندفاعةٍ ثمالة... إنّ المصبّ النورماندي القديم، وهو أحد المواضـع الأساسية، وإحدى اللحمات الأولية التي تشكّلت من حولها الهويّة الفرنسية، إنّ هذا المصب القـديم لا يجـد تمام حقيقته إلاّ مقروناً بهاتين القوّتين: الأولى واضـحة، وضـح النهار، حيّة، وذائعة الصيت، ميناء جديد يتحكم بثغـر المحيـط ويـطلُّ على العـالم. والثـانية أشدُّ غموضاً ومجهولةٌ ومقلقةٌ بمقدار ما هي غير مرئية وغير ملموسة. فثمة جانب كامـل من تاريـخ فرنسا والأسرة المالكة لا يمكن تفسيره إلاّ بسرّ المسلّة، وكذلك الأمر بالنسبة لتاريخ لوبين. ذلك أن مصادر الطاقة والقـوة هي نفسها المصادر التي تغذي وتحدّد ثروة ملوك فرنسا وثروة المغامر الشهير».

كان بوتروليه يتنقّل من بلدة الى بلدة، من النهر الى البحر، يبحث

وينقّب، مُستنفـر الحواس محاولاً استنطاق الأشياء نفسها عمّا تخفيه من دلالات عميقة الغور. أينبغي هذه التلّة؟ أم هذه الغابة؟ أم منازل تلك البلدة؟ أيكون مفتاح السرّ في كلام هذا المزارع الذي يبدو في الظاهر بلا معنى؟

ذات صباح، وفي ما كان يتناول طعام الغداء في نزل قريب من هونفلور، وهي إحدى المدن التاريخية في نواحي المصبّ النهري، وجلس قبالته أحد تجّار الخيل النورمانديين ذوي السحن المحمرّة والأجسام القويّة الضخمة الذين يجولون أسواق المنطقة وبيدهم سوط، وسترة طويلة ملقاة على الظهر. ولم تمض ثوانٍ معدودة حتى شعر بوترولِيه أن الرجل ينظر اليه بتمعّنٍ كأنّه يعرفه أو على الأقل كأنّه يسعى للتعرّف اليه.

ـ «دعكَ من هذا! قال في سرّه، إنها إحدى افتراضاتي الخاطئة، فأنا لم أرَ تاجر الخيل هذا من قبل وهو أيضاً لم يرني من قبل».

وبالفعل بدا أن الرجل ما عاد مُهتماً به. فأشعل غليونه وطلب فنجان قهوة وكأساً، وراح يدخن ويشرب. وما أن أنهى طعامه حتّى نهض بوترولِيه ودفع الحساب. وعندما همّ بمغادرة المكان دخلت مجموعة من الأشخاص فكان عليه أن ينتظر قليلاً قرب طاولة التاجر نفسه، وسمعه يهمس:

ـ «صباح الخير يا سيّد بوترولِيه».

لم يتردد إيزيدور فسارع الى الجلوس بقربه وقال له:

ـ «أجل، أنا بوترولِيه... ولكنْ من أنت؟ وكيف عرفتني؟

ـ ليس بالأمر الصعب... مع أني لم أرَ إلا صورتك في الصحف،

ولكن يبدو لي أنّك لم تنجح كثيراً... كيف تقولون ذلك بالفرنسية؟ لم تنجح كثيراً في تبديل سحنتك».

كانت لُكنته الأجنبية واضحة. وحسب بوترولية، حين أمعن النظر اليه، أنه هو أيضاً، يتنكّر خلف قناع يخفي سحنته الفعلية.

ـ «من أنت؟ سأله مجدّداً.. من أنت؟».

ابتسم الغريب وقال:

ـ «أما عرفتني بعد؟

ـ لا. لم أرك من قبل.

ـ وأنا أيضاً. ولكن تذكّر جيداً... فصوري أيضاً تنشر في الصحف... وغالباً. إذاً، هل عرفتني؟

ـ كلّا.

ـ شرلوك هولمز.

كان اللقاءُ بين الرجلين غريباً بعض الشيء، وله دلالة خاصّة. ولم يلبث الفتى أن أدرك مغزاه الفعلي. وبعد تبادل اللياقات المعتادة، قال مخاطباً هولمز:

ـ «أحسبُ أنّكَ هنا... بسببه هو؟

ـ أجل...

ـ إذاً أنت تعتقد أنّ هناك احتمالات.. في هذه الناحية...

ـ لا، بل أنا واثق من ذلك».

لم تكن غبطة بوترولية لتخلو من بعضِ التوجّس برغم ارتياحه إلى ما وجده من تطابق بين وجهة نظره ووجهة نظر هولمز. ذلك أنه

إذا استطاع الإنكليزي أن يصل الى الهدف، فمعنى ذلك أنَّ ثمة من يقاسمه انتصاره، ومَن يدري، قد يسبقه في الوصول الى الغاية المنشودة؟

ـ «ألديك براهين؟ قرائن؟

ـ لا تخف، قال الإنكليـزي ضاحكاً وقد أدرك مبعث قلقه، لن أسيرَ على خطاك. أنت تنطلق من الوثيقة والكتيِّب... من أشياء لا تبدو لي موضع ثقة كبيرة.

ـ وأنـت؟

ـ اقتفـي أثراً مختلفاً.

ـ هل ارتكب هفوةً مـا؟...

ـ لا، على الاطلاق. أنت تذكر قضيّة التاج، قضيّة الدوق دو شارموراس(*).

ـ أجـل.

ـ وما زلت تذكر، بالطبع، تلك العجوز فيكتوار، مُرضعة لوبين، تلك التي أفلتت من يدِ صديقي غانيمار في عربة سجن مزيّفة؟

ـ أجـل.

ـ لقد استطعت أن أهتدي الى فيكتوار. إنها تقيم في مزرعة على مقربةٍ من الطريق العام رقم ٢٥، إنها الطريق التي تصل الهافر بـ «ليِل». وبواسطة فيكتوار سأصل بسهولة الى لوبين.

ـ إنّها الطريق الأطول.

(*) ارسين لوبين، مسرحية في أربعة فصول.

ـ سيّان! لقد كرّست نفسي لهذه القضيّة. ولم يبق لي إلّا أن أصل اليه. فما يدور بيني وبين لوبين أشبه بمعركة... معركة حتّى الموت».

كان كلامه مشوباً بنبرة ضراوة تكشف كلّ الحقد الذي اعتمل في قلبه لما تعرّض له من إذلال، وكل البغضاء التي يكنها للعدو العنيد الذي طالما أفلح في خداعه والسخرية منه.

ـ «هيّا اذهب، تمتم قائلاً، إنهم ينظرون الينا... الأمر لا يخلو من المخاطرة... ولكن تذكّر جيداً ما قلته لك: إن اليوم الذي سيشهد لقائي لوبين وجهاً لوجه سيكون يوماً مأساوياً!».

غادر بوترولیه هولن، وهو يشعر باطمئنان تام: لن يستطيع الإنكليزي أن يسبقه في مسعاه.

ويا له من دليلٍ حسّي زوّده به ذلك اللقاء الذي تمّ بمحض المصادفة! فالطريق التي تصل الهافر بـ«ليْل» تمرّ بـ«دييب». وهي الطريق الساحلية الأساسيّة لبلاد القوط! الطريق الساحلية التي تتحكم بالشواطيء الصخرية لبحر المانش! وفيكتوار تقطن مزرعة مجاورة لهذه الطريق. فيكتوار، يعني لوبين، لأن أحدهما لا يفارق الآخر، السيّد والخادمة والوفاء الخرافي الذي يربط بينهما.

«أتحرّق لهفةً.. أتحرّق لهفةً... كان الفتى يردّد في سرّه... ما أن تزوّدني الظروف بمعلومة جديدة حتّى يتضح أنها تؤكد افتراضي. فمن ناحية، اليقين التام بشأن ضفاف السين، ومن الناحية الأخرى، اليقين التام بشأن الطريق العام. ويتقاطع الدربان عند الهافر، مدينة فرنسوا الأوّل، مدينة السرّ، إن الحدود تضيق. وبلاد

القوط ليست شاسعة، ولم يبق إلّا أن أبحث في الناحية الغربية من هذه البلاد».

واستأنف البحث بحماس.

«ما من سبب يجعلني غير قادر على إيجاد ما وجده لوبين من قبل». كان يردّد في سره. بالطبع، لا بدّ أن للوبين ما يضمن له الغلبة من بعض النواحي، وقد يكون ذلك بسبب معرفته التامّة بالمنطقة، وبعض المعطيات الدقيقة حول الخرافات المحليّة، أو ربّما ما هو أقلّ من ذلك، مجرّد ذكرى - ما يشكّل سبقاً لا يستهان به، ما دام بوتروليه، من جهته، لا يعرف شيئاً ويجهل طبيعة المنطقة جهلاً مطبقاً إذ لم يتسنّ له أن يجوب في أنحائها إلّا عند وقوع عملية السطو في قصر أمبروميزي، ودون أن يتريّث أو يُتاح له التدقيق.

ولكن ليس هذا المهم!

لو استغرقه إنجاز هذه المهمّة عشر سنوات كاملة، لن يتراجع فقد كان يدرك جيّداً أن لوبين موجود هناك. كان يراه، ويخمّن حضوره الطاغي. وكان يتوقّع ظهوره عند هذا المنعطف، أو عند طرف الغابة ذاك، أو عند أطراف هذه البلدة أو تلك. وتكرّرت خيبات الأمل إلّا أنّ إيزيدور كان يجد في كلّ خيبة سبباً لمواصلة عناده.

غالباً ما كان يجلس فوق هضبة محاذية وينكبّ، باستغراق وطول أناة، على التدقيق بنصّ الوثيقة التي نسخ سطورها، أي باستبداله الأرقام بالحروف الساكنة:

e. a. a.. e.. e. a.

a.. a.... e. e.   .e. oi. e.. e.

.ou.. e. o.... e.. e. o.. e

D DF   19 F + 44   357

ai. ui.. e   ..e u. e

وغالباً أيضاً ما كان يستلقي، حسب عادته، فوق العشب النابت ويستغـرق في التفكير لساعات طويلة. فأمامه متسع من الوقت. والمستقبل ملك يديه.

وبمثابرة مدهشة كان يجوب المنطقة من السين الى البحر، ومن البحر الى السين، مبتعداً بتدرّج، عائداً أدراجه، متقدّماً، لا يبرح الموضع إلّا بعد أن يستنفد نظرياً، احتمال العثور على أقلّ معلومة ممكنة.

نقّب وبحث وتمعّن في مونتيفيليه وسـان رومـان، وأوكتيفيل وغونفيل وكريكوتو.

كان يطرق باب المزارعين ليلاً طلباً للمأوى. وكان يجلس اليهم بعـد طعـام العشاء، فيدخنون ويتحدّثون. وكان يطلب منهم أن يردّدوا على مسامعه الحكايات التي تُروى في ليالي الشتاء للمسامرة.

وفي الختام كان يسأل دائماً:

ـ «والمسلّة؟ أسطورة المسلّة الجوفاء.. ألا تعرفونها؟

ـ لا، لم أسمع بها من قبل...

ـ حاول أن تتذكر جيّداً حكاية ترويها العجائز عادةً... حكاية

ما تدور حول مسلّة.. مسلّة مسحورة ربّما... لستُ أدري بالضبط؟».

لا شيء. ما من أسـطورة. ما من ذكرى. وفي اليوم التالي كان إيزيدور يتابع طريقه جذلاً.

ذات يوم مرّ ببلدة سان جوين الجميلة المشرفة على البحر، وهبط المنحدر بين الصخور.

ثمّ صعدَ الى الهضبـة وتـوغّـل في اتجاه الوادي الصغير في برونـوفـال، ثمّ في اتجـاه رأس انتيفير البحري، وفي اتجاه جون بيل - بلاج. كان يسيرُ مبتهجاً جذلاً وبرغم بعض التعب كان يشعر بسعادة أن يحيا! وبلغت به الغبطة، غبطة الحياة، حدّاً نسي معه لوبـين ولغز المسلّة الجوفاء وفيكتوار وهولمز، واستغرق في مشهد الأشياء من حوله، السماء الزرقاء، البحر الزمردي الواسع المتألق تحت أشعة الشمس.

تلّعُ مصطفة في خط مستقيم، خرائب جدران من آجر كأنها آثا معسكر روماني قديم، فوقف حيالها متوجّساً. ثمّ رأى ما يشبه قلعة صغـيرة وقـد شيّدت على غرار حصن قديم، بأبراجها المتصدّعة ونـوافذها القوطية العالية. كانت القلعة مشيّدةً على مساحة من الأرض الصخـريّـة كأنها جزء من الضفّة المنهارة. وعلى مدخلها سياج تعلوه حواجز وأشواك معدنية.

استطاع بوترولیه أن يجتاز المدخل بمشقة كبيرة. وفوق البوابة المقوّسة الموصدة بقفل قديم صدىء، قرأ هذه الكلمات:

حُصن فريفوسّيه(*)

لم يحاول الدخول، بل انعطف يمنةً وبعد أن هبط المنحدر، طالعه درب ضيّق يمتدّ على طول نتوءٍ ترابي ويحدُّه من الجانبين درابزين من خشب. وعند نهاية الدرب رأى مغارة ضيّقة الفتحة كأنها مرقب حارس عند طرف الصخرة التي حفرت فيها، وهي صخرة شديدة التحدُّر كأنها تنبثق من البحر.

كانت المغارة تكاد لا تتسّع لرجل واقف. وعلى جنباتها نُقشت كتابات لا تحصى وثمة ثقب مربّع الفتحة يُطلّ، مثل كوّة، نحو الأسفل، قبالة حصن فريفوسّيه الذي يبدو اكليله المحزّز على بعد ثلاثين أو أربعين متراً. رمى بوترولية حقيبته وجلس. فقد كان نهاره ثقيلاً ومرهقاً. وغفا لبعض الوقت.

أيقظته النسائم العذبة التي كانت تلطّف هواء المغارة. ومكث لدقائق ساكناً، شارد الذهن غائم العينين. كان يحاول الإمساك بخيط أفكاره وأن يصحو من غفلة النوم. وما أن صحا قليلاً وهمّ بالنهوض حتّى شخصت عيناه فجأة، جاحظتين تحدّقان... سرت في أوصاله رعشة. وتصلبت يداه وأحسّ بالعرق البارد يتقطر من بصيلات شعره.

- «لا، لا... غمغم قائلاً... إنه حلم، إنه مجرّد هذيان... أهذا ممكن حقاً...؟»

(*) كان حصن فريفوسّيه يحمل اسم قصر مجاور كان من ملحقاته. وقد أمرت السلطات العسكرية، بعد ذلك بسنوات، بأن يتمّ تدميره إثر الحقائق، والمعطيات التي تضمنها هذا الكتاب.

ثمّ ركــع فجــأة وانحنى. فرأى حرفـين ضخمـين، يبلغ طول واحدهما قدماً، محفورين بشكل بارز على الأرضيّة الغرانيتية.

كان الحرفان واضحين برغم رداءة النقش وعوامل الحتّ عبر العصور التي ساهمت في تدوير حوافهما المسنّنة، D و F .

D و F ! يا للمعجزة! حرف D وحرف F ، هما الحرفان اللذان تضمّنتهما الوثيقة! بل هما الحرفان الوحيدان في الوثيقة!

آه! لم يكن بوترولبه في حاجة للتثبّت من الأمر، فهو يذكر جيّداً ورود هذين الحرفين في السطر الرابع، سطر القياسات والإرشادات!

كان يعرفهما جيّداً! فقد طُبعا الى الأبد في حدقيته، وتمثلتهما خلايا دماغه!

نهض وهبط الطريق المنحدرة ثمّ مشى صعداً بمحاذاة الحصن القديم، ومن جديد حاول اجتياز البوّابة ذات الأشواك المعدنية، ثمّ مشى مُسرعاً في اتجاه مرجة حيث يرعى قطيع من الماشية.

«تلك المغـارة، هنــاك... تلك المغارة...» كانت شفتاه ترتجفان فيسعى لإيجـاد الكلمات المناسبة ولا يجدها. كان الراعي يرمقه بذهول. وفي آخر الأمر استطاع أن يسأله:

ـ «أجل، تلك المغارة... هناك، إلى الناحية اليمنى من الحصن... أتعرف لها اسماً؟

ـ أجل! كافة الأهلين في «إيتريتا» يقولون إنها قلعة «ليه دوموازيل»(*).

(*) الآنســات.

ـ ماذا؟... ماذا؟... ماذا تقول؟

ـ بلى،.. بلى، غرفة الآنسات....».

بدا إيزيدور وكأنه يهمّ بالانقضاض على عنقه وكأنّ كل الحقيقة يمتلكها الرجل الماثل أمامه ولذلك يودّ أن يعرفها على الفور، يودّ أن ينتزعها منه...

«ليه دوموازيل»! إحدى الكلمتين، احدى الكلمتين الوحيدتين اللتين استطاع أن يركّب أحرفهما في الوثيقة!

هبّت ريـاح الجنون وعصفت بقامة بوترولية. وكانت الأشياء كأنهـا تتـورّم وتتسع من حوله. رياح تعصف به كأنّها الإعصار الوافد من عرض البحر، الوافدِ من أقصى الأرض، الوافدِ من كل حدبٍ وصوب ويعصف بكيانه حقيقةٌ تلو الأخرى... أصبح بامكانه أن يفهم! فقد بدت له الوثيقة في تمام مغزاها الحقيقي! غرفة الآنسات... إتريتا...

«وجدتها.. قال في سرّه وكأنّ إشراقة إدراك التمعت في ذهنه... لا يمكن أن يكون سوى ذلك. ولكن كيف لم أفطن إلى الحلّ من قبل؟».

وقال للراعي بصوتٍ خفيض:

ـ «حسناً.. اذهب.. بامكانك أن تذهب.. شكراً..».

ولم يلبث الرجل الذي لم يفارقه الذهول أن نادى كلبه بصفرة وابتعد.

وما أن اطمأن بوترولية الى أن الراعي قد أصبح بعيداً حتّى عاد أدراجـه في اتجـاه الحصن. وكان قد تجاوزه قليلاً عندما ارتمى

أرضاً بحركةٍ مفاجئة ومكث ممدّداً بمحاذاة جدار. وراح يفكّر قلقاً:

«هل أصبت بالجنون! ماذا لو رآني؟ ماذا لو رآني شركاؤه؟ فمنذ ساعة وأنا لا أكفُّ عن التجوّل في الأنحاء...».

ومكث بلا حراك. كانت الشمس قد غربت، وراح الليلُ يمازج تدريجياً ضياءَ النهار مظلّلاً الأشياء بعتمته.

ثمّ راح يزحف على مهلٍ بحركاتٍ متأنيّة ومحسوبة وتقدّم نحو الناحية الخلفية من الجرفِ محاولاً الوصول الى طرف الضفة الصخرية. وعندما وصل الى هناك أزاح بيديه بعض غمار العشب ورفع رأسه قليلاً.

كانت صخرة عملاقة، على مستوى المنحدر الصخري تقريباً، تنتصبُ وسط مياه البحر، ويفوق ارتفاعها الثمانين متراً؛ مسلّة هائلة الحجم بسقت عمودياً من قاعدة غرانيتية عريضة على مستوى المياه واستدقّت ارتفاعاً حتّى قمتها التي بدت مروّسة، كأنها سنّ عملاقة لمسخ بحريّ. بيضاء بلون صخور المنحدر، وبياضُها أميل للرماديّ أو للأبيض الكَدِر؛ كانت الكتلة الصخرية العملاقة محزّزة بخطوط أفقيّة كأنها حفرت بصوّان وحيث يبدو بوضوح أثرُ تعاقب العصور التي راكمت، واحدةً فوق الأخرى، طبقات الكلس والحصى الأملس.

وفي بعض المواضع آثارٌ واضحة لشروخ، أو تجوّفات، وهنا وهناك بعض التراب والعشب، والأوراق اليابسة.

كان المنظرُ بمجمله يولّد انطباعاً بالجبروت والمتانة والروعة، إضافةً إلى سيماء الأشياء التي تدومُ على مرّ الزمن لا تبالي بالأمواج

العـاتية، والعواصف الهوجاء. منظر ما هو أبديّ ومتأصل وهائل برغم ضخامة المنحدر الصخري الذي يقف في كنفه، وشاسِعٌ برغم اتساع المدى الذي ينبثقُ في فضائه.

كان بوترولية قد غرز أظافره في التراب كمخالب وحش ٍ كاسر يتحيّن فرصة الانقضاض. وكانت عيناه تسبران القشرة الخشنة، لا بل جلد الصخرة، ولحمها الحيّ. كان يلمسها، يجسّها، يتعرّفها ويتملكها... لا بل كأنّه يتمثلها تمثلاً..

غصّ الأفق بشفق الشمس الغـاربـة، وبـدت الغيوم الطويلة المتوقّدة كأنّها تتشكل في مناظر رائعة؛ بحيرات وهميّة، سهولٌ من اللهب، غابات ذهب وأحواض دماء؛ كلّ ما تراه المخيّلةُ الهاذية في توقّدها ودَعَتها.

أعتم لازوردي السماء. التمعت فينوس ببوارق فاتنة، ثمّ بزغت أنوار النجوم الأخرى بحياء.

فجأةً أغمض بوترولية عينيه وشبك ذراعيه المضطربتين فوق جبينه. هنـاك ـ أوه! كان يحسب أن الإنفعال الذي يعصر قلبه بعنف سيودي به ـ هناك، في أعلى مسلّة «إتريتا»، تحت القمة التي تحـوّم فوقهـا النوارس، كانت سحابة من دخانٍ تتسرّب من أحد الشقـوق، كما ينبعث دخان من مدخنة غير مرئية؛ غمامة دخان كانت تتصاعدُ في حلقاتٍ لولبيّة بطيئة في فضاء الغروب الصامت.

الفصل التاسع

إفتح يا سمسم!

مسلّة إتريتا جوفاء!

أهي ظاهرة طبيعيّة؟ أهو تقعير ناجم عن عوامل داخلية أو بفعل التأثير البطيء لمياه البحر الثائرة أو المطر الذي يتسرب الى الجوف؟ أم كان إنجاز قوى تفوق قدرة البشر، ومع ذلك نُفّذَ بأيدي بشر، سلتيين وغوليين، ورجال ما قبل التاريخ؟ أسئلة كثيرة ستبقى، بلا ريب، دون أجوبة. ولكن أيّة أهمية لذلك؟ فالمهمّ هو التالي: المسلّة كانت جوفاء.

على بُعد أربعين أو خمسين متراً من تلك القوس الحجرية الضخمة التي تسمّى «بوّابة السافلة»(*) والتي تنبثق من أعلى المنحدر الصخري لتمتدّ مثل غصن شجرةٍ عملاق، وتغوصُ في المياه متجذرةً بين صخور القعر؛ على مسافةٍ منها إذاً ينتصب مخروط كلسيّ هائل الحجم، ليس في الحقيقة سوى كُمّةٍ من القشور الحجرية التي تستندُ الى فراغ!

كشفٌ مُعْجز! بعد أرسين لوبين، توصّل بوترولیه الى اكتشاف

(*) سافلة النهر.

كلمة السرّ الكبير الذي سادَ على نحو عشرين قرناً من الزمن! فقد كان لكلمة السرّ هذه أهميّة بالغة في نظر من امتلكها في العصور الغابرة حين كانت قبائل البرابرة تغزو العالم القديم! كلمة سحرية تفتح أبواب المغارة الخرافية لقبائل يُطاردها العدو! كلمة غامضة تحرس باب الملاذ الأكثر منعةً! كلمة عجيبة تمنح السلطان وتضمن الغلبة!

ولأنه امتلك هذه الكلمة، استطاع قيصر أن يستعبد الغوليين. ولأنهم امتلكوها استطاع النورمانديون بسط سيطرتهم على كافة أنحاء البلاد ومنها انطلقوا لغزو الجزيرة المجاورة، واحتلوا صقلية ثمّ الشرق وغزوا العالم الجديد!

وإذ ملكوا السرّ تمكّن ملوك إنكلترا من السيطرة على فرنسا وأذلّوها وقطّعوا أوصالها، وتوّجوا أنفسهم ملوكاً على عرش باريس. وحين فقدوا كلمة السرّ كانت الهزيمة.

وإذ ملكوا السرّ عَظُمَ نفوذ ملوك فرنسا واستقووا وجاوزوا حدود مناطقهم الضيقة، واستطاعوا، شيئاً فشيئاً، تشييد أمّتهم الكبيرة وأن تكون لهم حظوة المجد والسلطان - وما أن أخذتهم الغفلة عنه أو النسيان أو حتّى العجز عن استخدامه، حتّى ضُربت مصائرهم بالموت والمنافي والسقوط.

مملكة لامرئية في كنف المياه وعلى بُعد عشرة أبواعٍ (*) من اليابسة!... قلعة منسية أكثر ارتفاعاً من أبراج «نوتردام» ومشيّدة

(*) مفرده: باع وهو مقياس بحريّ، طول ذراعين، يتراوح بين متر ونصف ومترين.

فوق قاعدة غرانيتية أكثر اتساعاً من ساحة عامّة... يا للجبروت، يا للملاذ الأمين! من باريس الى البحر، عبر نهر السين. وهنا، «لوهافر»، المدينة الجديدة، المدينة الضرورية. وعلى بعد سبعة فراسخ منها، المسلّة الجوفاء، أليس ذاك هو الحصن الحصين؟

إنه الحصن والملاذ ولكنّه أيضاً المخبأ المذهل. كلّ كنوز الملوك، التي كُنزت عبر العصور، كلّ ذهب فرنسا، كل ما ابتزته السلطات من الشعب، وكل ما انتزع من أملاك الإكليروس، وكلّ الثروات التي غُنمت في ساحات الوغى في أوروبا، كلّها كُدّست في الكهف الملكي. القروش الذهبية القديمة والريالات(1) المفضضة والدبلونات(2) والدوقات(3) والفلورونات(4) والجنيهات، والأحجار الكريمة والمجوهرات والماسات والحُلي، كلّها مكنوزة هناك. فمن يستطيع اكتشاف الكنز؟ مَن يستطيع أن يكشف سرّ المسلّة المبهم؟ لا أحد.

بلى، لوبين.

ويصبح لوبين من طراز تلك الكائنات التي لا يحدّها المنطق المعروف، من طراز تلك المعجزات التي يتعذّر تفسيرها ما دامت الحقيقة في موضع السرّ. ولكن مهما بلغت قدراته من التفوّق والعبقرية، فهي لا تكفي وحدها لمتابعة حربه التي يشنّها على المجتمع. إذ يحتاج لمصادر قوّة مختلفة، ماديّة وملموسة. يحتاج

---

(1) عملة فرنسية قديمة.

(2) دنانير اسبانية ذهبية.

(3) عملة ذهبية راجت في البندقية.

(4) عملة هولندية.

المخبأ الآمن، والحصانة، والسلمَ الذي يُتيح له تنفيذ مخططاته.

دون المسلّة الجوفاء يظلّ لوبين عصبيّاً على الفهم والإدراك، أشبه بأسطورة، بشخصية روائية لا تمت بصلةٍ إلى صلب الواقع. ولكنّ امتلاكه مفتاح السرّ - وأيّ سرّ! - يجعله ببساطة، رجلاً كالآخرين، وميزته أنّه يتفوّق في استخدام السلاح المذهل الذي خصّه به القدر.

إذاً، المسلّة جوفاء، إنها حقيقة لا يرقى إليها الشك. ولم يبق أمام بوترولية إلّا أن يهتدي الى طريق الوصول اليها.

من جهة البحر، بالطبع. فلا بدّ أنّ هناك فجوةً ما، لجهة عرض البحر، يمكن الوصول اليها بواسطة القوارب في ساعاتٍ محدّدة خلال المدّ والجزر. ولكن أما من سبيل للوصول اليها من جهة اليابسة؟

مكث بوترولية حتّى المساء فوق مطلّ الهاوية، وعيناه شاخصتان في الكتلة الداكنة التي تشبه الهرم. مكث متأمّلاً مستغرقاً في التفكير كأنّه يستنفد كلّ ملكات ذهنه للإهتداء.

ثمّ هبط في اتجاه إتريتا، واختار أكثر الفنادق تواضعاً فيها حيث تناول طعام العشاء ثمّ صعد الى غرفته وراح يدقق في الوثيقة.

فقد أصبحت الرموز أشبه بلعبة أطفالٍ ولن يجد صعوبةً في إيجاد معناها. وعلى الفور لاحظ أن الحروف الساكنة الثلاثة الموجودة في كلمة Etretat (*) تردُ في السطرِ الأوّل حسب الترتيب

(*) إتريتا.

الملائم والفواصل المناسبة. وهكذا يصبح تشكيل السطر الأوّل على النحو التالي.

e. a. a.. étretat. a..

فمـا هي الكلمـة التي قد تسبق كلمة إيتريتا؟ لا بدّ أنها من الكلمـات التي تدلّ على موقـع المسلّة بالنسبة للبلدة. والحالُ أن المسلّة تقع الى الجهة اليسرى، غرباً... ففكّر قليلاً ثمّ سرعان ما أدرك أنّ الريـاح الغـربيـة التي تهب على الساحل تُسمّى رياح «السافلة»، وأن البوّابة تُدعى بوّابة السافلة. فكتب :

(*) En aval d'Etretat. a..

السطر الثاني كان السطر الذي يتضمّن كلمة Demoiselles (آنسات) ولاحظ على الفور أن الأرقام التي تسبق هذه الكلمة تلائم الحروف الساكنة التي تتألف منها عبارة غرفة الـ la chambre) (des ، ودوّن العبارتين:

عند سافلة إتريتا
غرفة الآنسات

عند السطر الثالث وجدَ بعض الصعوبة في حلّ الرموز، ولم يُفلح إلّا بعد جهد، حين استعاد في ذاكرته صورة القلعة الصغيرة التي شُيّدت على غرار حصن فريفوسيّه على مقربة من غرفة الآنسات؛ وهكذا استطاع بوتروليه أن يعيد تركيب النص كاملاً تقريباً:

(*) عند سافلة إتريتا، أو، أسفل إتريتـا...

عند سافلة إتريتا ـ غرفة الآنسات ـ تحت حصن فريفوسّيه ـ مسلّة جوفاء.

كانت تلك الصيَغ الأربع الكبرى للوثيقة، الصيغ الأساسية والعامّة. ومن خلالها ندرك أنه ينبغي التوجه نحو أسفل إتريتا وأن ندخل الى غرفة الآنسات ومن هناك ينبغي، على الأرجح، العبور من تحت حصن فريفوسّيه للوصول الى المسلّة.

كيف؟ بواسطة الإرشادات والقياسات التي يتضمنها السطر الرابع:

D DF 19 F + 44 357

ولا بدّ أن هذه الرموز تشكّل صيغاً ذات أهميّة مميّزة، إذ تشير الى موقع المدخل والسبيل الذي يفضي الى المسلّة.

وسرعان ما افترض بوترولِيه ـ وفرضيّته هذه هي النتيجة المنطقية لمعطيات الوثيقة ـ أنّه إذا كان الممرّ الذي يربط اليابسة بالمسلّة موجوداً بالفعل؛ فلا بدّ أنه سرداب يبدأ من غرفة الآنسات ويمتدّ تحت حصن فريفوسّيه ليصلَ الى انحدار رأسي بانخفاض مئة متر يعادلُ ارتفاعِ الضفة الصخرية، ومن هناك يفضي نفقٌ تحت صخور البحر إلى داخل المسلّة الجوفاء.

مدخل السرداب؟ أليس هذا ما يشير اليه حرفا D و F المحفوران بعناية؟ أليس مُمكناً أيضاً أنهما يشيران الى الطريقة التي تؤدي الى فتح بابه الغريب؟

أمضى بوترولِيه صبيحة اليوم التالي متنقّلاً بين نواحي إتريتا. كان يحدّث كلَّ من يصادفهم كيفما اتفق سعياً وراء معلومةٍ مفيدة.

وفي فترة ما بعد الظهر صعد الى الضفة الصخرية. كان تنكّره في زي بحّار بلباسه القصير جدّاً ومايوه صيّادي الأسماك، يجعله أشبه بصبي لم يتجاوز الثانية عشرة.

وما أن دخل الى المغارة حتى انحنى راكعاً أمام الحرفين. وكانت الخيبة في انتظاره حاول أن يطرقهما بقبضتيه، أن يضغطهما بشدّة، أن يحرّكهما في أي اتجاه ولكنّ عبثاً ما حاول. وسرعان ما أيقن أن الحرفين ثابتين ولا سبيل لتحريكهما فعلاً، وأنهما، بالتالي، لا يتّصلان بجهاز ما لفتح باب السرداب. ومع ذلك... لا بدّ أن تكون لهما دلالة ما! وكانت المعلومات التي جمعها من أهل البلدة تفيد بأنّ لا أحد يعرف بالضبط، أو يستطيع أن يفسّر وجود هذين الحرفين في ذلك المكان، وبأنّ الأخ كوشيه قد انكبّ هو أيضاً، في كتابه القيّم حول إتريتا(*)، على تمحيص هذا اللغز. إلّا أن إيزيدور يعلم حول هذه المسألة ما كان يجهله عالِمُ الحفريات النورماندي، أي أنه يعلم بورود هذين الحرفين في نصّ الوثيقة، وفي سطر الإرشادات. فهل هي محض مصادفة؟ مُستحيل. إذاً؟...

وفجـأة طالعته فكرة وبدت له عقلانية جداً وبسيطة جدّاً فلم يساوره الشك لحظة واحدة في أنها فكرة صائبة. ألا يُعقل أن يكون حرفا D و F هما الحرفين الأوّلين من الكلمتين الرئيستين في الوثيقة؟ كلمتان تشيران - إلى جانب كلمة مسلّة - إلى المحطتين الرئيستين في خطة السير التي ينبغي اتباعها: غرفة الآنسات (Demoiselles)

(*) أصول «إتريتا» - يخلص الأخ كوشيه في نهاية تحليله الى أنّ هذين الحرفين ليسا سوى الحرفين الأوّلين من اسم عابر سبيل. إلّا أن المعطيات التي ترد في كتابنا هذا تبرهن على خطأ مثل هذا الافتراض.

وحصن فريفوسّيه (Fréfossé) . أي D الأولى و F الثانية. ففي مثل هذا التطابق ما لا يَدَعُ هامساً لفعل المصادفة.

وانطلاقاً مما سبق كان لا بدّ من اعتبار الصلة التالية: إنّ الرمز DF يجسّد العلاقة التي تربط غرفة الآنسات بحصن فريفوسّيه. فالحـرف D منفـرداً عند أوّل السطر يُشير الى الآنسات، أي الى المغارة حيث ينبغي أن نقف في البداية. أما حرف F منفرداً كما يرد في منتصف السطر فيشير الى فريفوسّيه، أي الى المدخل المحتمل للسرداب.

ومن بين هذه الرموز المختلفة، يبقى اثنان: ما يُشبه مستطيلاً غير متساوي الأضلاع تشوبه علامة عند الزاوية السفلى الى جهة اليسـار، والرقم ١٩، وهمـا علامتان تشيران دون أدنى ريب الى طريقة العبور تحت الحصن انطلاقاً من المغارة.

كان شكل المستطيل يبعث الحيرة في نفس بوتروليه. ألا يوجد من حوله، على الجنبات أو على الأقلّ على مدى بصره، كتابة ما، أو ربّما شيءٌ ما مستطيل الشكل؟

تفحّص المكان من حوله وكان على وشك الاقتناع بعبث المحاولة حين لمحت عيناه بغتةً تلك الكوّة المحفورة في الصخر والتي تشبه النافذة. ولاحظ أن حوافّ هذه الفتحة ترسم شكلاً مستطيلاً على قدرٍ من الإرتجـال، غير متساوي الأضلاع أو مستقيمها، ولكنّه شكل المستطيل. وسرعان ما لاحظ بوتروليه أنه حين وضع قدميه على الحرفين المنقوشين على الأرضية ـ وهكذا وجدّ تفسيراً للخط المرسوم فوق الحرفين في نصّ الوثيقة ـ أصبح رأسه مباشرةً على مستوى النافذة!

فوقف في ذلك الموضع وراح ينظر. كانت النافذة تطلّ، كما ذكرنا، مباشرة على اليابسة، واستطاع أن يرى أولاً الدرب الذي يصل المغارة باليابسة، وهو درب يمتدُّ بين هاويتين، ثمّ رأى قاعدة الهضبة التي شيّد عليها الحصن. وحاول بوترولبه أن يرى الحصن فانحنى قليلاً لجهة اليسار، وعندئذ أدرك معنى الخطّ المقوّس الذي رُسمَ عند الزاوية السفلى لجهة اليسار. فقد رأى عند الزاوية السفلى الى يسار النافذة قطعة صوان ناتئة وبدا طرفها مقوّساً على هيئة مخلب. بدت بالفعل كعلامة تسديد حقيقيّة، وحين سدّد نظراته من خلال علامة التسديد هذه، شاهد بوضوح، عند سفح الهضبة المقابلة مساحة ضيقة نسبياً وليس فيها سوى جدار قديم من الآجر، هو على الأرجح من خرائب حصن فريفوسّيه أو المدينة الرومانية المحصّنة التي شيّدت في الموضع نفسه.

هرع بوترولبه الى بقايا الجدار الذي لا يتجاوز طوله العشرة أمتار والذي نبت العشب على جنباته وغطّتها النباتات من كل صوب، وهناك لم يعثر على أية قرينة.

إذاً، ماذا يعني الرقم ١٩؟

عاد إلى المغارة وأخرج من جيبه كُبيبة خيوط ومتراً من القماش وراح يقيس الخيط بعد أن ربط طرفه بمخلب الصوان وعندما أتمّ قياس تسعة عشر متراً من الخيط ربط طرفه الثاني بحصاة ورماه صوب اليابسة. لم تصل الحصاة الى أبعد من طرف الدرب.

«يا لي من أحمقٍ، قال بوترولبه في سرّه وهل كانوا يستخدمون

المتر كوحدة قياس في ذلك العصر؟ ١٩ تعني ١٩ قامة(*) أو لا تعني شيئاً».

إثر عملية حساب بسيطة تبيّن له أنها تساوي ٣٧ متراً ورمى الحصاة فوصلت الى جدار الآجر المتداعي. وحاول بوترولیه أن يعثر في الجدار على الموضع الصحيح والوحيد بأية حال، الذي يبعد ٣٧ متراً عن نافذة غرفة الآنسات. استغرقه الأمر بضع دقائق من البحث والتدقيق ثمّ اقترب من موضعٍ ما وبيده الطليقة انتزع بعض أوراق البوصير النابت بين الشقوق.

وأطلق صرخة حادة. فقد وصل طرف الخيط في أقصى مداه الى اشارة صليب نقشت نقشاً بارزاً فوق أحد الأحجار.

وبالفعل فإن الرمز الذي يلي الرقم ١٩ في الوثيقة هو شكل الصليب!

بذل كلّ ما في وسعه لتمالك الإنفعال الذي انتباه فجأة. وبسرعة خاطفة وضع أصابعه المتشنجة على الصليب وضغط عليه بقوة وفي نفس الوقت أداره كما يدير عجلة. تحرّكت الآجرّةُ قليلاً. فعاود الكرّة باذلاً أقصى جهده: لم تتحرك. وعندئذ كفّ عن إدارتها واكتفى بالضغط عليها بكل ما أوتي من قُوّة. وسرعان ما أحسّ بأن شيئاً ما يحدث. ثم فجأةً سمع تكّة مزلاج، صرير قفلٍ يُفتح. ورأى بوترولیه الى الجهة اليمنى من الآجرّة قسماً من الجدار، بعرض مترٍ تقريباً، يدور دورةً على مداره ويتكشف عن فتحة سرداب.

فما كان من بوترولیه، وقد أفقدته المفاجأة صوابه، إلّا أن أمسك بالباب الحديدي المموّه وأغلقه بقوّة، كان هول المفاجأة عظيماً

(*) وحدة قياس قديمة (تعادل ستّ أقدام).

بمقدار ما امتزج شعوره بالغبطة والخوف فجعلت وجهه مشدود القسمات وبدّلت من سيمائه. فقد تراءت له كلّ المشاهد المخيفة لما جرى هناك، أمام ذلك الباب بالذات، منذ عشرين قرناً من الزمن؛ وتراءت له وجوه كافة الأشخاص الذين امتلكوا حقيقة السرّ الكبير، والذين دخلوا عبر تلك الفتحة الى السرداب... سلتيون وغوليون ورومانيون ونورمانديون وانكليزيون وفرنسيون، بارونات ودوقات وملوك، ومن بعد أولئك جميعاً، أرسين لوبين... ومن بعد لوبين، هو! إيزيدور بوتروليه... أحسَّ بأنّ دماغه يتلاشى ويغيبُ مبتعداً عنه. كانت عيناه ترمشان بسرعة غريبة فلم يلبث أن وقع مغشيّاً عليه وتدحرج فاقد الوعي الى الحافة.

كان قد أنجـز مهمّته، أو على الأقل، الجزء الذي يستطيع أن ينجزه منها بمفرده، وبالوسائل المتاحة له.

وعند المساء، كتب رسالة مطوّلة الى رئيس جهاز الأمن، ضمّنها الرواية التفصيليّة لنتائج تحريّاته واستقصاءاته وكشف فيها عن حقيقة سرّ المسلّة الجوفاء. وفي الختام طلب المساعدة لإتمام العمل وذيّل الرسالة بعنوانه.

وفي انتظار الجواب أمضى ليلتين متواليتين في غرفة الآنسات. وقد أمضاهما مُرتعدَ الفرائص مشدود الأعصاب في حالةٍ من الهلع تضاعفُ جلبةُ الليلِ من حدّتها... كانت تتراءى له أطيافٌ وظلالٌ تتقدّم نحوه. فلا بدّ أنّ العدو يعلمُ بوجوده في المغارة.. ولا بدّ أنّه قادم اليـه... لذبحه... وبرغم ذلك كانت نظراته ثابتة لا يجعلها تحيدُ، وبكلّ ما أوتي من قوّة الإرادة، عن الجدار الخرب في الجهة المقابلة.

في الليلة الأولى لم يلحظ شيئاً يعكّر سكونها. أمّا في الليلة الثانية فرأى البابَ وقد فُتح فجأةً وخرجت من كنفِ عتمته خيالاتٌ لأشخاص. إثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...

وبدا له أن هؤلاء الرجال الخمسة ينقلون أحمالاً كبيرة الحجم. واجتازوا الحقولَ مباشرةً الى طريق «هافر»، ثمّ سمع هدير سيّارة تبتعد.

عاد أدراجه، وسار بمحاذاة مزرعة كبيرة. إلّا أنه حين وصل الى منعطف الدرب الذي يحدّها عمد بغتةً الى تسلّق إحدى التلال وتوارى خلف أشجارها. ورأى رجالاً آخرين يعبرون الفتحة، أربعة.. خمسة... وكانوا يحملون عدداً من الرزم. ولم تنقض دقيقتان حتّى سمع هدير سيّارة أخرى. إلّا أنه هذه المرة لم يشأ العودة إلى مكمنه فقد أحسّ بتعبٍ شديد وذهب لينام.

عندما نهض في الصباح أتاه صبيّ الفندق برسالة. فتحها. ووجدَ أنّها بطاقة زيارة باسم غانيمار.

«أخيراً!» قال بوترولية مبتهجاً، لشدّة ما كان يشعر بالفعل، أنّ بعد مشقّات حملته المنفردة أصبح في أمسّ الحاجة للعون. وهرع اليه ممدود اليدين. فصافحه غانيمار بحرارة وتأمّله للحظات ثمّ خاطبه قائلاً:

- «إنّك حقاً لعنيد، يا بنيّ.

- دعك من هذا! أجاب إيزيدور، لقد أسعفتني المصادفات.

- لا وجود للمصادفات في الصراع معه» أكّد المفتش الذي كان لا يأتي على ذكر لوبين إلّا بلهجة وقار ودون أن يسمّيه.

جـلـس.

- «إذاً، هـل أوقعنا بـه؟

- كما سبق أن أوقعنا به أكثر من عشرين مرّة، قال بوترولِيه ضاحكاً.

- أجـل، ولـكن اليـوم...

- بالفعـل، اليوم ليس كالمرات السابقة، فنحن نعرف مخبأه، حصنه. ما يعني، برغم كلّ شيء، أن لوبين هو لوبين. وقد يتمكّن من الإفلات. أما مسلّة إتريتا فليس بامكانها الإفلات.

- ولـماذا تضـع في حسبانك احتمال تمكّنه من الإفلات؟ سـأله غانيمار متوجّساً.

- ولماذا تفترض أنّه سيتوجب عليه الفرار؟ أجابه بوترولِيه. فلا شيء يؤكد لنا أن لوبين موجود في المسلّة في الوقت الحاضر. لقد غادر أحد عشر رجلاً من رجاله خلال الليل الفائت. وربّما كان لوبين أحدهم».

أطرق غانيمار لبعض الوقت.

- «أنت محقّ في ما تقول. المهمّ هو المسلّة الجوفاء. أما الباقي فلنأمل أن يسعفنا الحظ. والآن، لنتحدّث قليلاً».

إستعاد غانيمار نبرة صوته الصارمة، ومظهر الإعتداد بالنفس وقال:

- «يا عزيزي بوترولِيه لقد تلقيت أمراً بأن أوصيك بالتكتم التام حول هذه القضيّة.

- ومن أصدر الأمر؟ قال بوترولیه مازحاً. أمر صادر عن رئيس الشرطة؟

- من مراتب أعلى.

- من رئيس مجلس الوزراء؟

- من مراتب أعلى.

- سحقاً!».

خفض غانيمار صوته.

- «بوترولیه، لقد وصلت للتوّ قادماً من قصر الإليزيه. وهناك صنّفت القضيّة على أنها سرّ من أسرار الدولة البالغة الخطورة. وثمة أسباب تدفعهم الى طلب التعتيم التام على وجود هذه القلعة اللامرئية... أسباب استراتيجيّة. فقد تصبح مركزاً للتسلّح، جبخانة لأنواع جديدة من البارود والقذائف الحديثة الصنع، ما أدراني أنا؟ الترسانة الخفيّة لفرنسا.

- ولكن كيف تأمل الإليزيه الحفاظ على السريّة التامّة حول هذا الأمر؟ في ما مضى كان رجل واحد يمتلك السرّ ولا أحد سواه، وهو الملك. أمّا اليوم فأصبح ذائعاً بين عددٍ لا بأس به من الأشخاص، بالإضافة الى عصابة لوبين.

- حتّى لو لم يَدُم هذا التكتّم أكثر من عشرة أعوام، أو خمسة أعوام! فقد يكون الخلاص فيها...

- ولكن لكي نتمكن من الإستيلاء على هذه القلعة، على ما تسميه، ترسانة المستقبل، ينبغي أن نهاجمها وأن نُجلي لوبين عنها. ولن يتمّ هذا الأمر في ظلّ التكتم التام.

ـ بالطبع، لا بدّ أن العملية ستثير بعض الشكوك والتخمينات، لكنّ الحقيقة ستبقى طيّ الكتمان. ثمّ لنحاول على الأقل.

ـ ليكن، ما هي الخطّة؟

ـ أوجزها لك بكلمتين. أوّلاً أنت لست إيزيدور بوتروليه والمعني بالقضيّة ليس أرسين لوبين. أنت مجرّد صبيّ من إتريتا شاهد في إحدى نزهاته بضعة رجال يخرجون من فتحة سرداب. ولكن أخبرني، أتعتقد أنّ هناك سلّماً جوفياً يخترق الضفة الصخرية من أعلاها الى أسفلها؟

ـ أجل، فهناك عدد من السلالم المماثلة على طول الخطّ الساحلي. لقد قيل لي مثلاً إنّ هناك سلّماً، يسمونه سلّم الكاهن، قبالة بينوفيل، وجميع روّاد الشاطىء يعلمون بوجوده. ولا أقصد هنا ثلاثة أو أربعة أنفاق أخرى يستخدمها صيادو الأسماك.

ـ إذاً، سأتولّى قيادة نصف عديد القوة التي ترافقني في عملية الدهم وستتولّى، أنت، إرشادنا الى المكان. سأدخل بمفردي أو برفقة أحد ما، سنرى هناك. المهمّ أن عملية الدهم ستتم من هذه الناحية. وإذا كان لوبين قد غادر المسلّة ننصبُ له كميناً هناك ولا بدّ أن يقع بين أيدينا ذات يوم. أما إذا كان هناك...

ـ إذا كان لوبين داخل المسلّة، يا سيّد غانيمار، فسيتمكّن من الفرار من الجهة الخلفية المطلّة على البحر.

ـ في مثل هذه الحال سيقع بين أيدي بقية رجالي.

ـ أجل، أجل، ولكن إذ اخترت توقيت العملية خلال فترة الجزر، كما أحسبُ، فعندئذ تكون المياه انحسرت عن قاعدة المسلّة وتصبح المطاردة علنية وأمام أعين صيّادي بلح البحر والجمبري وأنواع

الصدفيات الأخرى التي يعجّ بها الشاطىء الصخري المجاور.

ـ ولذلك سأختار فترة الـمدّ.

ـ في هذه الـحال سيستخدم زورقاً.

ـ وأنا أيضاً سأستخدم بضعة زوارق حيث يكون رجالي على أهبّة الاستعداد لاعتراضه والقاء القبض عليه.

ـ ماذا لو تجنّب المرور بين زوارق رجالك؟ كما قد تفلت السمكة من خروم الشبكة.

ـ ليكن. عندئذ سأعمد الى إغراق زورقه.

ـ سحقاً! هل استقدمت الـمدفعيّة؟

ـ بحقّ السمـاء، هنـاك سفينـة نسّافة في مياه الهافر متأهبة للتدخّل وفي انتظار مكالمة هاتفية منّي لتصبح في غضون ساعة في مياه المسلّة.

ـ كم سيشعر لوبين بالاعتزاز! سفينة حربيّة!... أرى يا سيّد غانيمار أنّك اتخذت كل الإحتياطات اللازمة. ولم يبق إلا أن نبدأ بالهجوم. ومتى ستتمّ العملية؟

ـ غـداً.

ـ لـيـلاً؟

ـ لا، في وضح النهار خلال فترة المدّ، عند العاشرة صباحاً.

ـ جـيّـد جـداً».

كان بوتـروليـه يُخفي خلف مظاهـر الإبتهـاج التي أبـداها، إحساساً عميقاً بالقلق. ولم يغمض له جفنٌ طوال الليل مُقلّباً في رأسـه أكثـر الخـطط استحـالة. وكان غانيمار قد غادره قاصداً

«بيبور»، على بعد عشرة كيلومترات من إتريتا، حيث من المفترض أن ينضمّ اليه رجاله هناك لمزيدٍ من الحيطة والحذر وحيث أمر بتجهيز نحو اثني عشر زورق صيد زاعماً أنها ستستخدم في عمليات سبر على طول الخط الساحلي.

عند التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين انضمّ إلى إيزيدور مصحوباً بدزينة من الرجالِ الأقوياء عند أسفل الدرب التي تفضي صعداً إلى أعلى الضفة الصخرية. وكانت ساعة الصفر قد دنت.

ـ «ما بكَ إذاً، يا بوترولِيه؟ تبدو لي ممتقعاً؟ قال غانيمار هازئاً.

ـ وأنت يا سيّد غانيمار، أجاب بوترولِيه، تبدو وكأنّ ساعة الأجل قد حانت».

جلسوا جميعاً، وتناول غانيمار بضع جرعات من الشراب.

ـ «لا أقول إنها لحظات التهيّب، قال، ولكن، اللعنة، أي انفعال! ففي كلّ مرّة أقتربُ فيها من لحظة الإمساك به أشعر بشيء من الإنقباض والتشنّج. أتريد جرعة من الشراب؟

ـ لا.

ـ ماذا لو مكثتَ هنا؟

ـ أفضّل الموت.

ـ سحقاً! على أية حال، سنرى. والآن، هيّا افتح. ألا يستطيعون رؤيتنا من هناك؟

ـ لا، فالمسلّة أقلّ ارتفاعاً من الضفة، بالإضافة إلى أنّ المكان الذي نقف فيه أشبه بمُنخفضٍ في أرضٍ مستوية».

دنــا بوتــروليــه من الجدار وضغط على الآجرّة. فسمعت تكّة المـزلاج وتبعها الدوران التلقائي وظهرت فتحة السرداب، فدخلا مزوّدين بمصابيح ولاحظا أن النفق محفورٌ في شكلِ قبّة وأنّ هذه القبّة مكسوّة بالآجرّ وكذلك أرضيّتها.

سارا لبضــع ثوانٍ وإذا بهما أمام سلّم. وعدّ بوترولیه خمساً وأربعين درجة من الآجرّ أيضاً وبدت جميعها خاسفةً من الوسط بفعل الوطء البطيء على مرّ الزمن.

ـ «سحقاً! صرخ غانيمار مغيظاً وقد وضع يده على رأسه وتوقف فجأة كأنه ارتطم بشيءٍ ما.

«مــا الأمــر؟

ـ إنــه بــاب!

ـ تبّاً، تمتم بوترولیه بعد أن رآه، وليس من السهل اقتحامه. إنّه كتلة من الحديد.

ـ لقد قُضي الأمر، قال غانيمار، حتى أنني لا أرى أثراً لقفل أو مزلاج.

ـ وهذا بالضبط ما يُبقي لديّ بعض الأمل.

ـ كـيـف؟

ـ يوضع الباب عادةً لكي يُفتح، وإذا كان هذا الباب من دون قفل أو مزلاج فلأنّ هناك طريقة سريّة لفتحه.

ـ وبما أننا لا نعرف شيئاً عن سرّ فتحه..

ـ سأهتــدي إليــه.

كـيـف؟

ـ بواسطة الوثيقة. فقد وضع السطر الرابع لغايةٍ وحيدة وهي أن يساعد على حلّ الصعوبات الطارئة. ولا بدّ أن يكون الحل بسيطاً نسبيّاً لأنه كُتب في الأصل لا بقصدِ التضليل بل بقصد المساعدة.

ـ بسيط نسبيّاً! لا أشاطرك الرأي، صرخ غانيمار وقد بسط الوثيقة أمامه... الرقم ٤٤ ويليه مثلّث ونقطة في زاويته اليسرى؛ أجد الرمز غامضاً.

ـ لا، على الإطلاق. تفحّص الباب جيّداً وستلاحظ أنّه مُدَعَّم عند الزوايا الأربع بألواح حديدية مثلثة الشكل وأن هذه الألواح مثبّتة بمسامير ضخمة. لنأخذ لوح الزاوية السفلى لجهة اليسار ونحاول تحريك المسمار المثبت عند الزاوية... وأعتقد أن حظوظ النجاح في مسعانا هي الغالبة بنسبة تسعة أعشار مقابل عُشرٍ واحد.

ـ لقد أصبنا العُشر الواحد، قال غانيمار بعد أن حاول وأخفق.

ـ إذاً، يبقى أن نرى ما معنى الرقم ٤٤...».

وإذ بدا مستغرقاً في التفكير، أردف بوترولیه قائلاً بصوتٍ خفيض:

ـ «لنرَ قليلاً... نقف غانيمار وأنا جنباً إلى جنب على الدرجة الأخيرة من السلّم... وهناك ٤٥ درجة... ولكن لماذا ٤٥، بينما تُشيرُ الوثيقة الى الرقم ٤٤؟.. أهي مجرّد مصادفة؟ لا... لم نجد في هذه القضيّة ما يمكن وصفه بالمصادفة، أو في الأقل ما يمكن وصفه بالمصادفة غير المتعمدة. هلاّ صعدت درجة واحدة يا غانيمار.. حسناً.. الزم مكانك عند الدرجة الرابعة والأربعين. والآن أحرّك المسمار فيُفتح الباب وإلاّ أكون مجرّد أبله».

وبالفعل فُتح الباب تلقائياً على مصراعه، ودخلا الى كهفٍ فسيحٍ نسبيّاً.

- «لا بدّ أننا أصبحنا تحت حصن فريفوسّيه. قال بوترولِيه؛ فقد شُقَّ النفق عبر طبقاتٍ من التراب المتكلّس،، انتهى غطاء الآجرّ. وأصبحنا في قلب الكتلة الكلسية».

كانت الحجرة مضاءةً بانعكاسِ ضوءٍ خافت مصدرهُ الجهة المقابلة. وحين اقتربا قليلاً تبيّن أنه ناجم عن شقٍّ عريض نسبياً استحدث في نتوءٍ بارز من الجانب الداخلي لجدار الضفة الصخرية ويُستخدم على الأرجح كمرصد. وقبالتهما، على بعد خمسين متراً كانت كتلة المسلّة الهائلة باسقةً من بين الأمواج. ولجهة اليمين بدت القوس الحجرية العملاقة لبوابة السافلة، ولجهة اليسار، أبعد قليلاً، بدت قوسٌ حجريّة أخرى، أكثر ضخامة من الأولى وكأنها عُلّقت فوق جونٍ واسع. إنها بوابة الأعطيات (مانيا بورتا)، الهائلة الحجم والارتفاع، حتى أنّ سفينة كبيرة قد تعبر تحت قوسها بصواريها المرتفعة وأشرعتها. وفي الخلفية البعيدة لا شيء إلّا مياه البحر.

- «لا أرى أسطولنا الصغير، قال بوترولِيه.

- ليس بامكانك أن تراه، قال غانيمار، لأنّ بوّابة السافلة تحجب عنّا كلّ شاطىء إترِيتا وييبورت. ولكن انظر، هناك، في عرض البحر، أترى هذه الكتلة السوداء عند الأفق..؟

- أجل..

- إنها أسطولنا الحربي، السفينة النسّافة رقم ٢٥. والآن باستطاعة لوبين أن يحاول القرار... إذا أراد أن يتمتع بمناظر

الأعمـاق». لحـا طرف درابزين خشبي قرب المرصد فأدركا أنها فتحة سلّم. فسلكاه، ومن حين الى آخر، كانا يلاحظان وجود كوّة في الجدار ومنها يشاهدان المسلّة التي كانت تبدو أكثر ضخامة في كلّ مرّة. وقبل أن يصلا الى مستوى المياه بقليل أصبح الجدار خالياً من الكوى وسادت العتمة.

كان إيزيدور يعدّ درجات السلم بصوتٍ مسموع. وبعد أن هبطا ثلاثمئة وثماني وخمسين درجة أفضيا إلى رواقٍ أوسع تسدّه بوّابة أخرى مدعّمة بألواح حديديّة ومسامير.

- «نعرف الطريقة، قال بوترولیه، تُشير الوثيقة الى العدد ٣٥٧ وإلى مثلّث موسوم بنقطة الى جهة اليمين. ليس علينا إلّا أن نكرّر ما فعلناه في المرّة السابقة».

وفُتح الباب الثاني كما فُتح الأوّل. وطالعهما نفق طويل، نفق طويـل جدّاً تُضيئه في مواضع متفرقة أنوار مصابيح مُتدَليّة من السقف المقبّب. كانت الجـدران ترشـحُ رطوبةً وأغرقت القطرات المتساقطة منها أرض النفق ففرشت برصيف حقيقي من الألواح لتسهيل عبور المارّين.

- «إننا نعبر تحت البحر، قال بوترولیه. هلّا تبعتني يا غانيمار؟».

دخَل المفتش الى النفق ومشى فوق الألواح الخشبية وتوقف عند أحد المصابيح وانتزعه من مكانه:

- «المصـابيـح قديمة وربّما صُنعت في القرون الوسطى، أمّا أسلوب الإنارة فحديث العهد. فهؤلاء السادة يستخدمون الرتينات المشتعلة للإنارة».

تابع طريقه. وأفضى بهما النفق الى كهفٍ آخر أكثر اتساعاً من الأوّل حيث تراءت، قُبُلاً، أولى درجات سلّم يُفضي إلى الأعلى.

ـ «والآن بدأ درب الصعود نحو المسلّة، قال غانيمار، ومن الآن فصاعداً ستصبح الأمور أشد خطورة».

إلّا أنه سمع أحد رجاله يُناديه:

ـ «هناك سلّم آخر، هناك، إلى الجهة اليسرى».

ثمّ انتبهوا الى وجود سلّم ثالث إلى الجهة اليمنى.

ـ «سحقاً، تمتم المفتّش، لقد ازدادت الأمور تعقيداً. فإذا سلكنا هذا الاتجاه قد يتمكن اللصوص من الفرار عبر الاتجاه الآخر.

ـ لننفصل إذاً وليذهب كلٌّ منا في اتجاه، قال بوترولية.

ـ لا، لا... بهذه الطريقة نفقد عنصر تفوّقنا العددي... من الأفضل أن يذهب أحدنا للإستطلاع.

ـ أنا أذهب إن شئت...

ـ أنت يا بوترولية، ليكُن. وسأمكث هنا مع رجالي... وبهذه الطريقة لا نتوقّع مفاجآت غير محسوبة. فقد يكون هناك دروب أخرى غير ذلك الدرب الذي سلكناه عند الضفة الحجريّة، وقد يكون هناك أيضاً أكثر من درب داخل المسلّة. ولكنّ المؤكد أنّ لا وجود لأي ممرّ آخر يصل الضفة بالمسلّة إلّا النفق. إذاً، هذا الكهف هو الممرّ الإجباري. ولذلك سأمكث هنا إلى حين عودتك. هيّا، اذهب يا بوترولية، وكُن حذراً... وعند بوادر أي خطر.. عُد أدراجك على الفور».

وبسرعة سلك بوترولية سلّم الوسط. وبعد أن تسلّق ثلاثين درجة

أوقفه بابٌ، بابٌ حقيقي من الخشب فأمسك بعتلة القفل وأدارها. لم يكن الباب مقفلاً.

دخل الى ردهــة بدت له واطئة السقف ولكنّها فسيحة جدّاً. وكانت مصابيح ساطعة وُضعت فوق مساند ثخينة تُضيءُ أرجاءها. كانت الردهة في اتساع تجويف المسلّة بلا ريب، وقد كدّست فيها أعدادٌ من الصناديق والحاجيّات وقطع الأثاث والكراسي والصيان والخزائن؛ ركام من كلِّ نوع أشبه بمستودع متجر للتحف. ولاحظ بوترولبه، إلى جهة اليمين وجهة اليسار، فتحتين لسلّمين هما من دون شك امتـداد السلّمـين اللذين يمتـدان صُعُـداً من الكهفِ السفــلي. كان باستــطاعتـه أن يعود أدراجه لإبلاغ غانيمار بما شاهده. إلاّ أنّه أراد أن يواصل استطلاعه بمفرده، فسلك سلّم الوسط.

بعد ثلاثين درجة، باب آخر، وردهة أخرى أقلُّ اتساعاً. وأمامه، في الوسط سلّم آخر الى أعلى.

ثلاثون درجة. باب. ردهة أقل اتساعاً من السابقة...

هكذا استطاع بوترولبه أن يفهم مخطط الأشغال التي نفّذت داخل المسلّة. فقد كان جوف المسلّة عبارة عن طبقات، كل طبقة منها هي عبارة عن ردهة تُصبح أقل اتساعاً كلّما ازداد ارتفاعها. وتُستخدم جميعها كمخازن لذلك الركام الذي رآه.

كانت الطبقــة الرابعة خالية من المصابيح، ولا يُضيئها سوى ضوء النهار الخافت الذي يتسرب من الشقوق؛ ولاحظ بوترولبه عبر أحد الشقوق أن هذه الطبقة تعلو سطح البحر بنحو عشرة أمتار.

في تلك اللحظة راوده الشعور بأنّه ابتعد كثيراً عن غانيمار وراح القلق يتسرّب الى كيانه، وكان عليه أن يبذل الكثير من الجهد لتمالك خوفه ومقاومة رغبته في الرجوع من حيث أتى. ومع ذلك لم يكن في المكان ما يُثير الريبة، بل، على العكس من ذلك، بدا الصمت مطبقاً وثقيلاً حتى أن بوترولبه سأل نفسه سراراً عما إذا كان لوبين ورجاله ما زالوا فعلاً داخل المسلّة.

«سأتابع الإستطلاع حتى الطبقة التالية ثمّ أعود»، قال إيزيدور في سرّه.

ثلاثون درجة، كالمعتاد، ثمّ باب، إلاّ أنه بدا هذه المرّة من خشب أخفّ وحديث الطراز. ففتحه على مهل تحسُّباً لأية مفاجأة. لم يجدْ أحداً في الداخل، إلاّ أنه لاحظ فوراً أن الردهة تختلف عن سابقاتها. فقد كُسيَت الجدران بسجادات الحائط. وفرشت الأرض بالسجّاد. ولفته وجود خزانتين رائعتين للأطباق وُضعت إحداهما قبالة الأخرى وصُفّت في داخلهما أنواع المصوغات المختلفة. أما النوافذ الصغيرة المستحدثة في الجدران فقد كانت مزوّدةً بأطر زجاجية.

في وسط الغرفة طاولة كُسيَت بغطاء من الدانتيللا ووضعت عليها أوعية مليئة بمربيّات الفاكهة والكعك، بالإضافة الى زجاجة شمبانيا في غرّافة ثلج، وورودٍ، بل أكوامٍ صغيرةٍ من الورود.

وفوق الطاولة وضعت ثلاثة صحون.

اقترب بوترولبه. فوجدَ فوق الفوط الثلاث بجانب الصحون ثلاث بطاقات كتب عليها أسماء المدعوين.

قرأ الإسم في البطاقة الأولى: أرسين لوبين.

وقبالته بطاقة: السيّدة أرسين لوبين.

ومـا أن قرأ الإسم على البطاقة الثالثة حتى سرت في أوصاله رعشة ذهول. فقد كانت تحمل اسمه: إيزيدور بوترولية.

الفصل العاشر

كنز ملوك فرنسا

فُتِحَت ستارة.

ـ «صباح الخير يا عزيزي بوترولِيه، لقد تأخّرت بعض الشيء. لقد كان موعد الغداء عند الثانية عشر ظهراً. ولكن لا بأس، بضع دقائق من التأخير... ما الأمر؟ أما عرفتني؟ لقد تغيّرتُ إذاً إلى هذا الحدّ!».

لقد شهد بوترولِيه خلال صراعه ضدّ لوبين عدداً لا بأس به من المفاجآت، وكان، بالطبع، يتوقّع المزيد منها في اللحظات الأخيرة، إلّا أنّ الصدمة، هذه المرّة، كانت غير متوقّعة. وما نتج عنها ليس حالة من الذهول، بل حالة من الإنشداه، حالة من الرعب.

فقد كان الرجل الذي يقفُ قبالته، الرجل الذي أرغمته قوّة الأحداث المتلاحقة على اعتباره أرسين لوبين، كان الرجلُ الواقف هناك فالميرا. فالميرا! هو نفسهُ الذي استعان به إيزيدور ذات مرّة ضدّ أرسين لوبين. فالميرا! الصديق الشجاع الذي ساعد على اطلاق سراح ريموند بعد أن ضرب، أو تظاهر بضرب، أحد شركاء لوبين المزعومين في عتمةِ الردهة!

ـ «أنت.. أنت... هذا أنت إذاً! قال مُتلعثماً.

ـ ولمَ لا؟ صرخ لوبـين. وهل كنت تحسب أنّك كشفت هويتي الحقيقيّـة لأنّك رأيتني متنكّراً بزيّ رجل دين انكليزي أو منتحلاً شخصية السيّد ماسيّيان؟ للأسف الشديد، عندما يختار من هو مثلي الدور الاجتماعي الذي ألعبه فلا بدّ أن يستغلّ تلك المواهب الاجتماعية الصغيرة. فإذا كان لوبين لا يستطيع، حين يشاء، أن يكون كاهن كنيسة انكليزيّة أو عضواً في أكاديميّة المدوّنات والفنون الجميلة، فذلك يعني أن لوبين لم يَعُد هو نفسُه لوبين. والحالُ، يا بوترولِيه، ان لوبين، لوبين الحقيقي يقف أمامك الآن! فانظر جيّداً يا بوترولِيه...

ـ ولكن إذا... إذا كنت أنت لوبين، فالآنسة...

ـ بالضبط، يا بوترولِيه، لقد قلتها أنت...».

أزاح الستارة مجدّداً وأشار بيده ثمّ قال مُعلناً:

ـ «السيّدة أرسين لوبين.

ـ آه! تمتم الفتى الذي بدا مرتبكاً... الآنسة دو سان فيران.

ـ لا، لا، قال لوبـين معترضاً! أو الأحرى، إن شئت، السيّدة لويس فالـميرا، زوجتي الشرعيّـة حسبَ الأصول المرعيّة الإجراء والقانونيّة. وكل ذلك بفضلك أنت يا عزيزي بوترولِيه».

ومـدّ لـه يـده.

ـ «كلّ امتناني... ومن جهتك آمل أن لا تضمر لي أيّ حقد».

والمستغرب في الأمر أنّ بوترولِيه لم يكن يشعر بالحقد عليه، ولا بالمهـانة ولا بالمرارة. فقد كان يتلقّى غلبة خصمه التامّة بتماسك

داخلي مذهل ولا يشعر بالخجل حيال إحساسه بالهزيمة. فصافح اليد الممدودة لمصافحته.

- «لقد أصبح الطعام جاهزاً يا سيّدتي».

كان الخادم قد وضع صينيّة من الأطعمة على الطاولة.

- «نرجو منك المعذرة يا بوترولِيه، إن الطبّاخ في إجازة ولذلك سنأكل طعاماً بارداً».

كان بوترولِيه لا يشعر برغبةٍ في الطعام. ومع ذلك جلس الى المائدة وقد استثار سلوك لوبين فضولَه. فما الذي يعرفه لوبين بالضبط؟ هل يعي خطورة الموقف الذي يتهدّده؟ ألا يعلم بوجود غانيمار ورجاله؟... وأردف لوبين قائلاً:

- «أجل، بفضلك أنت يا صديقي العزيز. لقد أحببتُ ريموند وأحبّتني بالطبع منذ لقائنا الأوّل. بالضبط يا بنيّ... أمّا عملية الخطف والإحتجاز فكانت مجرّد دعابات: لقد أحببتها وبادلتني الحبّ منذ البداية... إلّا أنّها أبَتْ، كما أبيتُ أنا بالطبع، أن يقوم بيننا ذلك النوع من العلاقات العابرة التي تتحكّم بها المصادفة. وهكذا واجه لوبين موقفاً صعباً. ولكنّ الصعوبة تزول إذا عاد لوبين الى انتحال شخصية لويس فالميرا التي لازمتني منذ نعومة أظفاري. وعندئذ وحيال إصرارك على ملاحقتي واكتشافك قصر المسلّة، قرّرت أن أستغلّ عنادك.

- وحماقتي..

- دعكَ من هذا! أوتحسب أن الخدعة ما كانت لتنطلي على أي شخص آخر؟

ـ بحيث أنّك نجحت في مَسعاك تحت الغطاء الذي وفّرته لك وبمساعدتي؟

ـ بحقّ السماء! من كان ليرتاب بأنّ فالميرا هو لوبين ما دام فالميرا صديق بوترولیه وما دام فالميرا قد انتزع من لوبين المرأة التي كان يحبّها؟ كم كان الأمر مُسليّاً. آه! الذكريات الجميلة! رحلة كروزون! باقات الورد: ورسالة الحبّ المزعومة الموجهة الى ريموند! وفي ما بعد الاحتياطات التي كان عليّ، أنا فالميرا، أن أتخذها تحسّباً لأي ردّ فعل من قِبَلي، أنا، لوبين، قبل زواجي! وليلة المأدبة التي أقيمت تكريماً لك، عندما تهالكت يأساً بين ذراعي! آه! يا لها من ذكريات جميلة!...».

ساد صمتٌ. التفت بوترولیه نحو ريموند. كانت تُصغي الى لوبين دون أن تنبس بكلمة واحدة، وكانت ترمقه بنظرات مفعمة بالحبّ والشغف، ومفعمة بأشياء أخرى لم يستطع الفتى أن يُدرك مغزاها بالضبط، كأنها الإحساس بالحرج المقلق أشبه بكآبة غامضة المصدر. ولكنّ لوبين التفت ونظر اليها فابتسمت له برقّة. والتقت أيديهما على الطاولة.

ـ «كيف وجدت بيتي الصغير يا بوترولیه؟ سأله لوبين فجأةً... ذروة التناسق، أليس كذلك؟ لا أزعم أنّه منتهى الرفاهية... ومع ذلك فإنّ بعضهم أحبّ الإقامة فيه، وليس هؤلاء هم الأقلّ شأناً... أنظر، هذه اللائحة بأسماء الأشخاص الذين تعاقبوا على ملكية المسلّة، وحرصوا على أن يتركوا أثراً لهم فيها».

التفت بوترولیه ورأى على الجدران من حوله هذه الأسماء التي حُفرت على التوالي:

قيصر. شارلمان. رول. غيوم الفاتح، ريتشارد، ملك انكلترا. لويس الحادي عشر. فرنسوا الأوّل. هنري الرابع. لويس الرابع عشر. أرسين لوبين.

ـ «ومن تراه يكون التالي؟ أردف قائلاً. للأسف الشديد! لقد تمّت اللائحة. من قيصر الى لوبين، وقضي الأمر. وقريباً جدّاً ستتوافد الحشود لزيارة القلعة الغريبة. وحسبي أن يُقال في ما بعد إنّها، لولا لوبين، لظلّت مجهولةً لم ترها عينُ بشر! آه! يا بوتروليه، لو تدرك ما أحسستُ به من مشاعر الاعتزاز يوم وطئت قدميْ هذه الأرض المهجورة! أن أُعيد اكتشاف السرّ الضائع وأصبح مالكه، مالكه الوحيد! وريث مثل هذا الميراث! وبعد هذا العدد الكبير من الملوك، أن تصبح المسلّةمَسْكناً لي!...».

أشارت زوجته بيدها فسكت. بدت شديدة الاضطراب.

ـ «أسمع جَلَبةً، قالت... مصدرها الطبقات السفلى... هلا أصغيتما...

ـ إنه صوت تقلّب الأمواج، قال لوبين.

ـ لا.. لا.. أنا أعرف جيّداً صوت تقلّب الأمواج... إلّا أن الجلبة مختلفة...

ـ ومن تحسبين أنّه قد يكون، يا صديقتي العزيزة، قال لوبين ضاحكاً. لم أدعُ إلّا السيّد بوتروليه ليشاركنا طعام الغداء».

وخاطب الخادم قائلاً:

ـ «يا شاروليه، هل أوصدت أبواب السلالم بعدَ مجيء السيّد؟

ـ أجل، وأحكمتُ إقفالها».

نـهـض لوبيـن:

ـ «هيّا يا ريموند، لا تخافي، ما بالك ترتعدين على هذا النحو؟.. آه! وما سبب شحوبك هذا؟».

وانحنى وهمس ببعض العبـارات في أذنها، وفي أذن الخادم، وأزاح الستارة وأخرجهما معاً.

في الأسفل كانت الجلبة قد أصبحت مسموعة بوضوح. ضربات تتكرّر على التوالي بانتظام. وفكر بوترولبه:

ـ «لا بدّ أن غانيمار قد عيل صبره ويحاول الآن أن يُحطّم الأبواب».

ثمّ، بهـدوءٍ بالغ كأنّه لم يسمع الضوضاء بالفعل، قال لوبين متابعاً حديثه:

ـ «كـانت المسلّة أشبه بالخربة حين اهتديت اليها! وكان من الواضح جدّاً أن أحداً لم يكتشف سرّها منذ قرنٍ من الزمن، منذ عهد لويس السادس عشر والثورة. كان النفق على وشك الانهيار التام، والسلالم تكاد تصبح حطاماً، وكانت المياه تتسرّب بقوّة الى الجوف. وكان عليّ أن أدعم وأسنّد وأن أُعيد البناء من جديد».

لم يتمالك بوترولبه نفسه عن القول:

ـ «وهل كان المكان خالياً حين وصلت؟

ـ تقريباً. فلا بدّ أن الملوك لم يستخدموا المسلّة كمستودع كما أفعل أنا الآن...

ـ استخـدمـوه كـمـلاذٍ، إذاً؟

ـ أجـل، من دون شك، خلال مراحـل الغـزو وخلال سنوات الحـروب الأهلية أيضاً. إلّا أنّ وجهة استخدامه الفعلية فهي... كيف أقول لك؟ أن يكون خزنة ملوك فرنسا».

تسـارعت الضربـات وبـدت كأنها أصبحت أقرب. فلا بدّ أن غانيمار قد حطَّم الباب الأوّل ويعمل على تحطيم الثاني.

ساد الصمت لبعض الوقت ثمّ عادت الضربات أقرب وأقرب. كان غانيمار يحطِّم الباب الثالث.

ومن خلال إحـدى النـوافذ رأى بوترولیه الزوارق التي كانت تبحـر حول المسلّة، وعلى بُعدٍ منها، السفينة النسّافة عائمة مثل سمكة سوداء هائلة الحجم.

ـ «يا لهذه الضوضاء! قال لوبين بلهجة تعجّب، أكادُ لا أسمع شيئاً! هلّا صعدنا الى الطبقة العليا؟ فقد تجد في زيارتك للمسلّة ما يُثير اهتمامك».

وانتقلا الى الطبقة العليا المحصّنة كسابقاتها بباب لم يلبث لوبين أن أغلقه خلفهما.

ـ «معرض لوحـاتي»، قـال.

كانت الرسومات تُغطّي جدران الردهة، واستطاع بوترولیه أن يقرأ عليها تواقيعَ أشهر الرسامين. ومن بينها «عذراء آنيوس داي» لرفاييل، و«رسمة لوكريسيا فيدي» لأندريه دل سارتو، و«سالوميه» لتيتان، و«العذراء والملائكة» لبوتيتشيلّي؛ ولوحات أخرى لتانتوريه وكرباتشو ورامبرانت وفيلاسكيز.

ـ «إنها نسخٌ جميلة!» قال بوترولیه...

فرمقه لوبين بنظرات ذهول:

«مـاذا! نُسـخ! هل جننت! النسخ، يا عزيزي، هي تلك التي تُعرضُ اليوم في فلورنسا والبندقية وميونيخ وأمستردام.

ـ أيُعقـل هـذا؟

ـ إنّها اللوحات الأصلية التي جمعتها من كافة متاحف أوروبا والتي استبدلتها بنسخ متقنة جداً.

ـ ولكـن ذات يـوم...

ـ ذات يوم سيتمّ فضح عملية التزوير؟ عندئذٍ سيجدون توقيعي على مقلب كلّ لوحة وسيعلم الجميع أنني زوّدت بلادي بهذه الروائع الأصلية. وبأية حال لم تقترف يداي إلاّ ما اقترفته يدا نابوليون في إيطاليا... آه! انظر يا بوترولیه هذه لوحات السيّد دو جيفر التي تحمل توقيع روبنز».

كانت الضربات تتواصل مُرددةً صداها في جوف الـمسلّة.

ـ «إنه أمر يفوق احتمالي! قال لوبين. لنصعد إلى طبقة أخرى».

سلّم آخر. وباب آخر.

ـ «صالة سجادات الحائط» قال لوبين.

لم تكن السجادات معلّقة على الجدران بل وضّبت كلفافات كبيرة ورُبـطت بسيـور واعتلمت ببطاقات، ثمّ وُضعَتْ إلى جانب لفافات أخـرى من القمـاش القـديم. وراح لوبـين يقلّبها: ديباج رائع، مخمليّـات مذهلة، حرائـر مختلفـة ذات ألوان باهتـة، ومطرّزات وأقمشة موشّاة بالذهب والفضة...

صعد إلى طبقة أخرى، فشاهد بوتروليه صالة ساعات الحائط، ثم صالة الكتب (أوهِ! تلك المجلّدات الفخمة والنسخ الثمينة النادرة التي سُرقت من المكتبات الكبرى!) ثمّ صالة الدانتيللا، وصالة التحف والأواني المزخرفة.

وكانت مساحة كلّ صالة تبدو أقلّ اتساعاً من سابقتها. وكلّما علت الطبقات ابتعدت أصداء الضربات. لا بدّ أن غانيمار كان يجد صعوبةً في اللحاق بهما.

- «الصالة الأخيرة، قال لوبين، صالة الكنز».

كانت الصالة الأخيرة تختلف عن سابقاتها. فهي وإن كانت دائرية الشكل كالصالات الأخرى، إلاّ أن سقفها المرتفع بدا مخروطياً. فالصالة الأخيرة تحتلّ الجزء الأعلى من الهيكل الحجري ويبلغ ارتفاعها، حتّى أعلى قمة المسلّة، نحو خمسة عشر أو عشرين متراً.

لم يرَ بوتروليه نوافذَ في الجنبات الداخلية للبناء لجهة الضفّة الحجرية العالية. أمّا لجهة البحر، حيث لا خشيةَ من نظرات الفضوليين، فقد استحدثت في الجدار كوّتان كبيرتان زوّدتا بأطر زجاجية فتبدو أرجاء الصالة مضاءةً بدفقٍ من ضوء النهار. أما الأرضيّة فقد كُسيَت بألواحٍ خشبيّة من النوع النادر نُقشت عليها دوائر متداخلة. كما ثُبّت عددٌ من الواجهات على الجدران وفي داخلها عددٌ آخر من الرسومات.

- «إنها تحف مجموعاتي كلّها، قال لوبين. فكلّ ما شاهدته حتّى الآن بضاعة معروضة للبيع والشراء. إنها أصول المهنة. أما هنا، في هذا الحرم، فكل شيء مقدّس. لا أحتفظ هنا إلاّ بالمختار،

الجوهري، أجود الأجود، ما لا يُقدّر بثمن. انظر الى هذه الجواهر يا بوترولیه، تمائم كلدانية، عقود مصريّة، أساور سلتيّة، سلاسل عربيّـة... انـظر الى هذه التمـاثيل الصغيرة يا بوتروليه، فينوس اليـونـانية، وأبولون الكورنثي... انظر الى هذه الطنغرات(*)، يا بوتروليه! كلّ الطنغرات الأصلية موجودة هنا، وكلّ ما تجده منها خارج هذه الواجهة مُزيّفٌ. كم تستخفّني الغبطة حين أجاهر بهذا الأمـر! أتـذكر يا بوتروليه لصوص الكنائس في الجنوب، عصابة طوماس ـ إنهم عملائي، بأية حال ـ أتذكر، وما تراه أمامك الآن هو صنـدوق أمبـازاك، الحقيقي يا بوتروليه! أتذكر فضيحة اللوفر، عنـدما تبيّن أن التاج الفارسي مزيّف وأنه نسخة صممتها مخيلة فنان حديث... هذا هو التاج الفارسي، الأصـلي، يا بوتروليه! وهذه معجزة المعجزات، وتحفة التحف، «جوكوندة» ليوناردو دي فنشي الأصلية. اركع يا بوتروليه، الأنثى، رمز الأنثى أمامك!».

ساد صمت عميق بينهما. وفي الأسفل كانت الضربات تقترب. بابان أو ثلاثة على الأكثر تفصلهما عن غانيمار. وفي عرض البحر تبدو بوضوح السفينة النسّافة ومن حولها الزوارق الصغيرة التي تقوم بأعمال الدورية. فسأل الفتى:

ـ «والـكـنـز؟

ـ آه! يا صغيري، تبدو متلهفاً لرؤية الكنز! كأنّ كل الروائع التي أنتجهـا الفن البشري لا يعنيـك في شيء، أليس كذلك؟ كل هذه الروائـع لا تسـاوي، في عين الفضـول، تأمُّل الكنز... ولا بدّ أن

(*) تماثيل صغيرة جميلة. تُصنع من طين تاناغرا باليونان.

لحشودَ العتيدة ستشاطرك الرأي!... إذاً هيّا، يا بنيّ، لا نريدك إلّا راضياً!».

فضرب بإحدى قدميه الأرضيّة فانقلب أحد الألواح الدائرية لتي تغطي الأرض فرفعه كما يرفع غطاء علبة، فبدا تحته تجويفٌ في شكل دنّ، مستدير، وقد حُفر في الصخر.. كان التجويف فارغاً. نابتعد لوبين قليلاً ورفع لوحاً آخر فبدا دَنّ آخر! وكان فارغاً أيضاً. أعاد الكرّة ثانية وثالثة. وكانت الدِنان الثلاثة الأخرى فارغة.

ـ «ماذا ترى! قال لوبين هازئاً، يا للخيبة! لقد كانت الدِنان الخمسة مليئة بالمجوهرات والمال في عهد لويس الحادي عشر وعهد هنري الرابع، وفي عهد ريشوليو. ولكن فكّر ملياً بما صنعه لويس الرابع عشر، وجنون فرساي، والحروب والكوارث التي توالت في عهده! وفكّر ملياً بما صنعه لويس الخامس عشر، الملك الضال، والبومبادورة، على طريقة بارّي! كم استنفد هؤلاء من الكنوز! حتى حفروا الحجر بأظافرهم بحثاً عن البقية! وكما ترى، لم يبق شيء».

ثـمّ تـوقـف.

ـ «بلى، يا بوتروليه، لقد تبقّى شيء ما، المخبأ السادس! لم يُمسّ... لم يجرؤ أحد منهم على ذلك. لقد كان المصدر الأعظم للثروة... ولنقُل، إن جازت العبارة، إجّاصة الزاد التي تروي الظمأ، يا بوتروليه». فانحنى ورفع الغطاء فبدت خزنة داخل الدَنّ الصخري. فأخرج لوبين من جيبه مفتاحاً وفتحها.

كان البريق المنبعث من محتوياتها يُغشي الأبصار. كلّ الأحجار الكريمة متوقّدة اللمعان بألوان شتّى، لازورديّ اليواقيت وحمرتها اللاهبة، أخضر الزمرّدات وسطوع شمس الزبرجد.

ـ «انـظر، انظر يا بوترولیه. لقد استنفدوا كلّ المال، القروش والريالات والدوقان والدبلونات المذهّبة، لكنّ أحداً منهم لم يمسّ خزنة الأحجار الكريمة! انظر الى مصوغاتها، منها ما صُنع في كافة العصور والقرون والبلدان. كلّ ما جمعته الملكات من بائنات تجده هنـا: كلّ واحـدة منهن كنـزت حصتهـا، مرغريت الاسكتلندية، شارلوت بلاد السافوا، ماري ملكة انكلترا وكاثرين دو ميديسيس، وكـلّ أرشيدوقات النمسا، إليونور، أليزابيت، ماري تيريز، ماري انطوانيت... انظر الى هذه اللآلىء يا بوترولیه! وهذه الماسات! حجم هذه الماسات. كلّ واحدة منها تليق بامبراطورة! إن جوهرة الوصيّ في تاج فرنسا ليست أجمل منها!».

نهض ومدّ يده كأنّه يهمّ بأداء قسم:

ـ «ستخبر العالم بأسره أن لوبين لم يمسّ حجراً واحداً من هذه الأحجـار الكريمة التي تحتويها الخزنة الملكية، لم أمسّ واحداً منها، أُقسم بشرفي! ليس من حقّي أن أفعل. إنّها ثروة فرنسا...».

كان غانيمار في الأسفل، يبذل ما في وسعه للإسراع في الوصول اليهما؛ وبدا، من صدى الضربات، أنه يُعالج البابَ ما قبل الأخير، ذلك الذي يُفضي الى صالة التحف والأوعية المزخرفة.

ـ «لنترك الخزنة مفتوحة، قال لوبين، وكذلك الأمر كلّ الدِنان الأخرى، تلك القبور الفارغة...».

طاف في أرجـاء الصـالة وأمعن النظر في بعض الواجهات ثمّ واصل روحاته وغدواته ساهماً:

ـ «كم أشعر بالأسى لأني مرغم على الرحيل! أيّة غصة في قلبي!

أجمل ساعات حياتي قضيتها هنا، وحيداً قبالة الأشياء التي أحبّها... ولن تراها عيناي بعد الآن، ولن تنعم يداي بملمسها».

كان وجهه مشدود القسمات ترتسم عليه ملامح العياء فأحسّ بوترولیه بشيءٍ من الشفقة الغامضة حياله. ذلك أنّ الرجل الواقف قبالته يُكابدُ من الألم ما يفوق طاقة سواه واحتماله، وكذلك الغبطة، أو الإعتزاز أو المهانة.

ثمّ وقف بمحاذاة النافذة وأشار بإصبعه نحو الأفق، وقال:

- «ما يدعو للأسى أيضاً، هو كلّ هذا، كلّ ما أرغمتني الظروف على الإبتعاد عنه. أليس جميلاً؟ البحرُ الواسع... السماء، وضفاف إتريتا العالية، ذات اليمين وذات اليسار، بأبوابها الثلاثة، باب العالية وباب السافلة، وباب الأعطيات... أقواس نصرٍ منصوبة إكراماً لسيّد المكان... وكنتُ، أنا، سيّد المكان! ملك المغامرة! ملك المسلّة الجوفاء! مملكة غريبة وفوق الطبيعة! من قيصر الى لوبين.. أي قدرٍ هذا!».

واستغرق في الضحك.

- «ملك الخرافات؟ ولِمَ المداورة؟ لنقُلها على الفور، ملك إيفوتو! أية دعابةٍ هذه! ملك العالم، أجل، هذه هي الحقيقة! من أعلى هذه المسلّة كنتُ أهيمن على الكون! كنتُ أُمسكُ به بين مخالبي كالفريسة! أرفع تاج سمايتا فرناس الفارسي، يا بوترولیه... أترى جهاز الهاتف المزدوج هذا.. لجهة اليمين الخط المباشر مع باريس وهو خط خاص - ولجهة اليسار الخط المباشر مع لندن - وهو خط خاص. وعبر لندن تتشعب الاتصالات، أميركا، آسيا وأوستراليا! في كلّ هذه القارّات لديّ مصارف ووكلاء وعملاء ومرشدون. إنها

تجارة غير مشروعة على المستوى الدولي. سوق الآثار الفنية والتحف، سوق العالم. آه! يا بوتروليه ثمة أوقات يستخفّني فيها سلطاني فتُسكرني الخُيلاء. أتمتع بالقوّة والسلطان حتّى الثمالة...». تحطّم باب الصالة السفلية. وسُمع وقع أقدام غانيمار ورجاله..

وبعد لحظات، أردف لوبين قائلاً بصوتٍ خفيض:

- «والآن، قُضي الأمر... مرّت بي فتاة شقراء ذات عينين كئيبتين وروحٍ مُستقيمة، أجل، مُستقيمة، وقُضي الأمر... فأهدمُ بيديّ هاتين هذا الهيكل الرائع... وما تبقّى يبدو في عينيّ عَبَثاً لا طائل فيه... أصبحتُ لا أرى سوى شعرها.. وعينيها... وروحها الفتية المستقيمة».

كان الرجال يصعدون السلّم. وانهالت ضربات على الباب، الباب الأخير... فأمسك لوبين بذراع بوترولیه.

- «أوتدرك الآن يا بوترولیه، لماذا أطلقتُ يدك، ولم أعترض طريقك في الوقت الذي كنتُ قادراً فيه، ولأسابيع خلت، على سحقك! أو تدرك معنى أن تصل الى هنا؟ لقد وزّعت على الرجال حصصهم من المغانم، ولا بدّ أنّك رأيتهم يغادرون في تلك الليلة. أنت تدرك هذا، أليس كذلك؟ المسلّة الجوفاء، هي المغامرة. وما بقيت لي، أكون المغامر. وحين تُنتزع منّي يكون الماضي كلّه قد انفصل عنّي، ويبدأ المستقبل، مستقبل السِلْم والسعادة وعندئذٍ لن يكون علي أن أحمرّ خجلاً كلّما طالعتني عينا ريموند بنظرة كآبة؛ مستقبل...».

واستدار مغيظاً نحو الباب:

ـ «هلاّ أقلعتَ يا غانيمار، لم أُنهِ كلامي بعد!».

تسارعت الضربات، كأنّهم يحاولون كسر الباب بواسطة عارضة أو عمودٍ خشبي. وكان بوترولِيه واقفاً قبالة لوبين ينتظرُ كأنّه كتلة من الفضول، ما ستسفر عنه الوقائع المتلاحقة دون أن يعي تماماً ما الذي يدبّـره لوبـين. أن يعمد الى تسليم المسلّة أمرٌ قد يقبله العقل، ولكن لماذا يسلّم نفسه؟ ما هي الخطة التي وضعها؟ وهل كان يأمل بالإفلات من قبضة غانيمار؟ ثمّ الى أين ذهبت ريموند؟

ومع ذلك تابع لوبين تمتماته ساهماً:

ـ «مُستقيم، أرسـين لوبين رجل مستقيم... وداعاً للسرقات... والعيش كمـا يحيا الآخرون... ولِمَ لا؟ ولديّ كلّ الأسباب التي تدفعني للإعتقاد أنني سأحظى بقدرٍ مماثل من النجاح... ولكن دعني وشأني يا غانيمار! ألا تعلم، يا أحمق الحمقى، أنني أدلي هنا بكلمات تاريخيّة وأن بوترولِيه يحفظها لكي يتناقلها أحفادنا في ما بعد!».

وراح يـقهقـه:

ـ «إنّها مَضْيعة للوقت. فلن يفهم غانيمار فائدة مثل هذا الكلام التاريخي».

وأمسك قطعة طبشور أحمر واعتلى مرقاةً بجانب الحائط وكتب بالخطّ العريض:

أرسين لوبين يهب فرنسا كلّ كنوز المسلّة الجوفاء، شريطة أن توضع هذه الكنوز في متحف اللوفر وفي صالاتٍ تحمل الاسم التالي: «صالات أرسين لوبين».

«والآن أستطيع أن أغادر مطمئناً. لقد أصبحنا، فرنسا وأنا، مُتعادلين».

عنُفت ضربات المهاجمين واخترقت العارضة أحدَ إطاري المصراع وامتدت من الفتحة يدٌ تبحث عن المزلاج.

ـ «رائع، قال لوبين، لقد استطاع غانيمار أخيراً أن يصل الى غايته، ولو لمرّة وحيدة».

وقفز نحو الباب وانتزع المفتاح من القفل.

ـ «طق، يا صديقي، إنّه باب متين... ولدي متسع من الوقت... والآن أقول لك يا بوترولية الوداع.. وشكراً لك!.. فقد كنتَ قادراً على عرقلة هجومي... إلاّ أنّك آثرت التصرّف بلباقة.. يا لك من فتى لبق!».

دنا من جدارية فان درفايدن الثلاثيّة التي تمثّل ملوك المجوس وطوى احدى أجزائها فبدا من خلفها بابٌ صغير، فأمسك بمقبضه وصرخ قائلاً:

ـ «صيداً ثميناً، يا غانيمار، وأشياء أخرى تعرفها جيّداً!».

ودوّى صوتُ إطلاق نار. فقفز الى الوراء.

ـ «آه! أيّها الوغد، إصابة في القلب! لا بدّ أنّك تلقيتَ دروساً في الرماية، أخيراً؟ أسفي على ملك المجوس! إصابة في القلب! وانكسر مثل غليونٍ في...

ـ إستسلم يا لوبين! صرخ غانيمار وقد بدا مسدّسه عبر الإطار المخلوع، إستسلم يا لوبين!

ـ وهل يستسلم الحرس الملكي؟

ـ حركة واحدة منك فأرديك...

ـ دعكَ من هذا، لن تنال مني من هناك!».

وبالفعل كان لوبين قد ابتعد عن مرمى المسدّس. فباستطاعة غانيمار أن يطلق النار، عبر الإطار المخلوع، مباشرة أمامه وفي خطّ مستقيم، إلّا أنـه لا يستطيع أن يسدّد نحو المكان الذي لاذ به لوبين... ولم يكن موقف هذا الأخير بأفضل، لأنّ المخرج الذي يتيح له الإفلات، أي الباب الصغير خلف اللوحة الثلاثية، يقع في مرمى غانيمـار. وهـذا يعني أنّـه إذا أراد الفرار فسيعرّض نفسه لنار مسدّس الشرطي... ورصاصاته الخمس المتبقيّة.

ـ «سحقاً، قال ضاحكاً، إني أفقد شيئاً من مهارتي. قُضي الأمر، يا صديقي لوبـين، لقـد أردتَ أن تُطيـل لحظة التشويق الأخيرة فانقطع بك الحبل. لقد أفرطت في ثرثرتك».

واحتمى خلف الحائط. أفلح رجال غانيمار في تحطيم إطار آخر ممّا زاد من قدرة غانيمار على التحكّم بمرماه. ثلاثة أمتار فقط كانت تفصل بين الخصمين، وواجهة من الخشب الـمذهّب.

ـ «سـاعدني يا بوترولية، قال الشرطي العجوز مغيظاً.. أطلق عليه النار.. أراك واقفاً كالمتفرّج..!».

وبالفعل، كان إيزيدور واقفاً هناك لا يحرّك ساكناً كأنّه مجرّد مشاهد لم يحسم أمر الجهة التي سينحاز اليها. فقد كان يتحرّق لخوض المعركة وقتل الفريسة العزلاء. إلّا أن شيئاً ما في أعماقه يُثنيه عن ذلك.

أعاده نداء غانيمار الى رشده. فأمسكت يده بقبضة مسدسه.

«إن دخولي المعركة يعني القضاء على لوبين، قال في سرّه... ولي مطلق الحقّ في التدخّل... إنه واجبي...».

تلاقت نظراتهما. وبدت عينا لوبين هادئتين، متيقّظتين يغشاهما ألقُ الفضولِ، كأنّه في الموقف الخطير الذي يتهدّد حياته، لا يبالي إلّا بالنزاع الأخلاقي الذي يكابده الفتى. فهل يقرّر إيزيدور أن يطلقَ طلقة الرحمة على رأس عدوّه المهزوم؟... وفي تلك اللحظة فُتح الباب.

- «إليّ يا بوتروليه، لقد أطبقنا عليه» صرخ غانيمار.

فصوّب بوتروليه مسدّسه.

بعد ذلك جرت الأمور بسرعة خاطفة فلم يدرك حقيقة ما جرى إلّا في ما بعد. رأى لوبين يركضُ مُنحنياً بمحاذاة الحائط ثمّ الباب ويمرّ من تحت السلاح الذي صوّبه غانيمار عبثاً، وشعر بغتةً، هو، بوترولیه، أنّ ثمة من ألقى به أرضاً، ثمّ أمسك به ورفعه بقدرة قادر.

كان لوبين ممسكاً به مثل أضحية بشرية يحتمي خلفها.

- «أراهنك يا غانيمار أنني سأتمكن من الإفلات! ألا ترى أن لوبين لا تنقصه الحيلة...».

وتراجع بخطوات سريعة نحو اللوحة الثلاثية، مُمسكاً ببوترولیه بإحدى يديه وباليد الأخرى فتح باب المخرج وتوارى. لقد كُتبت له النجاة... كان الباب يفضي الى سلّم شديد الانحدار.

- «هيّا، قال لوبين، دافعاً بوترولیه أمامه، لقد هُزمت الجيوش

البـريّـة... والآن لنُجبـه الأسطول الفرنسي. بعد واترلو والطرف الأغرّ.. سوف ترى ما يستحقّ ثمن التذكرة يا بنيّ!... آه! إنهم يحاولون اقتحام اللوحة الثلاثية الآن. أمرٌ مضحك فعلاً.... لقد فات الأوان يا صغاري... هيّا، يا بوتروليه تقدّم...».

كان السلّم المحفور في جنبات المسلّة، في صلب القشرة الصخريّة يلتف حول الكتلة الهرميّة محيطاً مثل لولب المزلاق.

وراح الرجـلان يهبـطان السلم على عجـل، درجتين درجتين، وأحياناً ثلاثاً ثلاثاً. وفي بعض المواضع أثناء هبوطهما المتعجل كانا يُصادفان فُسحات من الضوء يتسرّب عبر الشقوق العريضة، وكان بوتروليه يلمح من خلالها زوارق الصيّد التي تبحر على بعد عشرات الأبواع، وإلى جانبها النسّافة السوداء...

كانا يهبطان ويهبطان، إيزيدور الصامت، ولوبين الذي لم يفقد حيويّته المفرطة.

ـ «كم أتحرّق لمعرفة ماذا يفعل غانيمار الآن؟ هل يهبط السلالم الأخـرى ليسدّ عليّ مدخل النفق؟ لا، ليس غبيّاً الى هذا الحدّ... فبـاستطاعته، في مثل هذه الحال، أن يضع هناك أربعة رجال... وأربعة رجال هم العدد الكافي».

ثـمّ تـوقّف.

ـ «إسمـع... إنهم يصرخـون في الأعـلى... لا بدّ أنهم فتحوا النافذة ويحاولون تحذير أسطولهم... انظر، هناك حركة تأهب بين رجال الزوارق... تبادل إشارات... والنسّافة تتحرّك... يا لبأسِ النسّافة! أعرفُكِ جيّداً، إستقدموكِ من الهافر... يا سدنة المدافع

الى مراكزكم... سحقاً، هؤذا القبطان... صباح الخير، يا دوغاي ـ تروين».

مدّ يده عبر احدى النوافذ ولوّح بمنديله. ثمّ تابع طريقه.

ـ «إن أسطول العدوّ يُبحرُ متأهباً، والإنزال وشيك، يا الهي، كم نلهو جيّداً يا صديقي!».

تناهت إليهما جلبة أصوات من أسفل، وكانا يقتربان في الأثناء من مستوى المياه ولم يلبثا أن أفضيا الى مغارة فسيحة الأرجاء حيث سطعت أنوار مصباحين متحرّكين. ثمّ فجأةً انبثق خيال امرأة من بين الظلال الكالحة وهرعت تحتضن لوبين!

ـ «أسرع! أسرع! لقد أقلقتني!... لماذا تأخّرت؟... ولكن، ألست بمفردك؟...».

فطمأنها لوبين.

ـ «إنّه صديقنا بوتروليه.. تخيّلي لقد كان بوتروليه من الكياسة بحيث... ولكن في ما بعد، سأروي لك كلّ شيء في ما بعد... يجب أن نسرع قبل أن يداهمنا الوقت... شاروليه أين أنت؟.. حسناً.. والزورق؟..».

أجاب شاروليه: «الزورق جاهز».

ـ «أدر المحرّك»، قال لوبين.

وفي غضون ثوانٍ سُمع هدير محرّك؛ وما أن اعتادت عينا بوتروليه قليلاً ظُلمة المكان حتّى أدرك أنّهم يقفون على شبه رصيف ميناء، بمحاذاة المياه حيث يطفو فُلكٌ صغير.

ـ «إنّـه فُلكٌ بمحـرّك، قال لوبين، كأنّه أراد بذلك أن يستكمل ملاحـظات بوترولِيه. قُلْ، ألا يدهشك كل هذا يا إيزيدور؟... أما زلت عاجزاً عن الفهم؟... بما أنّ المياه التي تراها ليست سوى مياه البحر التي تتسرّب الى هذا التجويف خلال المدّ، فإنّ ما تراه أيضاً هو المرسى الذي ابتكرته آمناً وبعيداً عن الأنظار...

ـ لكنّه مُغلَق، قال بوترولِيه معترضاً. لا أحد يستطيع الدخول اليه أو الخروج منه.

ـ بلى، أنا أستطيع، قال لوبين، وإليك البرهان».

وبدأ بمساعدة ريموند في الإنتقال الى الفُلْك، ثمّ عاد لاصطحاب بوترولِيه. إلّا أن هذا الأخير بدا متردّداً.

ـ «هل أنت خائف؟ قال لوبين.

ـ مـمَّ أخـاف؟

ـ من النسّافة التي قد تغرق الفُلْك.

ـ لا.

ـ إذاً أنت تسأل في سرك إذا كان الواجب لا يقضي بأن تمكث في صفّ غانيمار والعدالة والمجتمع والأخلاق، بدل أن تنحاز الى صفّ لوبين والمذلّة والعار والخيانة؟

ـ بـالـضبـط.

ـ ولسـوءِ طالعك يا بنيّ، ليس لك أن تختار... إذ ينبغي، في الوقت الحاضر، أن أدفعهم للاعتقاد بأننا أصبحنا، أنا وأنت، في عداد الأموات... وهكذا أحظى براحة البال الضرورية لأي رجلٍ يريد أن يصبح مُستقيماً. وفي ما بعد، حين أطلق سراحك، ستكون

لك مطلق الحريّة في أن تروي ما تشاء... وعندها أكونُ قد أمنتُ العواقب».

وأحسّ بوتروليه، من الطريقة التي شدّ بها لوبين على ذراعه، بأنّ المقاومة لن تجديه نفعاً. ثمّ، لمَ المقاومة؟ ألا يحق له أن يستسلم لذاك الودّ الطاغي الذي طالما أوحت به شخصيّة لوبين برغم كلّ شيء؟ وكان احساسه هذا بيّناً لدرجة أنه أراد أن يقول له:

«اسمع، ثمّة ما هو أكثر خطورة: إن هولمز يطاردك...».

ـ «هيّا، تعال»، قال لوبين قبل أن يحسم ايزيدور أمره.

فأطاعه ورافقه الى الفُلك الذي بدا له غريباً لا يشبه الزوارق.

وما أن أصبحا على متن الفُلك، هبطا درجات سلّم صغير. شديد التحدّر، وبدا أنه سلّم خشبي صغير مثبّت الى بابٍ قلّاب لم يلبث أن أُقفلَ وراءهما.

وعند أسفل السلّم أفضيا الى حجرة ضيّقة جداً مضاءة بنور مصباح، وحيث جلست ريموند في انتظارهما، فانضمّا إليها وجلسا على مقعد لا يتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص. ثمّ بادر لوبين وقال بلهجة آمر: «انطلق يا شاروليه».

لم يلبث بوتروليه أن أحسّ بذلك الضيق الذي ينتابه عادةً حين تهبط به حجرة مصعد، إذ يتراءى له أنّ الأرض تتلاشى من تحت قدميه مخلّفةً وراءها الفراغ. إلّا أنّ الأرض ليست هي التي تتلاشى، هذه المرّة، بل المياه، بينما تُفتح أبواب الفراغ، على مهلٍ...

ـ «إذاً، أترانا نغرق؟ قال لوبين هازئاً. لا تقلق... فقط مسافة العبور من المغارة العليا حيث نحن الآن الى مغارة صغرى، في

الأسفـل، شبه مفتوحة على البحر وحيث نستطيع الدخول اليها خلال فترة الجزر... وكلّ جامعي الأصداف يعرفونها جيّداً... آه! عشر ثوانٍ من التوقف!... وها نحن نعبر والمعبرُ ضيّق! بحجم الغوّاصة...

ـ ولكن سأل بوترولية، كيف لا ينتبه الصيّادون الى أنّ المغارة السفليّة مزوّدة بفتحةٍ من الأعلى تفضي الى مغارة أخرى حيث يوجد طرف سلّم يُفضي بدوره الى جوف المسلّة حتّى قمّتها. هكذا تكون حقيقة مرّ المسلّة في متناول أوّل عابر سبيل.

ـ خطأ، يا بوترولية! إنّ قبّة المغارة الصغرى تُقفل خلال فترة الجزر بواسطة سقف متحرّك بلون الصخر، ترفعه مياه البحر خلال فتـرة الـمدّ ثمّ تعود وتغلقه باحكام فوق قبّة المغارة الصغرى في تراجعهـا خلال فتـرة الـجزر. ولذلك نستطيع العبور خلال فترة الـمدّ.. أرأيت! إنّـه تصميم مذهـل... فكـرة عبقريّة من ابتكار بيبي... والحقيقة أنّ أحداً من أسلافي الكبار، لا قيصر ولا لويس الرابـع عشر مثـلاً، ما كان ليستـطيع ابتكار هذه الجهازيّة لأنه ببساطة لا يمتلك غوّاصة... كانوا يكتفون باستخدام السلّم الذي يُفضي الى المغارة الصغرى... أمّا أنا فقد انتزعت الدرجات الأخيرة من السلّم وابتكرت هذا السقف المتحرّك. إنّها هديّتي لفرنسا... ريموند، يا عزيزتي، أطفئي المصباح... ما عدنا في حاجة اليه... بل على العكس...».

وبـالفعل فما أن عبرت الغوّاصة المغارة الكبرى حتّى تسرّبت أضواء شاحبة بَدَت بلون المياه عبر كوّتين من جانبي الحجرة وعبر قبّـة صغيرة من الزجاج استُحدثت في متن القارب بحيث يتسنى

للجالس هناك أن يشاهد بوضوح طبقات المياه العليا من البحر.

وفجأة عبر ظلٌّ قاتم فوق الغوّاصة.

- «سيبدأ الهجوم. إن أسطول العدوّ يحاصر المسلّة... ولكن مهما بدت المسلّة جوفاء يبقى السؤال: كيف سيدخلون اليها...».

أمسك المذياع:

- «لا تغادر القعر يا شارولیه... إلى أين وجهتنا؟ لقد قلت لك من قبل.. الى بور - لوبين.. وبالسرعة القصوى، هل سمعت؟ فلن نستطيع أن نرسو هناك إلّا إذا كان مستوى المياه مرتفعاً.. فهناك سيّدة ترافقنا».

كانت الغوّاصة تتقدّم بسرعة بمحاذاة كتلة الصخور، فتتكوّم الطحالب التي تنتزعُ بقوّة عبورها كدغلٍ أسود وتتقاذفها تيّارات الاعماق فتتماوج على مهل وتنبسط كأنها خصلة شعر طافية. عبر ظلّ آخر أكبر حجماً...

- «إنّها السفينة الحربيّة، قال لوبين... سنسمع للمدفع دوياً... ماذا سيفعل دوغاي - تروين؟ هل سيقصف المسلّة؟ إنّ أسفي لشديد يا بوترولیه لأننا لن نشهد المنازلة بين دوغاي - تروين وغانيمار! اجتماع القوى البريّة والقوى البحريّة!... هيه، يا شاروليه! هل أنت نائم...».

كانت الغوّاصة تمخر اللجّة بسرعة فائقة. وتلت الكتل الصخرية الكثبان، ثمّ رأوا كتلاً صخرية أخرى تحدّ الطرف الأيمن من إتريتا، باب العالية. وكانت الأسماك تفرّ فزعةً من كلّ صوب

باستثناء سمكة وحيدة علقت بطرف الكوة وراحت ترمقهم بعينيها الجاحظتين الثابتتين.

ـ «نحو الحياة الجديدة نتقدّم، قال لوبين... ما رأيك يا بوترولیه، أتروق لك صَدَفتي الجميلة؟ لا بأس، أليس كذلك؟... أتذكر مغامرة «سبعة الكبّة»(*)، ونهاية المهندس لا كومب التاعسة؛ أتذكر كيف بادرتُ، بعد الاقتصاص من أولئك القتلة، الى منح الدولة كلّ الأوراق والتصاميم الخاصة ببناء طراز جديد من الغوّاصات ـ هدية أخرى منحتها لفرنسا ـ، ولكني احتفظت من بين هذه الأوراق بتصميم فُلك غوّاص بمحرك، وهكذا أُتيح لك شرف رفقتي في هذه الرحلة البحرية...».

ثمّ نادى على شارولیه:

ـ «إصعد بنا، لقد زال الخطر...».

فطفت بهم الغواصة بسرعة ولم تلبث قبّة الزجاج أن عَلَت فوق مستوى المياه... كانوا على بعد ميل من الساحل، فلا خوف من أن يراهم أحد؛ وهكذا استطاع بوتروليه أن يدرك بدقّةٍ أكبر السرعة الخياليّة التي يتقدّمون بها.

في البداية أبحروا قبالة شاطىء «فيكام» ثمّ توالت الشواطىء النورماندیّة، سان بيار، ليه بوتيت دال، فوليت، سان فاليري، فول، كيبرفيل.

كان لوبين لا يكفّ عن المزاح وكان إيزيدور لا يملّ من النظر اليه

(*) أرسين لوبين، اللصّ الظريف.

وسمــاعــه وقــد أذهلتــه قريحــة ذلك الرجـل وبهجته وصبيانيته ولامبالاته الساخرة، واغتباطه بالحياة.

وكــان يراقب ريموند أيضاً. فقد مكثت المرأة الشابة صامتةً مُلتصقةً بالرجل الذي تحبّ. كانت تمسكُ بيديه الإثنتين وغالباً ما تنظر إليه متأمّلةً، ولاحظ بوترولبه مراراً أن يديها كانتا تتصلبان فجـأةً في ما تغشى عينيها نظرات كآبة عميقة. وفي كلّ مرّة كانت نظراتها بمثابة جواب صامت وأليم لدعابات لوبين ونكاته. حتى بدا أن مثل هذه الخفّة في الكلام، وهذه الرؤية الساخرة للحياة إنّما تثيران في روعها مشاعر الألم. أو كأنها تقول في سرّها:

«اصمت... الضحكُ هو تحدٌّ للقدر... فقد نواجه لاحقاً مشقّات كثيرة!».

قبالةَ دييب غاص الفلكُ مجدّداً لكي لا تكشفه قوارب الصيد الراسية هناك. وفي غضون عشرين دقيقة حرفوا وجهتهم وأبحروا في اتجاه الساحل ودخلَ الفُلكُ الغوّاص الى ميناء بحري صغير تحت الماء، هو عبارة عن فتحةٍ غير مستوية الأطراف بين الصخور، وتقدّم بمحاذاة الحاجز الصخري الى أن صعد وئيداً الى السطح.

- «بور لوبين»، أعلن لوبين.

وكان «بور - لوبين» عبارة عن مكان منعزل، يقع على بعد خمسة فراسخ من «دييب» وثلاثة فراسخ من تريبور، تحدّه من اليمين ومن اليســار كتل الانهيارات الصخرية، أما الشاطىء هناك فقد كان مكسوّاً برملٍ ناعم.

- «الى اليـابسة يا بوترولبه... ريموند، هاتِ يدك... وأنتَ يا

شاروليـه، عُد الى المسـلّة واستـطلع ما يدور بين غانـيمـار ودوغاي ـ تروين، ثـمّ تعود اليّ في آخرِ النهار. إنّ هذه القضيّة تثير فضولي».

كان بوترولية يسأل نفسه بشيء من الفضول كيف الخروج من هذا الجُوين المعزول الذي يُسمّى «بور ـ لوبين»، ولم يطِلْ تساؤله حتى بدت له عند أسفل الضفّة الصخرية العالية درجات سلّم حديدي.

ـ «لو كنت تحفظ جيّداً، يا إيزيدور، دروس الجغرافيا والتاريخ لأدركت أننا عند أسفل مضيق بارفونفال، في مقاطعة بيفيل. فمنذ قرن ونيّف من الزمن، في ليـل ٢٣ آب/أغسطس ١٨٠٣، وصل جورج كادودال برفقة ستة من أعوانه، الى هذا الشاطيء الفرنسي بقصدِ اختطاف المستشار الأوّل بونابرت، واستطاعوا أن يصلوا الى أعلى الضفة عبر الدرب الذي سأرشدك اليه. منذ ذلك الحين أصبح هذا الدرب غير سالكٍ بفعل الانهيارات الصخرية المتتالية. إلّا أن فالـيرا، الشهـير بأرسـين لوبـين، أعاد تأهيله على نفقته الخـاصّـة، وابتـاع مزرعـة «نـوفيليت»، حيث أمضى المتـآمرون المذكورون ليلتهم الأولى، وحيثُ عقد فاليرا العزم على الإقامة بين والدتـه وزوجته، متقاعداً غير آبهٍ بأمور هذا العالم. مات اللص الظريف فليحيَ المزارع النبيل!».

بعد السلّم، هناك ممرّ ضيّق، مجرى سيلٍ طبيعي حفرته مياه الأمطار يُفضي الى شبه سلّم مزوّدٍ بدرابزين. وشرح لوبين أنّ هذا الدرابزين قد استُحدثَ ليقوم مقامَ «حبل التسلّق»، وهو عبارة عن حبل طويل مثبّت بوَتَدَيْن كان أهل المنطقة يستخدمونه للنزول الى

الشاطىء... استغرقهم تسلّق الدرب نحو نصف ساعة ثمّ وصلوا الى هضبة لا تبعد كثيراً عن أحد تلك الأكواخ المحفورة في طين الضفاف نفسها والتي تستخدم كمراكز مراقبة لجمارك الساحل. وما أن انعطفوا قليلاً في اتجاه الكوخ حتى صادفوا أحد رجال الجمارك.

ـ «أما من جديد يا غومل؟ قال لوبين.

ـ لا شيء يا سيّدي.

ـ لا أحدَ ممّن يثيرون الشبهات؟

ـ لا، يا سيّدي... ولكن...

ـ ماذا؟

ـ زوجتي... التي تعمل كخيّاطة في نوفيليت...

ـ أجل، أعلم... سيزارين... ما بها؟

ـ يبدو أنها رأت بحّاراً يتسكّع في أنحاء البلدة هذا الصباح.

ـ ما هي أوصافه، هذا البحّار؟

ـ ليس من الوجوه المألوفة... كأنه انكليزي.

ـ آه! قال لوبين متوجّساً... وهل تبلّغت سيزارين الأمر...

ـ ... بأن تكون متيقظة وتراقب، أجل، يا سيّدي.

ـ حسناً، راقب عودة شاروليه في غضون ساعتين أو ثلاث... وإذا كان لديه ما يستحق التبليغ تجدني في المزرعة».

تابع طريقه وقال لبوترولیه:

ـ «هناك ما يدعو الى القلق... أيكون هولمز؟ آه! إذا كان هولمز،

بالفعل فعلينا أن نتوقّع الأسوأ، نظراً لما يعتملُ في قلبه من سخطه.

ثمّ تردّد للحظات:

ـ «ربّما كان علينا أن نعود أدراجنا... بلى، إنني أتوجّسُ شرّاً...».

كانت سهولٌ فسيحة تترامى متماوجة على مدى البصر. والى اليسار ممرّات مشجّرة تفضي الى مزرعة نوفيليت التي بدت مبانيها بوضوح... كانت تلك هي الخلوة التي أعدّها لإقامته، منتجع الراحة الموعود لحياته المقبلة مع ريموند. فهل يتخلّى عن السعادة الموعودة لحظةً بلوغها بسبب أفكار عبثية وتوجّسات؟

أمسك بذراع إيزيدور وقال له مُشيراً الى ريموند التي كانت تسيرُ أمامهما:

ـ «انظر اليها جيّداً. عندما تسير تتمايل قامتها على نحوٍ يُثير فيّ القشعريرة... ولكن، الحقيقة، أنّ كلّ ما فيها يثيرُ فيّ مقداراً من التأثر والحبّ، حركتها أو سكونها، صمتها أو نبرة صوتها. انظر، لمجرّد أن أقتفي أثر قدميها أشعر بغبطة لا تُضاهى. آه! يا بوترولیه، أوتظنّ أنها ستنسى ذات يوم أنني كنتُ أرسين لوبين؟ وكلّ هذا الماضي الذي تحتقره، هل سأتمكّن ذات يوم من محوه كليّاً من ذاكرتها؟

ثمّ تمالك اندفاعاته، وبثقةٍ عنيدة أضاف:

ـ «سوف تنسى! قال جازماً، سوف تنسى لأنني بذلت في سبيلها كلّ التضحيات. لقد ضحّيت بالملاذ الحصين في المسلّة الجوفاء، بكنوزي، بسلطاني، بكبريائي.. وسأضحّي بكلّ شيء... أصبحتُ لا أريد أن أكون شيئاً... لا شيء سوى رجل يحب.. رجل مستقيم

لأنها لا تستطيع أن تحبّ سوى رجل مستقيم... وبأية حال، ما الذي يضيرني في أن أصبح رجلاً مُستقيماً؟ فليس عار هذا أشدّ من عار أي شيء آخر...».

كانت تلك دعابة أطلقها عفواً. إلاّ أن صوته لم يبدّل من نبرته الصارمة الخالية من السخرية. ثمّ تمتم بنبرة عنف مكتوم:

- «آه! أترى يا بوترولية، ما من بهجةٍ من مباهج الحياة التي عشتها من مغامرة الى أخرى، قد توازي البهجة التي تمنحني إياها نظرة من نظراتها التي تنمّ عن رضى... عندئذٍ أشعر بأنني رجل ضعيف... وأشعر بحاجة للبكاء...».

هل كان يبكي حقاً؟ بدا لبوترولية أنّه يرى دموعاً تملأ عينيه. دموع في عيني لوبين، ودموع حب!

كانوا يقتربون من بوابة قديمة عند مدخل المزرعة. توقف لوبين للحظة وغمغم قائلاً:

- «لماذا أشعر بالخوف؟... كأنّه كابوس... ألم تنته بعدُ مغامرة المسلّة الجوفاء؟ هل أن القدر لا يُقرّ بالحلّ الذي اخترته لها؟».

استدارت ريموند نحوهما وبدت شديدة التوجّس.

- «هذه سيزارين. إنها تهرع الينا...».

وكانت زوجة الجمركي تركض من المزرعة نحوهم. فهرع لوبين لملاقاتها:

- «ماذا! ما الخطب؟ هيّا تكلّمي!».

فقالت سيزارين لاهثةً مُتلعثمةً:

- «رجل... رأيت رجلاً في الصالون.

- الانكليزي الذي رأيته هذا الصباح؟

- أجل... إلّا أنه تنكّر بزي مختلف...

- وهـل رآك؟

- لا. رأى والدتك. فقد بوغت بوجود السيّدة فالميرا حين كان يهمّ بالمغادرة.

- إذاً؟

- قال لها إنه يبحث عن لويس فالميرا، وإنّه صديق لك.

- إذاً؟

- عندئذٍ أجابت السيّدة أن ابنها مسافر... في رحلةٍ تستغرق سنواتٍ...

- وهـل غـادر؟

- لا. راح يلوّح بإشـارات عبر النافذة باتجاه السهل... كأنّه ينادي على أحدٍ ما».

بدا لوبين حائراً. ثمّ انطلقت صرخة مدويّة. فأنّت ريموند:

- «إنها والدتك... عرفت صوتها...».

فارتمى عليها وجرّها في اندفاعة شغف مذعور:

- «تعالي.. لنهرب.. أنت أوّلاً..».

ولكنّه سرعان ما توقّف، حائراً ومرتبكاً.

- «لا، لا أستطيع... إنه أمر فظيع... إغفري لي... يا ريموند... الامرأة المسكينة هناك... إمكثي هنا... لازمها يا بوتروليه».

وانطلق راكضاً بين أشجار المرتفع الذي يحيط بالمزرعة ثمّ انعطف قليلاً وتابعَ في اتجاه مستقيم الى أن وصل الى السياج ناحية السهل... وما لبثت ريموند أن لحقت به ولم يستطع بوترولية أن يعترض طريقها؛ عندئذٍ توارى خلف الأشجار وشاهد، عند الممرّ المقفر الذي يمتدّ بين المزرعة والسياج، ثلاثة رجال، يتقدّمهم أطولهم قامة في ما تبعه اثنان يحملان امرأة تحاول أن تقاوم وتطلقُ صراخاً أليماً.

كان ضوء النهار يضمحِّلُ رويداً. إلاّ أن بوترولية استطاع أن يتعرّف الى شرلوك هولمز. كانت المرأة المحتجزة مُسنّة وبدا وجهُها كآبياً إذ أحاطت به خصلات شعرها الأشيب. دنوا من باب السيّاج وفتح هولمز أحد مصراعيه. وعندئذٍ تقدّم لوبين وانتصب أمامه معترضاً طريقه.

بدت الصدمة هائلة الوقعِ، مُخيفةً، فساد صمتٌ مطبق، وتبادَل العدوّان نظرات الريبةِ طويلاً دون حراك. كانت سمات الحقد المتبادل تشدّ قسمات وجهيهما. ومكثا لا يحرّكان ساكناً.

فقال لوبين برباطة جأش مُرعبة:

ـ «مُرْ رجالك بأن يدعوا المرأة وشأنها.

ـ لا!».

كأن واحدهما، حيال الآخر، يخشى اندلاع المعركة القصوى أو كأنّهما يستجمعان قواهما تأهُّباً. لذلك لم يتبادلا كلاماً لا طائل فيه أو استفزازات هازئة. الصمت فقط. صمت الميّتين.

كانت ريموند تنتظر هلعةٍ ما ستسفر عنه المبارزة، أما بوترولية

فقد أمسك بذراعها ليُبقيها في مكانها. بعد ثوانٍ ردّد لوبين قائلاً:

ـ «مُر رجالك بأن يَدَعوا المرأة وشأنها

ـ لا!».

فهمّ لوبين بالقول:

ـ «اسمع يا هولز...».

إلّا أنه سرعان ما أحسَّ بعدم جدوى الكلام فسكت. إذ ما الجدوى من إطلاق التهديدات في وجهِ هذه الكتلة من الكبرياء والتجبّر والتي تدعى هولز؟

وبغتةً مدّ يده الى جيب سترته عازماً على متابعة المعركة بأي ثمن. فحذّره الانكليزي وانقضّ على رهينته ووضع فوهة مسدسه على مسافةِ اصبعين من صدغها.

ـ «أية حركة منك يا لوبين وأطلق النار».

وفي الوقت نفسه سارع مرافقاه الى تسديد سلاحيهما نحو لوبين.. فتصلّبت عضلات هذا الأخير ومكث في مكانه متمالكاً غيظه الذي يعتمل في داخله كالبركان، ثمّ بلهجة هادئة وقد دسّ يديه في جيبيْ سترته وشرّع صدره عارماً لسلاح عدوّه، قال مجدّداً:

ـ «هولز، للمرّة الثالثة أقول لك دع هذه المرأة وشأنها».

فأجاب الانكليزي ساخراً:

ـ «ربّما تقصد أنّه لا يحقّ لنا أن نتعرّض لها! هيّا، هيّا، دَعْنا من هذا المزاح! أنت لا تُدعى فالميرا، ليس بعد الآن، كما لا تُدعى لوبين، فهو اسم سطوتَ عليه كما سطوت على اسم شارموراس. وتلك التي

تزعم أنها أمك ليست في الحقيقة سوى فيكتوار، شريكتك العجوز، ومربيّتك...».

اقترف هولمز خطأً. فقد استسلم لرغبة الثأر التي تملّكته فنظر الى ريموند للتثبّت من وقع كلماته عليها. فانتهز لوبين هفوة الانكليزي وسارعه بطلقة.

ـ «اللعنة!» صرخ هولمز الذي اخترقت الرصاصة ذراعه.

فأمر رجاله:

ـ «أطلقا النار، ماذا تنتظران! النار!».

غير أن لوبين كان قد سارع في الانقضاض عليهما، ولم تمض ثانيتان إلّا وكان أحدهما طريح الأرض مُحطّم الأضلاع في ما ارتمى الآخر من فوق السيّاج وقد هُشّم فكّه الأسفل.

ـ «هيّا تدبري الأمر يا فيكتوار.. كبّليهما.. والآن يا عزيزي الانكليزي، أصبح الأمر بيننا، فقط أنا وأنت...».

ثمّ انحنى شاتماً:

ـ «آه! أيّها الوغد...».

كان هولمز قد لمّ سلاحه بيده اليسرى وصوّب نحوه.

دوّت طلقة.. ثمّ صرخة استغاثة... كانت ريموند قد هرعت لتقف بين الرجلين، قبالة الانكليزي. ترنّحت قليلاً ووضعت يدها على عنقها ثمّ انتصبت واقفةً ودارت على نفسها ثمّ هوت عند قدمي لوبين.

ـ «ريموند!.. ريموند...!»

فارتمى فوقها واحتضنها.

- «ماتت»، قال.

مكثوا جميعهم في حالة ذهول. وبدا هولز مرتبكاً لما اقترفته يداه. وكانت فيكتوار تتمتم:

- «يا بُنيّ... يا بُنيّ...».

تقدم بوترولیه نحو المرأة الشابة وانحنى للتثبّت من حالتها. وكان لوبين يردّد: «ماتت.. ماتت» بلهجة مَنْ لا يصدّق عينيه، وكأنّه لم يدرك بعدُ حقيقة ما جرى.

إلّا أن وجهه تغضّن فجأة، كأنّ الألم يرسمَ ملامحه من جديد. وعندئذ بدا وكأنّ نوبة جنون تسري في كيانه فتهزّه من الأعماق، فراح يتصرّف كمن فقد صوابه، يتلوّى ويركل الأرض بقدميه كطفلٍ لا يُداري الألم.

- «أيّها البائس!» صرخ فجأةً وقد تملّكه الحقد.

وانقضّ كحيوان ضارٍ طارحاً هولز أرضاً، ممسكاً بخناقه وقد غرز أصابعه المتصلبة في لحم عنقه. وكان الانكليزي يُطلقُ نخيراً دون أن يبدي أية مقاومة.

- «يا بني.. يا بنيّ» توسّلت فيكتوار...

فهرع بوترولیه، وقبل أن يصل اليه كان لوبين قد أفلت الانكليزي وارتمى بقربه على الأرض وجعل يبكي.

منظرٌ مؤثر! كان بوترولیه يعلم جيّداً أنّ فظاعة المأساة التي شهدَها ستظلّ ماثلة في ذاكرته، هو الذي يعرف حبَّ لوبين لريموند،

وكلُّ ما ضحّى به المغامر الشهير من ذاتِ نفسه لكي يُضفي على وجه حبيبته طيف ابتسامة.

كان الليلُ يبسطُ طيفاً من الظلال فوق ساحِ المعركة. وكان الانكليزي ورفيقاه قد طُرحوا أرضاً بين الأعشاب العالية مكبّلين ومكممي الأفواه. وتناهت أصواتُ غناء هدهدت صمت السهل الشاسع. كان غناء أهل نوفيليت العائدين من الحقول.

نهض لوبين وأصغى للأصوات الرتيبة. ثمّ جال ببصره على أنحاءِ المزرعة الهانئة حيث أمِلَ بالعيش الرغد الى جوار ريموند. ثمّ نظر اليها، هي، العاشقة المسكينة، التي قتلها الحبّ والتي بدت نائمةً، بيضاءَ في سُباتها الأبديّ.

كان جمعُ المزارعين يقترب. فانحنى لوبين، وحمل الميتة بين ذراعيه القويتين ورفعها ثمّ ألقى جسدها برفق فوق كتفه.

ـ «هيّا بنا، يا فيكتوار.

ـ هيا بنا، يا صغيري.

ـ الوداع يا بوترولِيه»، قال.

كان يمشي تحت وطأة حمله المأساوي والغالي، تتبعه الخادمة: صامتاً، حاقداً. كان يمشي في اتجاه البحر، ثمّ توغّل مُبتعداً في عمقِ الظلام.

كان أرسين لوبين يعيش طوال عام تقريباً في باريس منتحلاً اسماً آخر، ومدعياً انه رحالة محترف وكان يتوارى عن الأنظار لفترات طويلة مدعياً القيام برحلة صيد بينما كان في الواقع يقوم بتنفيذ بعض مخططاته.

وذات يوم انقطعت أخبار لوبين حيث أصيب خلال احدى هذه العمليات بطلق ناري.

يتقمص أرسين لوبين في هذه المغامرة الجديدة أدوار شخصيات متعددة كانت تتدخل في الظاهر لمساعدة التحقيق على كشف ملابسات الجريمة بينما كان في الواقع يزيد في تعقيدها.

185513134X